المجالس الإيمانية والتربوية

أ / عزت الجزار

بسم الله الرحمن الرحيم

المجالس
الإيمانية والتربوية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ-٢٠١٣م

بطاقة الكتاب

اسم الكتاب : المجالس الإيمانية والتربوية

تأليف : عزت الجزار

الناشــر : شروق - دار البدر

الصف والإخراج : شروق للترجمة والنشر

عدد الصفحـات : ٣٠٠

مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤

عـدد المــلازم : ١٨,٧٥

رقــم الإيداع : ٢٣٠٨٥ / ٢٠١٣

- شروق للترجمة والنشر
- دار البدر للنشر والتوزيع
المنصورة – أمام مستشفى الطوارئ
٠١٢٢٥٦٨٢٣١٤
shrook.mst@gmail.com

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد:

إن رسالة المسجد رسالة عظيمة، فهو مدرسة الإيمان، وفيه تكمن حياة القلوب، وهو قاعة التسبيح والتهليل والذكر، وله أهميته الكبرى في بناء الأمة.

والمساجد تضيء الأرض كما تضيء النجوم السماء، وهي منارات للسالكين، وهداية للطائعين، ومقصد للعارفين، وموئل للذاكرين، ومدارس لتهذيب النفوس، وتقويم الأخلاق، وصقل العقائد وإنارتها. المساجد مدارس لتلاوة آيات الله البينات، ولتلاوة سنة رسوله ﷺ، ومنها ينطلق التوحيد، ويتخرج الدعاة، وتُقاد الأمة وتُساس الأرض. وهي منذ فجر الإسلام وعلى مدار عصور التاريخ الإسلامي معاهد علم، ومجامع أخوة، وساحة إعداد للجهاد.

وكان المسجد على عهد رسول الله ﷺ وعهد خلفائه الراشدين عرين أسود، ورياض جهاد، ومدرسة جامعة، ومقر قيادة أركان جند الله، ومجلس شوراهم؛ ذلك أن بيت الله أحق البيوت أن ينطلق منها ويرجع إليها ويتجمع فيها ويتآلف جند الله ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾[النور].

وعن ابن عباس: قال ﷺ: **«المساجد بيوت الله في الأرض، تضيء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض»**(١).

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رجلا سأل النبي ﷺ: أي البقاع خير، وأي البقاع شر؟ قال: **«خير البقاع المساجد، وشر البقاع الأسواق»**(٢).

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٢٦٢) (١٠٦٠٨).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٩) (٢١٤٩) وحسنه الألباني في الجامع الصغير (٣٢٧١).

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المسجد بيت كل تقي، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله، إلى الجنة**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- عن رسول الله ﷺ قال: «**ستة مجالس، المؤمن ضامن على الله تعالى ما كان في شيء منها: في مسجد جماعة، وعند مريض، أو في جنازة، أو في بيته، أو عند إمام مقسط يعزره ويوقره**»(٢).

وقال ﷺ: «**إنّ للمساجدِ أوتادًا، الملائكةُ جلساؤُهم، إن غابُوا يفتقدُونهم، وإن مرضُوا عادُوهم، وإن كانُوا في حاجة أعانُوهم**». وقال: «**جليسُ المسجدِ على ثلاثِ خصالٍ: أخٍ مستفادٍ، أو كلمةٍ حكمةٍ، أو رحمةٍ مُنتَظرةٍ**»(٣).

وأنت أخي إمام المسجد: منزلتك من المسجد منزلة القلب من الجسد، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وأنت كما قال ابن فارس: الإمام كل من اقتدى به وقُدّم في الأُمور، والنبي إمام الأئمّة، والخليفة إمام الرعية، والقرآن إمام المسلمين.

وقال ابن منظور: الإمام ما ائتُمّ به من رئيس وغيره، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، أي: قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم.. إمام كل شيء قيّمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين.

لذا أقول لك: إذا قمت بدورك ومهمتك التي أنيطت بك صلح المجتمع، وإذا تقاعست وتكاسلت فسد المجتمع وعمَّ الفساد في الأرض.

وأنت أيها الإمام في مسجدك كالملح للطعام، فلا يُستغنى عنك مطلقاً، فأنت المرشد، والموجه، والمشرف، والمعلم، أنت المحذر من الشرور، والدال على الخير، أنت من ينبه على الخطأ ويقول للمخطئ: أخطأت، ويقول

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٤).

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٨).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٤١٨) وصححه الألباني.

للمحسن: أحسنت، إلى غير ذلك من الأمور الدالة على أهمية دورك.

وأنت عماد المسجد وقوته، بك يؤدي المسجد رسالته، ويقوم بمهمته في نشر الدعوة وتوعية المجتمع وتبصير الناس بأمور دينهم، وهنا تظهر أهمية وظيفتك في حياة الناس؛ إذ إن قوتك تبدو على مجتمعك، وضعفك يظهر أثره في مجتمعك.

ولما كان أمر الإمامة عظيماً، دعا النبي ﷺ للأمة بالرشد فقال: «**الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤمنين**»(١).

أخي إمام المسجد: الناس والمجتمع محتاجون إليك اليوم لعلاج ما أَلَـمَّ بهم من أمراض حقيقية تكمن في: الجهل والغفلة، والميل إلى الشهوات. يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم]، هذه العلل إذا كثرت كَثُرَ الخبث، ونزل البلاء، والله يقول: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

لهذا، فإن منزلتك- أيها الإمام- تعظم لكونك تتولى معالجة هذه العلل، فَدَاء الجهل لا دواء له إلا بالعلم، وحاجة الناس إلى العلم الذي يرفع عنهم حجاب الجهل ويزيل غشاوته، أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وأعظم من حاجة الأرض المجدبة إلى الغيث العميم.

يقول الإمام أحمد- رحمه الله: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

ويقول الإمام ابن القيم- رحمه الله- عن العلم وفضله: به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل

(١) رواه أبو داود (٥١٧) والترمذي (٢٠٧) وابن ماجه (٩٨١) وصححه الألباني.

إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام والعمل مأموم.. إلى قوله: مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل الصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

والمجتمع يتعرض غالبا لعواصف من الفتن والمغريات، تجر بعض الناس جرًّا إلى الفساد والإفساد، وتصرفهم عن طاعة رب العباد، وهنا يأتي دور الإمام المذكر المحذر المشفق على إخوانه، فتُحْيا به القلوب، ويفتح الله على يديه مغاليقها وتزكى النفوس، فيكون له بذلك من الأجر العظيم، والثواب الجزيل ما بينه ﷺ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أوزارهم شَيْئًا»**(١).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤) وأبو داود (٤٦٠٩) والترمذي (٢٦٧٤).

رمضان فرصة الفرص

الفرصة تعني: مجموعةً من الظروف الحياتية المستقبلية المحبَّبة للنفس، وتقدِّم لنا فوائدَ شخصيةً معيَّنة في ظروف مهيّأة ومساعدة؛ لتحقيق أهداف شخصية منشودة.

واغتنامُ الفرص في رمضانَ له بُعْدٌ مغاير، ومعنى عميقٌ، يحتاج منا إلى سرعة فَهْمه واستنتاجه. وتتمحور بعض هذه الفرص في قول الرسول الكريم ﷺ: «**إذا جاء رمضان فتِّحت أبواب الجنة، وغُلقت أبواب النار، وصفِّدت الشياطين**»(١).

ورمضان أعظم فرصة مهيأة ومتاحة للإمام، وما عليه إلا أن يستغلها ويوظفها في خدمة تحقيق مهمته الدعوية الذاتية أو خدمة الدعوة.

فما أن يأتي شهر رمضان، إلا وتُقبل قلوب العباد على الله، فيهرعون إلى بيوت الله -عز وجل- فيصلون ويذكرون الله ويتلون القرآن، ويسألون عما يجهلون من أمور دينهم، هنا لا بد أن يجدوا من يرد على تساؤلاتهم، ويرشدهم في أمور دينهم، ومَنْ يكون هؤلاء إلا الدعاة إلى الله الذين منَّ الله عليهم؛ فزادهم بسطة في العلم والفقه.

لذا، فإن الأجواء الإيمانية التي يكون عليها الناس في رمضان، وهذا الإقبال منقطع النظير على الطاعة والعبادة، هي فرصة بكل المقاييس يجب على الإمام ألا يضيعها، بل يجب عليه أن يهبّ لاستثمارها بكل الوسائل المتاحة والممكنة، وثمة جوانب ومجالات عدة تُفتح أمام الإمام في رمضان لا تفتح أمامه في غيره، منها:

١- أن القلوب تصبح أكثر قربًا إلى الله -تبارك وتعالى- منها في غير رمضان؛ ولذا نرى الرجل الفاسق المعرض، المسارع في الكبائر، تتغير

(١) رواه مسلم (١٠٧٩).

أحواله في رمضان.

٢- وفي رمضان يكثر مرتادو المساجد وتكتظ بهم، وتتعلق قلوبهم بها، فيمكثون فيها الساعات الطوال، وينتظرون الصلاة بعد الصلاة، ويعتكفون العشر الأواخر.

٣- وفي رمضان يصبح الناس أكثر إصغاءً وإقبالًا على الموعظة منهم في غيره ، ويقبلون على دروس العلم وحلقات القرآن.

٤- وفي رمضان يقبل الناس على إخراج الزكوات والصدقات، فيكون ذلك فرصة للإمام لحث الناس وتوجيه الأموال للمصارف المجدية المفيدة.

٥- ويتيح قدوم المرأة للمسجد في رمضان فرصة لخطاب شريحة واسعة لم يكن يتيسر خطابها قبل ذلك؛ فثمة فئة واسعة من النساء لا تأتي إلى المسجد إلا في صلاة التراويح في رمضان.

٦- الغالب على الناس أنهم يهتمون بالصيام ولا يفرطون فيه، حتى مع تفريط بعضهم في الصلاة، والداعية يستفيد من ذلك في أن الصيام يكشف عن جوانب مهمة في النفوس من القدرة على الامتثال، والقدرة على ضبط النفس والسيطرة على شهواتها، وغالبًا ما تكثر أسئلة الناس عن أحكام الصيام، وبالتالي يتخذ الداعي إلى الله هذه النقاط كمدخل للكلام عن جوانب التقصير الأخرى.

اعلم- يا رعاك الله- أنه لا يمكن لأحد أن يستفيد من الفرص المتاحة له إلا إذا كان مستعدًّا لها.

منطلقات الإمام الدعوية في رمضان

أولاً: التصالح مع الذات:

وذلك لأن مفتاح التوفيق في أي عمل هو حسن اتصال قلب العبد بربه، وعلى قدر نجاح هذا الاتصال ودوامه على قدر ما يأتي العون والمدد من الله – تعالى. والداعي إلى الله أمامه مهمة شاقة، ألا وهي محاولة فتح قلوب العباد وتهيئتها لتلقي العلم وامتثال الشرع؛ فكيف يتأتى له ذلك وقلبه في جفاء وبُعد؟ بل أنى له من الطاقة النفسية التي تؤهله لدعوة الآخرين والتأثير فيهم؟ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ثانياً: غرس الاهتمام بالقرآن وتعظيمه في القلوب:

ولا عجب في ذلك... فرمضان هو شهر القرآن؛ قال الله –تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهذا الملمح يجب أن يكون هدفًا استراتيجيًا بالنسبة للإمام؛ لأن الهداية الحقيقية للناس لا تتم إلا بربطهم بمصدر هذه الهداية الربانية- القرآن الكريم- هذا القرآن الذي بفضله بقيت هذه الأمة، وبسببه بوركت، وهو محفوظ لها من ربها، لتتكفل هي بالعمل به، وصبغ الحياة به، وهذا دور الداعية الأول الذي ينبغي أن يبرز له في هذا الشهر؛ لأن شهرًا أُنزل فيه القرآن لجدير بأن يكون للقرآن فيه نصيب أوّلي.

وهناك واجبات تفصيلية تحقق لك هذا المطلب، منها ما يأتي:

١- تعظيمه وتقديسه.

٢- الاستماع والإنصات إليه عند تلاوته.

٣- قراءته وترتيله وتدبّر معانيه.

٤- تعلّمه وتعليمه .

٥- العمل به والاحتكام إليه في أمور الحياة كلها.

٦ - الاتعاظ وأخذ الدروس والعبر مما جاء فيه.

٨- الاهتمام بإبراز مظاهر إعجازه .

٨- الدفاع عنه.

٩- نشره بين الناس.

ثالثاً: إحياء معاني التقوى في النفوس:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ [البقرة]، ما أجمل أن يستشعر الناس معاني التقوى، فتسري فيهم كسريان الدم في عروقهم، قال ابن رجب- رحمه الله: أصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه. وقال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى. قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نورٍ من الله، تخاف عقاب الله. وقال الحسن- رحمه الله: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

هذه المعاني هي التي تحقق للمؤمنين النجاة في الآخرة، وتضمن التماسك في سفينة المجتمع الذي يعيشون فيه، ولا يكونن طرح الإمام طرحًا وعظيًا حماسيًا فقط، وإنما لا غنى عن الطرح العميق، ومحاولة فهم سنن الله -تعالى- التي بثها كسنن ثابتة لا تتغير، ومع توضيح هذه السنن، يكون طرح الأسس الهامة لنتائج التقوى، كمعايير للقياس، فمن ذلك:

- أن التقوى سبب لنزول البركات وسعة الأرزاق، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].
- أن المعيار في تقييم الناس هو التقوى، وهذا هو الفرق الرئيس الذي تذوب معه الألوان والانتماءات الأخرى، وهو أساس التعارف، وأساس التقديم والتأخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

- أن الزاد في الحركة بهذا الدين الذي يعطي الإنسان القدرة على السبق والفوز والمسارعة، هو: التقوى؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

رابعاً: ربــط المسلم بالمساجد:

لنحقق هذه الخصلة و«**رجل قلبه معلق بالمساجد**». فكلما نودي للصلاة فيها سارع إليها وإليه بشوقٍ وشديدِ رغبة؛ لينال القلب ارتياحه الذي لا يتهيأ بمتاع الدنيا وإن عظم، وإذا قضيت الصلاة ظلّ القلب معلّقًا بالمسجد، وإن خرج منه الجسد حتى يعود إليه مرة أخرى.

لنحقق: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة].

وعن أنس- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**أَوّل ما يُحاسَبُ بِهِ العبدُ يومَ القيامةِ الصلاة، فإنْ صَلحَتْ صَلح لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وإِنْ فسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ**»[(١)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**الصَّلاَةُ الخمْسُ، وَالجمُعَةُ إِلَى الجمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**»[(٢)].

وعَنْه أيضا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[(٣)].

وقال الحسن البصري: أيها المؤمن، لن تعدم المسجد إحدى خمس فوائد

(١) انظر حديث (٢٥٧٣) في صحيح الجامع.
(٢) رواه مسلم (٢٣٣).
(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).

أولها: مغفرة من الله تكفر ما سلف من الخطيئة، وثانيها: اكتساب رجل صالح تحبه في الله، وثالثها: أن تعرف جيرانك فتتفقد مريضهم وفقيرهم، ورابعها: أن تكف سمعك وبصرك عن الحرام، وخامسها: أن تسمع آية تهديك.

خامساً: إحياء مفهوم وفقه التغيير للنفس والمجتمع:

فالله- عز وجل- قد تكفل في هذا الشهر بتشريع الصوم الذي يكتم جانب الشهوات في الإنسان؛ ليكون منه مزيد من المحاكاة التي يقوم عليها فقه الصوم في نفس المسلم، فيكون التغيير.

وربنا- سبحانه- غيَّر سننًا كونية في رمضان؛ ففتح لنا أبواب الجنة، وأغلق أبواب النار، وصفّد لنا الشياطين، وليس هذا إلا تغييرًا في رمضان، ونفحات من رمضان. لكن تبقى السنة الكونية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

لذلك لا بد للإمام من أن يستثير الإيجابية في نفس المسلم، خصوصًا أنه في عبادة هي كلها لله -تعالى-؛ قال الله -تعالى- في الحديث القدسي: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»[1]، فهذا سيكون له أثر كبير في تقوية العزم نحو التغيير.

سادساً: إحياء فقه الأمل:

ففي شهر رمضان المبارك العديد من الأحداث الهامة في تاريخ الأمة؛ ففيه: بدر الكبرى، وفيه: فتح مكة، وفيه: فتح الأندلس، وفيه: عين جالوت، وفيه: العاشر من رمضان.

والإمام الفقيه لا يسرد هذه الأحداث سردًا قصصيًا، يداعب به نفوس الناس، ويجعلهم يعيشون مع لذة التاريخ وأمجاده، كلا، بل يربط بين حال المسلمين وبين النصر والهزيمة؛ ليكون هذا مرشدًا لهم في واقعهم المعاصر؛

---

(١) رواه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١).

فإحياء الأمل في النفوس مع استمرار المحاولة الجادة في تغيير الواقع مطلب مهم؛ حتى لا تصاب النفوس باليأس والإحباط من جرَّاء الانكسارات المتتالية للأمة في وقتها المعاصر.

سابعاً: غرس قيم الإسلام في النفوس:

قيم التربية الإسلامية: صفات إنسانية إيجابية راقية مضبوطة بضوابط الشريعة الإسلامية، تؤدي بالمتعلم إلى السلوكيات الإيجابية في المواقف المختلفة التي يتفاعل فيها مع دينه ومجتمعه وأسرته في ضوء معيار ترتضيه الجماعة لتنشئة أبنائها وهو الدين والعُرف وأهداف المجتمع، وتصبح هذه القيم تربوية كلما أدت إلى النمو السوي لسلوك المتعلم، اكتسب بفضل غرسها في ذاته مزيداً من القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، وبين الخير والشر، وبين القبيح والجميل.. إلخ.

وهذه مجموعة من القيم التي ينبغي التركيز عليها:

١ - القيم الإيمانية المتصلة بعلاقة المدعو بربه:

- حب الله وخشيته والخوف من معصيته.
- الرضا والتسليم بقيم الإسلام وأحكامه كمرجعية، والاحتكام إليه في كل شئون الحياة.
- تأدية العبادات الأساسية التي يبنى عليها صحة الإسلام.

٢ - القيم الأساسية للشخصية الإنسانية:

(الإتقان- الحرص على الوقت- الصدق- الأمانة- الحياء- الكرم).

القيم المتصلة بعلاقة المسلم مع المجتمع:

- حب الإصلاح ونصرة الدين.
- الإيجابية والمبادرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- فعل الخير والتكامل وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.
- الأخوة الإسلامية العامة ومناصرة قضايا الأمة.

- دفع الظلم ونصرة المظلوم.

عدة الإمام:

قال الشهيد حسن البنا: «إن تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، ومناصرة المبادئ.. تحتاج من الأمة التي تحاول هذا أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقل إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل في عدة أمور: إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه والخديعة بغيره».

إن هذه المقومات الأربعة: (الإرادة القوية- الوفاء الثابت -التضحية العزيزة- معرفة المبدأ والإيمان به) هي بحق مقومات الإمام الراشد، والداعي الناهض، الذي يعرف ماذا يريد؟ وكيف يحقق ما يريد؟ والوقت الذي يناسب ما يريد.

وهذا يتطلب من الإمام أن يكون هو المجاهد الذي وصف حاله الإمام حسن البنا بقوله: (أتصور المجاهد شخصًا قد أعد عُدَّتَه، وأخذ أُهْبَتَه، وملك عليه الفكرُ فيما هو فيه نواحي نفسه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبدًا، إذا دُعي أجاب، وإذا نودي لبى، غدوه ورواحه.. حديثه وكلامه.. جده ولعبه.. لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له.. ترى في بريق عينيه وتسمع من فلتات لسانه وتقرأ في قسمات وجهه ما يدل على ألم دفين في صدره.. ولا أتصور المجاهد الذي ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء مضغيه، ويضحك ملء شدقيه، فهيهات هيهات أن يكون من الفائزين أو في عداد المجاهدين».

وهذا يتطلب منك أخي الإمام أن تتحلى بعدة صفات:

أولا: صفات علمية: وتتلخص في حفظ القرآن الكريم كله أو جله، وحفظ قدر طيب من السنة، والإلمام بعلوم القرآن، والسنة، والتفسير، والسيرة وفقه الإيمان، وفقه الأحكام، والاطلاع على التاريخ ومعرفة اللغة العربية وعلومها، ومعرفة ما يدور في واقع الأمة، وأبرز قضاياها، وكشف شبهات الباطل

ودحض مفترياته، ومعرفة خطط الأعداء، والتحديات المعاصرة الفكرية والسياسية والسلوكية التي تواجه شباب المسلمين.

ثانيا: صفات عملية: وتتلخص في إخلاصك لله- عز وجل- وبعدك عن الشهرة، والجاه، وحب الظهور، ولا بد من متابعتك للنبي ﷺ في أقوالك وأعمالك، وقوة صلتك بالله تعالى، وإصلاح سريرتك، وصدقك، وغيرتك، وورعك، وكرمك، وحيائك، وحسن تعاملك، وتواضعك، وصبرك، وعفتك، وألا تسرف في المباحات؛ لأنك قدوة، وألا يخالف قولك عملك، وأن تكون مشفقا على إخوانك المسلمين، باذلًا لهم النصح والدعاء، وذا عطف على المحتاجين الفقراء، مستذكرًا دائمًا قوله الله تعالى: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود].

ثالثا: صفات قيادية: وذلك بأن تكون قوي الشخصية، ثابت القلب، ذا حزم ورأي، وثقة بالله تعالى، وشجاعة في غير تهور، ولك نظرة بعيدة، وتفكير عميق وعزيمة قوية، ونشاط دائب، وترتيب لأقوالك وأفكارك وأعمالك، مستشعرًا قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

خطة المسجد خلال شهر رمضان

مفردات الخطة:

- الأعمال الثابتة: (الصلوات الخمس - الدرس اليومي - درس الفقه - الخاطرة اليومية- حديث اليوم - حلقة قرآنية يومية- صلاة التراويح..).
- الأعمال الفئوية: (حلقة للشباب – حلقة للعمال وأصحاب المهن – حلقة للطلاب الثانوي والإعدادي –..).
- العشر الأواخر.

جدول تشغيل المسجد:

اليوم	الدرس	الخاطرة	درس الفقه	حديث اليوم	صلاة التراويح
٢٥ شعبان					
٢٦ شعبان					
٢٧ شعبان					
٢٨ شعبان					
٢٩ شعبان					
١ رمضان					
٢ رمضان					

أما في هذا (**المجالس الإيمانية والتربوية**)، فهو جهد المقل، أقدمه لك زاداً معينًا على أداء مهمتك، جمعت لك فيه جملة من القيم والآداب والمفاهيم التي يحتاج إليها المسلم فرداً وأسرة ومجتمعاً، وكان منهجي فيه الآتي:

- تقديم الموضوع من خلال قصة لإثارة انتباه المستمع.
- التركيز على تعريف عنوان الموضوع لغة واصطلاحاً، لتسهيل فهم

مدلول المصطلح للمتلقي.

- عرض شواهد وأدلة الموضوع من الآيات والأحاديث والآثار ومواقف الرسول ﷺ وأصحابه والسلف الصالح.
- التركيز على الثمرات التي يقطفها المسلم بترجمة هذا الموضوع في حياته، وأيضاً العواقب التي تحل به من جراء مخالفته له.
- ختام الموضوع بالواجبات العملية التي تتحول بالموضوع من الناحية النظرية أو العاطفية إلى الناحية العملية والسلوكية في حياتنا.

وفى الختام أسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

١ ـ المساجد أيها الساجد

أخرج أبو داود من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمِ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو أُمَامَةَ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلاَةِ؟**» قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**أَفَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلاَمًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ الله هَمَّكَ وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ**» قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَ الله ﷻ هَمِّي وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي[١].

فقد كان من أول ما قام به رسول الله ﷺ عند قدومه المدينة هو بناؤه للمسجد، وقد كان مأوى للضعفاء أصحاب الصُّفَّة ومن أصيب بهم أو غيره، ويعتبر المسجد أضخم مؤسسة في الإسلام، فقد كان لهذه المؤسسة دور كبير في تاريخ الدعوة الإسلامية ورسالة مهمة في حياة المسلمين، وسنحاول إلقاء الضوء على هذه الوظائف والأدوار والأهداف التي يحققها في حياة الأمة.

وقد شهد القس المسيحي زويمر بذلك للمسجد فقال: «لا يزال المسلمون بخير مادام عندهم القرآن والمسجد».

المسجد لغة:

اسم لمكان السجود، وبالفتح اسم للمصدر، وهو بيت الصلاة. والمسجد اسم جامع حيث يسجد عليه وفيه. وقال الزجاج: كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد، ومنه قوله ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا**»[٢]. ومسجَد بفتح الجيم: محراب البيت، ومصلى الجماعات مسجِد، والمساجد جمعها، والمساجد أيضا الآراب التي يسجد عليه، ويقال أيضا: مَسيد بفتح الميم.

---

(١) رواه أبو داود (١٥٥٥) وضعفه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٣٣٥).

قال الزركشي- رحمه الله: «ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة، لقرب العبد من ربه، اشتق اسم المكان منه؛ فقيل: مسجد، ولم يقولوا: مركع، ثم إن العُرف خصص المسجد بالمكان المهيّأ للصلوات الخمس، حتى يخرج المُصلّى المجتمع فيه للأعياد ونحوها، فلا يُعطى حكمه».

المسجد اصطلاحاً:

هو المكان الذي وضع للصلاة فيه، وحدد بحدود معروفة، ويقصده الناس في الصلوات الخمس والجمعة، فهذا هو المسجد الذي له آداب وأحكام، ذكرها الفقهاء، وأطالوا الحديث فيها، أما المصلى الذي هو الفضاء والصحراء، فهو المجتمع فيه للأعياد ونحوها، فهذا ليس مسجدا، فلا يأخذ أحكام المساجد[1].

المسجد في القرآن والسنة:

ورد لفظ «المسجد» في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعاً، أمّا في السنّة النبويّة المشرفة، فلا تكاد تحصى كثرة.

ولمكانة المسجد العالية وعظم منزلته عند الله تعالى أضافه إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].

ولعظم فضل المسجد جعل الله تعالى من أقبح القبائح، وأعظم الظلم، المنع من عمارته، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

قال الإمام البغوي فى تفسيره: «معنى الآية: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض بالجهاد، وإقامة الحدود، لهدم في شريعة كل نبي مكان صلاتهم، لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى البِيعُ والصوامع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد».

---

(١) إعلام الساجد للزركشي.

وأمر الله بالتجمل والتزين للمسجد، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال ابن كثير: «وفي هذه الآية- مع ما ورد في السنة النبوية- يستحب التجمل عند الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب؛ لأنه من الزينة والسواك؛ لأنه من تمام ذلك».

وذكر الله مهمة المسجد وغاية إقامته قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨﴾ [النور].

وقوله تعالى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾: قال ابن كثير: أي: أمر الله تعالى ببناء المساجد، ورفعها، وأمر بعمارتها، وتطهيرها. وقيل: أمر الله بتعاهدها، وتطهيرها من الدنس، واللغو، والأقوال، والأفعال التي لا تليق فيها. وذكر الإمام الطبري -رحمه الله- أن معنى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ أي: أذن الله أن تُبنى، وقال بعضهم: «أذن الله أن تعظم...». ثم رجح القول الأول فقال: «وأولى القولين عندي بالصواب القول الذي قاله مجاهد، وهو أن معناه: أذن الله أن ترفع بناءً، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]. وذلك أن هذا هو الأغلب في معنى الرفع في البيوت والأبنية».

وقال العلامة السعدي- رحمه الله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ هذا مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها: بناؤها، وكنسها، وتنظيفها من النجاسات والأذى، وصونها من المجانين والصبيان، الذين لا يتحرزون من النجاسات، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

قال ابن كثير وغيره في قول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ قالوا: أن تطهّر من الأدناس والأرجاس اللغوية والأقوال والأفعال؛ فإن رفع ذكر الله ليس بمجرد تلاوة القرآن وإقامة الصلاة، بل يدخل فيه مثل هذه الأمور.

وحثَّ الله ﷻ على العناية بالمسجد وإعماره؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ

مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة].

وتكون عمارة المساجد ببنائها، وتنظيفها، وفرشها، وإنارتها، كما تكون عمارتها: بالصلاة فيها، وكثرة التردد عليها لحضور الجماعات، وتعلم وتعليم العلوم النافعة، وأعظم العلم النافع تعلُّم القرآن وتعليمه، وغير ذلك من أنواع الطاعات، وإخلاص هذه العبادات كلها لله تعالى، كما قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].

وقال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكانت المساجد مجامع الأمة ومواضع الأئمة، وقد أسس ﷺ مسجده المبارك على التقوى، فكانت فيه الصلاة والقراءة والذكر وتعليم العلم والخطب، وفيه السياسة وعقد الألوية والرايات وتأمير الأمراء وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون كلما حَزَّبهم أمر من أمر دينهم ودنياهم»[(١)].

وما جاء عن النبي ﷺ ما يدل على أهمية المسجد في المجتمع وعِظَم مكانته عند الله تعالى، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**أَحَبُّ البِلادِ إِلَى الله مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ البِلاَدِ إِلَى الله أَسْوَاقُهَا**»[(٢)].

قال الإمام النووي: «أحبّ البلاد إلى الله مساجدها؛ لأنها بيوت الطاعات، وأساسها على التقوى، «وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»؛ لأنها محل الغش، والخداع، والربا، والأيمان الكاذبة، وإخلاف الوعد، والإعراض عن ذكر الله، وغير ذلك مما في معناه».

وقال الإمام القرطبي- رحمه الله: «أحبّ البلاد إلى الله مساجدها» أي: أحب بيوت البلاد، أو بقاعها، وإنما كان ذلك لما خُصَّت به من العبادات، والأذكار، واجتماع المؤمنين، وظهور شعائر الدين، وحضور الملائكة، وإنما كانت الأسواق أبغض البلاد إلى الله؛ لأنها مخصوصة بطلب الدنيا، ومطالب العباد، والإعراض عن

(١) مجموع الفتاوى بتصرف.
(٢) رواه مسلم (٦٧١).

ذكر الله؛ ولأنها مكان الأيمان الفاجرة، وهي معركة الشيطان، وبها يَرْكزُ رايته».

وحثَّ النبي ﷺ على بناء المساجد ورغَّب في ذلك، فعن عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«من بنى مسجداً-** قال بكير: حسبت أنه قال: **يبتغي به وجه الله- بنى الله له مثله في الجنة»**(١). ولفظ مسلم: **«من بنى مسجداً لله-** قال بكير: حسبت أنه قال: **يبتغي به وجه الله تعالى- بنى الله له بيتاً في الجنة»**(٢).

وذكر ابن حجر- رحمه الله- أن قوله ﷺ: **«من بنى مسجداً»** التنكير فيه للشيوع، فيدخل فيه الكبير والصغير. ووقع في رواية أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«من بنى لله مسجداً صغيراً أو كبيراً بنى الله له بيتاً في الجنة»**(٣).

وجاء من حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«من بنى لله مسجداً ولو قدر مِفْحَص قطاة، بنى الله له بيتاً في الجنة»**(٤).

ولعل من أعظم الفضائل ومعالم الأهمية ما ورد في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم **«رجل قلبه معلق بالمساجد»**(٥) كما قال عليه الصلاة والسلام.

ومن أهمية المسجد ما ورد في أجر المكوث فيه؛ فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»**(٦).

وقال الحسن البصري: أيها المؤمن، لن تعدم المسجد إحدى خمس فوائد: أولها: مغفرة من الله تكفر ما سلف من الخطيئة، وثانيها: اكتساب رجل صالح تحبه في الله، وثالثها: أن تعرف جيرانك فتتفقد مريضهم وفقيرهم، ورابعها: أن تكف سمعك وبصرك عن الحرام، وخامسها: أن تسمع آية تهديك.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣/ ٢٥).
(٢) مسلم (٥٣٣/ ٤٣).
(٣) رواه الترمذي (٣١٩) وضعفه الألباني.
(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٣٠٩) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤٣٧).
(٥) رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).
(٦) رواه البخاري (٤٤٥) ومسلم (٦٤٩).

دور المسجد في حياة المسلم:

والآن نسأل: هل حقاً المسجد هو دار للعبادة كالصلاة وقراءة القرآن فقط دون غيرها من الأدوار الأخرى ؟

١- الدور العبادي والتربوي :

يحتاج الإنسان المسلم إلى المكان المناسب الذي يخلو فيه مع خالقه؛ حيث يعمق العلاقة الروحية والاتصال بخالق الكون من خلال ممارسة العبادة التي تقوم بتهذيب الإنسان واقتلاع جذور الشر من نفسه وغرس ملكات الخير فيها بما تملي عليه من دروس حية وتعاليم راقية.

والمسجد هو المكان المناسب والمفضل لتأدية الصلاة؛ حيث يحتاج المصلي إلى حالة من الاطمئنان والراحة والسكينة وحضور القلب وخشوع الجوارح وعدم انشغال الفكر بأمور الدنيا والأمور الثانوية التي تصرفه عن حقيقة العبادة وأهدافها.

ولا يمكن أن يتحصل على هذه المعاني الروحية إلا في المسجد، ولذا جاء في النصوص هذه المعاني الغيبية التي يغنمها الساعي للمسجد:

يقول ﷺ: **«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان»**(١).

وقال ﷺ: **«من غدا إلى المسجد أو راح، أعدّ الله له في الجنّة نزلاً كلما غدا أو راح»**(٢).

وقال ﷺ: **«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا:** بلى يا رسول الله. قال: **«إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصّلاة، فذلكم الرّباط»**(٣).

كما قال ﷺ: **«صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة»**(٤).

وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود ﷺ قَالَ: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى الله غَداً مُسْلِماً، فَلْيُحَافِظْ**

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٣) وابن ماجه (٨٠٢) وقال الترمذي: حسن غريب.

(٢) رواه البخاري (٦٦٢) ومسلم (٦٦٩).

(٣) رواه مسلم (٢٥١).

(٤) رواه البخاري (٦٤٥) ومسلم (٦٥٠).

عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ- المكتوبة- حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا- أي صلاة الجماعة- إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»(١).

٢- الدور التعليمي الثقافي للمسجد:

يعتبر المسجد من أهم الروافد الثقافية في الإسلام؛ حيث يستقي المسلمون تعاليم دينهم من المساجد التي لا يقتصر دورها على الجانب العبادي فقط، بل المسجد مدرسة متكاملة له دوره البارز في تثقيف الأمة وبث الوعي فيها، وتنمية الجانب العلمي والثقافي من خلال رسالة المسجد التي وجد من أجلها. ويظهر ذلك جليا من خلال تتبع تاريخ المسجد في الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وبنائه أول مسجد في الإسلام «قباء» الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

ثم تم تأسيس ذلك الصرح الإسلامي الخالد- مسجده ﷺ- في المدينة الذي شكل أكبر صرح عرفه التاريخ، فمنه كان النبي ﷺ يقود الأمة ويحرك الجيوش الإسلامية، وفيه يتلقى الوحي الإلهي والتنزيل القرآني، وفيه يبث الأحكام الإلهية والتعاليم الدينية، وفيه يقضي بين الناس خصوماتهم ويحل مشاكلهم، ويرعى شؤونهم.

عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ**

---

(١) رواه مسلم (٦٥٤).

بِهِ نَسَبُهُ»(١).

٣- الدور الاجتماعي :

الدور الاجتماعي الذي يقوم به المسجد منذ وضع الرسول ﷺ لبنته الأولى في المدينة وعبر التاريخ دور كبير ومتعدد، فقد كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ :

* **دار إغاثة ورعاية اجتماعية**: فلقد كان النبي ﷺ تأتيه الأموال وهو في المسجد فيقسمها على ذوي الحاجات، فإن لم تكن هناك أموال، وكان في الناس حاجة؛ دعا الأغنياء إلى البذل والإنفاق لإخوانهم المحتاجين، وقام بتوزيعها على الفقراء والمعوزين في المسجد؛ فعن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ؛ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن وأقام، فصلى، ثم خطب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء]، والآية التي في الحشر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر] **تَصدَّقَ رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره**»، حتى قال: «**ولو بشق تمرة**» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى ورأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «**من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(٢).

* **المسجد دار الغريب**: فقد خصص النبي ﷺ في مسجده مكاناً لإيواء الفقراء الذين ليس لهم مأوى ولا محلة يسكنون فيها، عرفوا بأهل الصُّفَّة وهو: مكان مقتطع من المسجد، ومظلل عليه، كان يأوي إليه الغرباء والفقراء من الصحابة- رضي الله

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه مسلم (١٠١٧).

عنهم- ويبيتون فيه، وكانوا يقلون ويكثرون، ويسمون أصحاب الصُّفَّة، وبلغ عددهم سبعين فرداً، على رأسهم أبو هريرة ﷺ، فجعل النبي ﷺ يعطيهم من مال الصدقة، ويخصهم بعطايا أهل الفضل، يقول أبوهريرة ﷺ: مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «**يا أبا هر**»، قلت: لبيك يا رسول الله ﷺ. قال: «**الْحَقْ**»، ومضى فاتبعته، فدخل فاستأذن فأذن لي، فدخل، فوجد لبنًا في قدح فقال: «**من أين هذا اللبن؟**» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال: «**أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي**» قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل، ولا مال، ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها، وأشركهم فيها[(١)].

* **المسجد دار علاج وتطبيب**: اتخذ النبي ﷺ من المسجد مكاناً لعلاج المرضى، ففي غزوة الخندق لما أصيب سعد بن معاذ ﷺ ضرب النبي ﷺ له خيمة في المسجد يعالج فيها ليعوده من قريب، وقامت على تطبيبه رفيدة الأسلمية.

* **المسجد مكان لعقد الزواج**: فقد سنَّ المصطفى ﷺ أن يعلن النكاح في المسجد، فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أعلنوا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف**»[(٢)]، ولعل الحكمة من استحباب جعله في المسجد ليشهد المسلمون هذه الفرحة، وتعيش هذه المساجد مع دورها الاجتماعي الرائد.

قال أحمد: يستحب أن يظهر النكاح، ويضرب فيه بالدف، حتى يشتهر ويعرف.

وهناك أدوار أخرى حققها المسجد في عصوره الأولى، فقد كان:

- دار قضاء وفض نزاع بين المتخاصمين.
- وتجده كذلك محلاً لاستقبال السفراء والوفود وهكذا.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥٢).

(٢) رواه الترمذي (١٠٨٩) وقال: حسن غريب.

٢ـ آداب المساجد

كان أبو عبد الرحمن السلمي يخرج لصلاة الجماعة وهو مريض متكئا على ولديه حتى يقام في الصف، وذهب يوما إلى المسجد وهو مريض، فلما أحسوا أنه في النزع، قالوا له: لو تحولت إلى الفراش فإنه أوثر (ألين وأوطأ) فأخبرهم بحديث النبي ﷺ أن العبد في صلاة ما دام في مصلاه، قال: فأريد أن أموت وأنا في مسجدي.

وهذا عامر بن عبد قيس، كان يصلي إلى الظهر، ثم يصلي إلى العصر، ثم يجلس في المسجد إلى المغرب، ثم يصلي ما بين العشاءين، ثم يرجع إلى بيته، يُسأل: يا عامر أتحدثك نفسك بالصلاة، يعني في الصلاة تفكر في شيء من الدنيا، تسهو في صلاتك؟ قال: نعم أفكر في الصلاة، قالوا: بِمَ تفكر، قال: نفسي تحدثني بالوقوف بين يدي الله ﷻ، للعبد موقفان إن صلح الأول، صلح الثاني، وإن فسد الأول فسد الآخر: الموقف الأول في الصلاة، إن صلح الذي في الصلاة، صلح الذي عند الله ﷻ، وإن فسد، فسد الآخر.

هكذا كان حال الصالحين مع الصلاة ومع بيوت الله، وإليكم بعضاً من فضائل الصلاة في المساجد، وبعضاً من آداب المساجد.

ثواب الصلاة في المسجد:

١ - الأجر المضاعَف:

قال النبي ﷺ: **«صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»**(١).

٢- رفع الدرجات وحط الخطيئات:

قال ﷺ: **«صلاة الرجل في جماعة تَضْعفُ على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد، لا يُخرِجُه إلا الصلاة، لم يخطُ خطوة إلا رُفِعَت له بها درجة، وحُطّ عنه بها خطيئة، فإذا صلّى لم تزل الملائكة تُصلِّي عليه، ما دام في مُصَلاّه ما لم يُحْدِث: اللهم صلّ عليه، اللهم**

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥) ومسلم (٦٥٠).

ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»[١].

٣- من حافَظ على الجماعة عاش بخير ومات بخير:

قال ﷺ: «أتاني الليلة آتٍ من ربي. قال: يا محمد! أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم؛ في الكفّارات والدرجات، ونقل الأقدام للجماعات، وإسباغ الوضوء في السَّبَرات، وانتظار الصلاة، ومَن حافظ عليهن عاش بخير، ومات بخير، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[٢].

٤- الفوز بأجر قيام الليل:

قال ﷺ: «من صلَّى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومَن صلّى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله»[٣].

٥- البراءة من النار والبراءة من النفاق:

قال ﷺ: «مَن صلَّى لله أربعين يوماً في جماعة، يدرك التكبيرة الأولى، كُتب له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق»[٤].

٦- لا عذر للتخلف عن الصلاة في المسجد:

عن عبد الله- وقيل: عمرو بن قيس المعروف بابن أم مكتوم المؤذن رضي الله عنه- أنه قال: يا رسول الله، إن المدينة كثيرة الهوام والسباع. فقال رسول الله ﷺ: «تسمع حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، فحي هلا»[٥].

ثواب المشي إلى المسجد:

١- الفوز بِنُزُلٍ في الجنة:

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧).
(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٣) وأحمد (١/ ٣٦٨) وصححه الألباني.
(٣) رواه مسلم (٦٥٦).
(٤) رواه الترمذي (٢٤١) وحسنه الألباني.
(٥) رواه أبو داود (٥٥٣) وصححه الألباني.
(٦) رواه البخاري (٦٦٢) ومسلم (٦٦٩).

٢- تكفير الخطايا:

قال رسول الله ﷺ: «**إذا توضأ العبد المسلم- أو المؤمن- فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه، خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب**»(١).

٣- اكتساب الحسنات:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم إليها ممشى، فأبعدهم، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرًا من الذي يصليها ثم ينام**»(٢).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار لا أعلم أحدًا أبعد من المسجد منه، وكانت لا تخطئه صلاة. فقيل له: لو اشتريت حماراً لتركبه في الظلماء وفي الرمضاء، قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي، فقال رسول الله ﷺ: «**قد جمع الله لك ذلك كله**»(٣).

٤- بشرى المشائين إلى المساجد:

عن بريدة عن النبي ﷺ قال: «**بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**»(٤).

٥- أجر الخارج من بيته لأداء الصلاة جماعة كأجر الحاج المحرم:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خرج من بيته متطهرا إلى صلاة مكتوبة، فأجره كأجر الحاج المحرم**»(٥).

٦- فرح الله بقدوم العبد إلى المسجد لأداء الصلاة فيه:

ومما يدل على فضل الصلاة مع الجماعة في المسجد ما قاله الرسول ﷺ: «**لا**

---

(١) رواه مسلم (٢٤٤).

(٢) رواه البخاري (٦٥١) ومسلم (٦٦٢).

(٣) رواه مسلم (٦٦٣).

(٤) رواه أبو داود (٥٦١) والترمذي (٢٢٣) وصححه الألباني.

(٥) رواه أبو داود (٥٥٨) وحسنه الألباني.

يتوضأ أحدكم فيحسن وضوءه ويسبغه ثم يأتي المسجد لا يريد إلا الصلاة فيه إلا تبشبش الله إليه كما يتبشبش أهل الغائب بطلعته»(١).

٧- الخارج إلى الصلاة ضامن على الله:

روى أبو داود عن أبي أمامة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة كلهم ضامن على الله ﷻ... ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر وغنيمة»(٢).

٨- ثواب التجمع في المسجد:

قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وتنزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»(٣).

ثواب انتظار الصلاة في المسجد:

- أعظم الناس أجراً: عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها ممشى، فأبعدهم، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصليها ثم ينام»(٤).

- صلاة الملائكة على العبد: قال رسول الله ﷺ: «إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث، تحيط به وتقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»(٥).

- البعد عن النار: قال رسول الله ﷺ: «من اعتكف لله ليلة باعد الله بينه وبين النار سبعين خريفا».

- الفوز بثواب الصلاة: فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٠٧) وضعفه الأرناؤوط.

(٢) رواه أبو داود (٢٤٩٤) وصححه الألباني.

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٤) رواه البخاري (٦٥١) ومسلم (٦٦٢).

(٥) سبق تخريجه.

«لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة»[١]. وقال سعيد بن المسيب: من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه.

- الفوز بأجر المرابط في سبيل الله: انتظارها رباط في سبيل الله؛ لحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»[٢].

ثواب الصف الأول :

- قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»[٣].

- قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول»[٤].

- قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»[٥].

ثواب صلاة الفجر:

قال رسول الله ﷺ: «لو يعلمون ما في العتمة (صلاة العشاء) والصبح لأتوهما ولو حبوا»[٦].

السلف وعمارة المساجد:

قال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة .

كان زياد مولى ابن عباس- أحد العُبَّاد الصالحين- يلازم مسجد المدينة، فسمعوه يوماً يعاتب نفسه ويقول لها: أين تريدين أن تذهبي؟ إلى أحسن من هذا

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩) ومسلم (٦٤٩).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه البخاري (٦١٥) ومسلم (٤٣٧).
(٤) رواه ابن ماجه (٩٩٧) وأحمد (٤/ ٢٦٨) وصححه الألباني.
(٥) رواه أبو داود (٦٧٦) وحسنه الألباني.
(٦) رواه البخاري (٦١٥) ومسلم (٤٣٧).

المسجد؟ تريدين أن تبصري دار فلان ودار فلان .

قال سعيد بن المسيب: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد .

قال ربيعة بن يزيد: ما أذن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد، إلا أن أكون مريضًا أو مسافرًا .

قال يحيى بن معين: لم يفت الزوال في المسجد يحيى بن سعيد أربعين سنة .

آداب المسجد:

١ - الخروج على أحسن هيئة:

قال ابن عبد البر - رحمه الله تعالى: وأما الذين يأتون إلى المسجد في هيئة رثة، ورائحة كريهة، وثياب المهنة، ورداء العمل، وملابس النوم؛ فلا شك أن هؤلاء لم يكلفوا أنفسهم الاعتناء بأخذ الأدب اللازم في بيوت الله تعالى، وهم قد خالفوا قول الله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

٢ - أن يكون طيب الرائحة:

قال عليه الصلاة والسلام: «**من أكل من هذه الشجرة، فلا يقربن مصلانا ولا يغشانا في مساجدنا**»[(١)]، وفي رواية: «**من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم**»[(٢)].

وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يعرف بريح الطيب، وكان يعجبه إذا قام إلى الصلاة (الريح الطيبة، والثياب النقية).

كان عبد الله بن عباس ﷺ إذا خرج إلى المسجد عرف أهل الطريق أنه مرَّ من طيب ريحه.

٣ - التسوك:

قال عليه الصلاة والسلام: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**»[(٣)].. «**السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب**»[(١)].

---

(١) رواه البخاري (٨٥٤) ومسلم (٥٦٤/ ٧٥).

(٢) مسلم (٥٦٤/ ٧٤).

(٣) رواه البخاري (٨٨٧) ومسلم (٢٥٢).

٤- التبكير:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران:١٣٣]،

قال عدي بن حاتم- رضي الله عنه: ما دخل وقت صلاة قط إلا وأنا أشتاق إليها. وقال سعيد بن المسيب- رحمه الله: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد. وقال: ما سمعت تأذيناً في أهلي منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد أردد معهم في المسجد. وما فاتته صلاة الجماعة أربعين سنة ولا نظر في أقفائهم، أي: ما نظر في قفا مصلٍّ، ومعنى ذلك: أنه كان دائماً في الصف الأول.

وكان إبراهيم بن ميمون المروزي من الذين يمتهنون صياغة الذهب والفضة، فكان إذا رفع المطرقة فسمع النداء، ألقاها ولم يردها ولم يطرق بها.

٥- الخروج بسكينة ووقار:

عن أبي قتادة ﷺ قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ سمع جلبةً- يعني: أصواتا- فقال النبي ﷺ: «**ما شأنكم؟**» قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. فقال ﷺ: «**فلا تفعلوا، إذا أتيتم للصلاة، فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا**»(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا**». ويروى أن عمر بن الخطاب رأى رجلًا يمشي يدب دبيب النمل، فقال: لا تميتن علينا ديننا.

٦- المحافظة على أدعية المسجد:

- دعاء الخروج من المنزل إلى المسجد: «بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أعوذ بك أن أَضِل أو أُضل أو أَزِل أو أُزل أو أظلِم أو أُظلم أو أجهِل أو يُجهل علي»(٣).

- دعاء الخروج إلى صلاة الفجر: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً،

---

(١) رواه النسائي (٥) وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٦٣٥) ومسلم (٦٠٣).

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٤) والنسائي (٥٤٨٦) وصححه الألباني.

وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، واجعل لي نورا»[(١)].

٧- دعاء دخول المسجد والخروج منه:

قال ﷺ: «**إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك**»[(٢)]. وعند أبي داود: «**إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، فإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك**»[(٣)].

٨- تقديم الرجل اليمنى عند دخول المسجد واليسرى عند الخروج منه:

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان النبي ﷺ يعجبه التيمن: في تنعله، وترجله، وطهوره، وفي شأنه كله»[(٤)].

وعن أنس ﷺ قال: «من السُّنَّة إذا دخلت المسجد أن تبدأ برجلك اليمنى، وإذا خرجت أن تبدأ برجلك اليسرى»[(٥)].

٩- أداء تحية المسجد عند دخول المسجد:

عن أبي قتادة السلمي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس**»[(٦)].

١٠- صيانة المسجد من الأوساخ:

قال ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فخلع نعليه، فلا يؤذ بهما أحداً، ليجعلهما بين رجليه، أو ليصلي فيهما**»[(٧)].

١١- السلام على المصلين:

ورد عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: كنت أسلم على النبي ﷺ وهو في

---

(١) رواه مسلم (٧٦٣).
(٢) رواه مسلم (٧١٣).
(٣) رواه أبو داود (٤٦٥) وصححه الألباني.
(٤) رواه البخاري (١٦٨).
(٥) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٣٨) وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.
(٦) رواه البخاري (٤٤٤) ومسلم (٧١٤).
(٧) رواه أبو داود (٦٥٥) وصححه الألباني.

الصلاة، فيرد عليَّ، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمت عليه فلم يرد علي، وقال: «إن في الصلاة شغلاً»[١].

مباحات في المسجد:

١- جواز الاستلقاء في المساجد:

فعن عبد الله بن زيد بن عاصم- رضي الله عنه- أنه رأى رسول الله ﷺ مستلقياً في المسجد، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى. وعن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال: كان عمر وعثمان يفعلان ذلك[٢].

٢- جواز النوم في المسجد:

كان أصحاب الصفة ينامون في المسجد. وكان ابن عمر- رضي الله عنهما- ينام في المسجد قبل أن يكون له أهل. فعن نافع قال: أخبرني عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أنه كان ينام وهو شاب أعزب لا أهل له في مسجد النبي ﷺ[٣].

٣- التحدث في الأمور الدنيوية المباحة في المسجد:

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: «أقيمت الصلاة والنبي ﷺ يناجي رجلاً في جانب المسجد، فما قام إلى الصلاة حتى نام القوم»[٤]. وعن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟، قال: نعم، كثيراً، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم ﷺ[٥].

٤- جواز الأكل والشرب في المسجد:

قال عبد الله بن حارث بن جزء الزبيدي- رضي الله عنه: «كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الخبز واللحم»[٦].

---

(١) رواه البخاري (١١٩٩) ومسلم (٥٣٨).
(٢) رواه البخاري (٤٧٥) ومسلم (٢١٠٠).
(٣) رواه البخاري (٤٤٠).
(٤) رواه البخاري (٦٤٢) ومسلم (٣٧٦).
(٥) رواه مسلم (٦٧٠).
(٦) رواه ابن ماجه (٣٣٠٠) وصححه الألباني.

٥- جوزا قول الشعر في المسجد:

كان حسان بن ثابت ﷺ يقول الشعر في المسجد بين يدي رسول الله ﷺ، يمدح رسول الله ﷺ والمؤمنين، ويهجو المشركين ويرد عليهم.

محظورات في المسجد:

١- البيع والشراء في المساجد:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك... الحديث**»(١).

٢-إنشاد الضالة في المساجد:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا ردها الله عليك، فإن المساجد لم تبن لهذا**»(٢). وعند أحمد: «**لا أداها الله عليك**»(٣). وعند الدارمي: «**لا أدى الله عليك**»(٤).

٣- تجنب الكلام بالباطل:

قال شيخ الإسلام- رحمه الله: وأما الكلام الذي يحبه الله ورسوله في المسجد فحسن، وأما المحرم فهو في المسجد أشد تحريماً، وكذلك المكروه يكون في المسجد أشد كراهية، ويكره فيه فضول المباح، وقد ورد عن ابن عباس ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦] قال: «نهى سبحانه عن اللغو فيها».

٤- رفع الصوت في المساجد:

عن كعب بن مالك ﷺ أنه تقاضى ابن أبي حدرد ديناً كان له عليه في المسجد فارتفعت أصواتهما؛ حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته فنادى: يا كعب، قال: لبيك يا رسول الله. قال: «**ضع من دينك هذا**»، وأومأ إليه أي: الشطر. قال: لقد فعلتُ يا رسول الله. قال: «**قم فاقضه**»(٥).

---

(١) رواه الترمذي (١٣٢١) وصححه الألباني.
(٢) رواه مسلم (٥٦٨).
(٣) رواه أبو داود (٤٧٣) ومسلم (٢/ ٣٤٩) وصححه الألباني.
(٤) رواه الدارمي (١٤٥٢).
(٥) رواه البخاري (٤٥٧) ومسلم (١٥٥٨).

وعن السائب بن يزيد قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب. فقال: اذهب فأتني بهذين. فجئته بهما. قال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ[(١)].

٦- تشبيك الأصابع عند الخروج إلى المسجد قبل الصلاة، وجوازه بعدها:

عن كعب بن عجرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا توضأ أحدكم فأحسن وضوءه، ثم خرج عامداً إلى المسجد، فلا يشبكن بين أصابعه فإنه في صلاة**»[(٢)].

٧- الخروج من المسجد بعد الأذان:

فعن أبي الشعثاء قال: «كنا قعوداً في المسجد مع أبي هريرة ﷺ فأذن المؤذن، فقام رجل من المسجد يمشي فأتبعه أبو هريرة بصره حتى خرج من المسجد، فقال أبو هريرة: أما هذا فقد عصى أبا القاسم ﷺ»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٠).

(٢) رواه أبو داود (٥٦٢) والترمذي (٢٨٦) وصححه الألباني.

(٣) رواه مسلم (٦٥٥).

٣ـ الاستقامة

روى الإمام الحاكم في مستدركه عن ربيعة بن كعب الأسلمي- رضي الله عنه- قوله: أعطاني رسول الله ﷺ أرضاً وأعطى أبا بكر أرضاً، فاختلفنا في عذق نخلة. قال: وجاءت الدنيا، فقال أبو بكر: هذه في حدّي. فقلت: لا بل هي في حدي. قال: فقال لي أبو بكر كلمة كرهتها وندم عليها. قال: فقال لي: يا ربيعة قل لي مثل ما قلت لك حتى تكون قصاصا. قال: فقلت لا والله ما أنا بقائل لك إلا خيرا. قال: والله لتقولن لي كما قلت لك حتى تكون قصاصا وإلا استعديت عليك برسول الله ﷺ. قال: فقلت: لا والله ما أنا بقائل لك إلا خيرا. قال: فرفض أبوبكر الأرض وأتى النبي ﷺ وجعلت أتلوه. فقال أناس ممن أسلم: يرحم الله أبا بكر هو الذي قال ما قال ويستعدي عليك. قال: فقلت: أتدرون من هذا؟ هذا أبو بكر.. هذا ثاني اثنين.. هذا ذو شيبة المسلمين.. إياكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة. قال: فرجعوا عني، وانطلقت أتلوه حتى أتى النبي ﷺ فقص عليه الذي كان، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**يا ربيعة ما لك والصديق؟**» قال: فقلت مثل ما قال كان كذا وكذا. فقال لي: «**قل مثل ما قال لك**» فأبيت أن أقول له. فقال رسول الله ﷺ: «**أجل، فلا تقل له مثل ما قال لك، ولكن قل: يغفر الله لك يا أبا بكر**» قال: فولى أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- وهو يبكي(١).

الاستقامة روح تحيا بها الأحوال، وزكاة تربو عليها الأعمال، فلا زكاء للعمل، ولا صحة للحال بدونها، وصاحب الاستقامة هو الشجاع البطل، الفائز في الدارين.

قال السَّرِّي السَّقطي- رحمه الله تعالى: خمس من كن فيه فهو شجاع بطل: استقامة على أمر الله ليس فيها روغان. واجتهاد ليس معه سهو. وتيقظ ليس معه غفلة. ومراقبة الله في السر والجهر ليس معه رياء. ومراقبة الموت بالتأهب(٢).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
(٢) حلية الأولياء (١٠/ ١١٧).

الاستقامة لغة :

هي ضد الاعوجاج .

الاستقامة اصطلاحاً :

لزوم الطريق المستقيم الذي رسمه النبي ﷺ. وعرَّفها عمر- رضي الله عنه- بأنها: أن تلزم الأمر والنهي ولا تروغ عنه روغان الثعالب.

قال الحافظ ابن رجب: الاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك: فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك. [جامع العلوم والحكم].

الاستقامة في القرآن والسنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت] .

أورد الماورديُّ- رحمه الله- خمسة أوجه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾:

أحدها: ثم استقاموا على أن الله ربهم وحده، وهو قول أبي بكر- رضي الله عنه- ومجاهد.

الثاني: استقاموا على طاعته وأداء فرائضه، قاله ابن عباس والحسن وقتادة.

الثالث: على إخلاص الدين والعمل إلى الموت، قاله أبو العالية والسدي.

الرابع: ثم استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم.

الخامس: ثم استقاموا سرًّا كما استقاموا جهراً.

قالوا: «ويحتمل سادساً: أن الاستقامة أن يجمع بين فعل الطاعات واجتناب المعاصي؛ لأن التكليف يشتمل على أمر بطاعة يبعث على الرغبة، ونهي عن معصية يدعو إلى الرهبة» [النكت والعيون: تفسير الماوردي].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود] . قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية: «قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾

الخطاب للنبي ﷺ ولغيره. وقيل: له والمراد أمته. وقيل: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾: اطلب الإقامة على الدين من الله واسأله ذلك. فتكون السين سين سؤال، كما تقول: أستغفر الله، أطلب الغفران منه.

والاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال؛ فاستقم على امتثال أمر الله. ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: استقم أنت وهم؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك، ومن بعده ممن اتبعه من أمته. قال ابن عباس: «ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! قال: «**شيبتني هود وأخواتها**»[(١)] وأخواتها: الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ نهي عن الطغيان، والطغيان: مجاوزة الحد، وقيل: أي: لا تتجبروا على أحد. ا.هـ (تفسير القرطبي).

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ...﴾ [الجن: ١٦، ١٧]. قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية: «قيل: المراد الخلق كلهم ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي: طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً. ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم» (تفسير القرطبي).

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ**»[(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما - قال: إن معاذ بن جبل أراد سفراً فقال: يا رسول الله، أوصني؟ قال: «**اعبد الله لا تشرك به شيئاً**». قال: يا رسول الله، زدني. قال: «**إذا أسأت فأحسن**». قال: يا رسول الله، زد. قال: «**استقم ولتحسن خلقك**»[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٧) وصححه الألباني.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٧٧) وصححه الألباني.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٢١)، هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ مِنْ رِوَايَةِ الْبَصْرِيِّينَ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: «هذا سبيل الله». ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سبل (متفرقة) على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]. واللفظ الآخر: «هذه سبيل الله مستقيماً».

وعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ الله الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ- قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: بَعْدَكَ- قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِالله ثُمَّ اسْتَقِمْ»(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ الله» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(٢).

وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ الله مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ. وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ الله تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ الله تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ الله فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»(٣).

أقوال السلف عن الاستقامة:

سئل أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- عن الاستقامة، فقال: «ألاّ تشرك بالله شيئاً»، استقامة العقيدة.

وسئل عمر عن الاستقامة فقال: «أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ

(١) رواه ابن ماجه (١١) وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٣٨).

(٣) رواه أحمد (٤/ ١٨٢) وقال الأرناؤوط: حيث صحيح وهذا إسناد حسن.

روغان الثعلب»، الحيل الشرعية والفتاوى الضعيفة والتأويلات الباطلة.

وقال عثمان: «استقاموا، أخلصوا العمل لله»، فسر الاستقامة بالإخلاص.

وعلي، والحسن قالا: «استقاموا على أمر الله، عملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته»، فسرا الاستقامة بأداء الفرائض.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة».

وقال أيضا: «وكل ما نهى عنه فهو زيغ وانحراف عن الاستقامة، ووضع للشيء في غير موضعه».

وقال ابن القيم: «إن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت، فكذلك الحال إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد، وكما أن حياة الأحوال بها فزيادة أعمال الزاهدين أيضا وربوها وزكاؤها بها، فلا زكاء للعمل ولا صحة للحال بدونها».

أهمية الاستقامة :

١ - أنها في حقيقتها تحقيق للعبودية التي هي الغاية من خلق الإنس والجن، وبها يحصل للمرء الفوز والفلاح.

٢- أن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ بتحقيقها، وكذلك كل من كان معه، فقال: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾، وقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ..﴾ الآية، وغير ذلك بها.

بل قد أمر الله- تعالى- بها أيضاً أنبياءه، فقال في حق موسى وأخيه عليهما السلام: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس].

٣ - ومما يدل على أهميتها أن رسول الله ﷺ لما جاءه سفيان بن عبد الله الثقفي- رضي الله عنه- يقول له: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، فقال له النبي ﷺ: «**قل آمنت بالله، ثم استقم**»[1].

ثمرات الاستقامة :

الاستقامة إما جَلْبُ مرغوب أو دفع مرهوب: جلب مرغوب: (قلبية - شخصية- اجتماعية).

---

(١) سبق تخريجه قريبا.

أولا: ثمرات قلبية:

١ - نعيم القلب:

قال بعض السلف: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»، وقد تمثلت في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- فقال: «أنا جنتي، وبستاني في صدري، أنَّى رحت فهي معي، إنَّ قتلي شهادة، وسجني خلوة، وإخراجي من بلدي سياحة».

٢ - التسليم:

فأهل الاستقامة مسلِّمين أمرهم لله- تعالى- يؤدون واجباتهم في الأرض، ويتوكلون على الله في السماء، يستعلون على الدنايا، ويتركون مصيرهم إلى الله، يسعون للرزق بكل ما أوتوا من قوة، ويتركون النتيجة لله. وينفقون مما أعطاهم الله، ويتركون حساب الغد إلى الله، ويسيرون مع الأقدار، مؤمنين بأنه لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، ويحتملون الشدة ويصبرون على الضراء، في سبيل الله، ويرجون من الله الخير.

٣ - السرور بالمقدر والرضا به:

المستقيمون رسخ الإيمان بالقدر في نفوسهم، فيعلمون أن ما وصل إليهم من الخير على أي صفة كان فهو منه عز وجل، فيحصل لهم بذلك من الحبور والسرور ما لا يقدر قدره. كان عروة- رحمه الله- في سفر، فظهرت غرغرينة، ثم ترقى به الوجع. وقدم على الوليد وهو في محمل، فقال: يا أبا عبدالله اقطعها، قال: دونك الطبيب. فقال: اشرب المرقد- الخمر- فلم يفعل. فقطعها من نصف الساق، فما زاد أن يقول: حس حس، فقال الوليد: ما رأيت شيخاً قط أصبر من هذا... وأصيب عروة بابنه محمد في ذلك السفر، ركضته بغلة في اصطبل، لم يسمع منه في ذلك كلمة. فلما كان بوادي القرى قال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت واحداً وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة، فأخذت طرفاً وأبقيت ثلاثة، ولئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت.

٤ - سلامة الصدر:

وعدم حمل الغل والبغضاء لعباد الله المؤمنين، فهو يحب لهم ما يحب لنفسه. وانظر إلى سلامة صدر الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- حيث قال عن المعتصم يوم

فتح عمورية: «هو في حل من ضربي»، وقال: «كل من ذكرني ففي حلٍ إلا مبتدعاً، وقد جعلت أبا إسحاق في حل»، والله يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]. وأمر النبي ﷺ أبا بكر- رضي الله عنه- بالعفو في قصة مسطح. ثم قال: «**وما ينفعك أن يعذب الله أخاك في سبيلك؟**».

٥ – الاستعلاء:

وهذه سمة من سمات أهل الاستقامة. والاستعلاء الحقيقي هو الاعتزاز بالله، والاعتزاز بالنفس وصيانتها عن كل مذلة لغير الله، وكل دنس يصيبها، وكل خضوع لما يملك الإنسان دفعه من الأذى والضرر.

وهذا الاستعلاء من أبرز سمات الإنسان المؤمن، يصاحبه في كل موقف من مواقف حياته، فيملي عليه السلوك الذي ينبغي أن يسلكه. فهو مستعلٍ في وجه المغريات ولو كان في حاجة. لأنه لا ينبغي له- وهو المتصل بالله- أن يحيد عن منهج الله ويخالف دستوره، من أجل كسب مهما يكن من عظمة، فهو حقير، ومهما يكن من كثرة فهو زائل. وهو في وجه الشهوات مستعل ولو أحس بلذعها في أعصابه. وهو في وجه القيم الزائفة مستعل لأنه يملك القيم الحقيقية المستمدة من الله ومنهج الله. وهو في استعلائه لا يحتقر الناس. ومع هذا كله لا يتصف بالاستعلاء إلا ويقرنه المستقيم على دين الله بالتواضع لكافة المسلمين، طاعة لله واقتداءً برسول الله ﷺ.

٦ – القدرة على الحب الخالص:

نعم.. فالحب الخالص سمة بارزة وثمرة يانعة من ثمرات الاستقامة على دين الله «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١) ومن حبه للناس أن يحب الخير لهم، ويدعوهم إلى الخير. إنه حين يأمر وينهى ويصنع ذلك يحب للناس الهدى ويحب الخير لهم، وهو كريم ذو مروءة تنفعل نفسه بآلام الناس فيسرع إلى نجدتهم.

ثانياً: ثمرات شخصية :

١ – ظهور ملامح التقوى والخشوع والحياء على وجوههم:

قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩] فالمستقيم شخص تشع

---

(١) سبق تخريجه.

التقوى من وجهه، ويبدو في قسماته الخشوع، ويتسم في حركاته وفي حديثه بالهدوء والوداعة والحياء، ولكنه مع ذلك قوي. قال أحد السلف: «كنت إذا اعتراني فتور في العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده، فعملت على ذلك أسبوعاً».

٢ - الهمة العالية:

قال ابن القيم- رحمه الله: «النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفوس العلية لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش ولا بالسرقة ولا بالخيانة، لأنها أكبر من ذلك. والنفوس الحقيرة بالضد من ذلك».

٣ – الإيجابية:

بالاستقامة يصبح المستقيم قوة فاعلة في واقع الأرض، يذهلك بفاعليته وإيجابيته. إنه بطبيعة إيمانه لا يملك أن يكون سلبيا في الحياة. ومن إيجابيته الفعالة أنه يقف في طريق الشر، فلا يسمح له أن يتعدى من جانبه وهو يملك وقفه أو تغييره. وإنما ينكره بحسب الإمكان.

٤ – التوازن:

الاستقامة تجعل المسلم شخصا متوازناً، فالمستقيم متوازن، تلمح الاعتدال في سلوكه، وفي فكره وفي شعوره.. متوازن لأن طاقته كلها تعمل، وتأخذ نصيبها من الحياة، لا يندفع مع نزوة طارئة، ولا يسبح في بحر من الأفكار والأحلام ويترك الواقع، لا يغرق في متاع الأرض، ولا يغرق في عالم المادة وهو يستمتع بطيبات الحياة دون تكالب عليها، وهو على استعداد دائم للتخلي عنها إذا دعا إلى ذلك داعٍ. وهو متوازن في نظرته للناس، وفي سماعه للأخبار، ولا يتبع الظن.

٥ - النظافة:

فالمستقيم نظيف.. نظيف في ثيابه، نظيف في سلوكه، نظيف في تعامله مع الناس. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء]، وهو صاحب قلب نظيف من الغل والحسد للمؤمنين، كما أن المستقيم متميز في كل شئونه وصادق مع ربه ومع نفسه

ومع من هم حوله من المجتمع؛ سواءً كانوا مسلمين أم غير ذلك. فهو بأخلاقه وبتعامله وباستقامته يدعو غيره للدخول في الإسلام، ويدعو غيره للالتزام بهذا الدين ممن هم من أبناء الإسلام والمسلمين.

ثالثاً: ثمرات اجتماعية :

١- القبول في الأرض:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[١] .

٢- الأمن والهداية:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [النساء] فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة: الظلم الذي هو الشرك، ظلم العباد، ظلمه لنفسه بما دون الشرك، كان له الأمن والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلم نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقاً، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة. والأمن هو من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم. قال ابن كثير في تفسير الآية: أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

٣ - غنى القلب وجمع الشمل :

قال ﷺ: «**من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينه وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له**»[٢].

٤ - الأخلاق الحسنة وحسن التعامل:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم] وقالت عائشة- رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»[٣]. والمتبع له ﷺ قد ضرب بسهم وافر في حسن الأخلاق

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧).
(٢) رواه ابن ماجه (٤١٠٥) وصححه الألباني.
(٣) رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٣٠) (٧٢).

والتعامل مع الناس.

واجبات عملية:

١- من أهم أسباب الاستقامة إرادة الله لهذا العبد الهداية، وشرح صدره للإسلام، وتوفيقه للطاعة والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

٢- **الإخلاص لله تعالى**، ومتابعة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ .. ﴾ الآية.

٣- الاستغفار والتوبة:

وقد علق الله تعالى الفلاح والنجاح بالتوبة، فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

٤ - محاسبة النفس:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١٨﴾﴾ [الحشر].

قال ابن كثير- رحمه الله تعالى: أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم. اهـ.

فالمحاسبة تحفظ المسلم من الميل عن طريق الاستقامة.

٥ - المحافظة على الصلوات الخمس مع الجماعة:

لأنها صلة بين العبد وربه، وهي من عوامل ترك الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

٦ - طلب العلم:

والمقصود به علم الكتاب والسنة؛ لأنه الوسيلة لمعرفة الله تعالى وكتابه ورسوله ﷺ.

٧ - اختيار الصحبة الصالحة:

لأن الجليس الصالح يعين صاحبه على الطاعة وعلى طلب العلم، وينهيه عن أخطائه، أما الجليس السيئ فعلى العكس من ذلك تماماً، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

٨ - حفظ الجوارح عن المحرمات:

وأهمها: اللسان، فيحفظه عن الكذب والغيبة والنميمة وغيرها، ويحفظ بصره عن المحرمات، وليكن نصب عينيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

٩ - معرفة خطوات الشيطان للحذر منها:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وأخيراً..

«قف في باب الاستقامة، واسكن في باب المداومة، والزم الصبر على العمل، ومن طرق الباب بالخضوع فتح له بالقبول» (أحمد الرفاعي).

٤ـ التفاؤل

حدثت في الأندلس عندما كانت في أيدي المسلمين، أنه كان هناك حَمَّال يحمل أمتعة الناس من السوق إلى بيوتهم بواسطة حمار له. وكان كل يوم على تلك الحالة يعمل في حمل أمتعة الناس. وفي أحد الأيام وبعد انتهاء عمله سأل صاحبنا أصحابه: ماذا يتمنى كل واحد منكم أن يكون في المستقبل؟ فلم يجبه أحد منهم. والسبب أنهم كانوا متعبين، ولم يكن عندهم الاستعداد للإجابة عن السؤال.

فقال لهم: أما أنا فأتمنى أن أكون حاكمًا للأندلس.. فأجابوه باستغراب: حاكم للأندلس!! فقال: نعم.. فقال لصاحبه الذي عن يمينه: ماذا تتمنى أن أصنع لك لو أصبحتُ أنا حاكمًا للأندلس.

قال: إذا أصبحتَ أنت حاكما للأندلس أريدك أن تضعني على ظهر حماري وتجعل ظهري للخلف، وتجعل جنودك يضربونني بالعصي، ويقولون: هذا الكذاب.. هذا الكذاب. فقال صاحبنا الحمال: حسنًا.

وسأل صاحبه الذي عن يساره: ماذا تتمنى أنت؟ قال: أنا أتمنى إذا أصبحتَ أنت حاكما للأندلس أن تعطيني قصراً كبيرا وحصانا أبيض وجواري حسانا. وبدأ صاحبنا يعدد أمانيه.

وتمر الأيام ويبدأ صاحبنا بوضع يده على الخطوة الصحيحة، واستطاع أن يحقق حلمه ويحكم الأندلس، بل هو الحاكم الذي توسعت فيه أرض الأندلس إلى أكبر سعة، وتحققت على يديه الفتوحات، ووسعت المساجد.. إنه الحاكم الحاجب المنصور.

وبعد مرور الأيام والسنين أمر الحاجب المنصور وزيره أن يبحث عن صاحبيه، فوجدهما في السوق.. كل منهما يعمل في نقل الأمتعة بحماره كما كان. فلما حضرا عند المنصور، قال لصاحبه الأول الذي كان عن يمينه: ماذا كنت تتمنى في أيامنا الغابرة؟ فقال: أنا .. أنا.. إنما كانت أحاديث وَلَّت وانتهت. فقال: لا.. لم تنته. وقال لوزير: اجعله على حماره. وفعل به كما أراد.

وقال لصاحبه الثاني: ماذا تمنيت؟ فقال: الجواري الحسان، وأن تعطيني قصرا وسط بستان وحصانا أبيض. فقال لوزيره: أعطوه ما أراد. فسأل الوزير الحاكم الحاجب المنصور: كأنك قسوت على صاحبك الأول بقدر ما عطفت وأكرمت الثاني. فقال: ليعلم أن الله على كل شيء قدير.

نعم.. إنه التفاؤل، الذي يصنع به الرجال مجدهم، ويرفعون به رؤوسهم، فهو نور وقت شدة الظلمات، ومخرج وقت اشتداد الأزمات، ومتنفس وقت ضيق الكربات، وفيه تُحل المشكلات، وتُفك المعضلات، وهذا ما حصل مع رسول الله ﷺ عندما تفاءل وتعلق برب الأرض والسماوات؛ فجعل الله له من كل المكائد والشرور والكُرب فرجاً ومخرجاً.

التفاؤل لغةً:

الفأل: ضد الطيرة، والفأل: أن يكون الرجل مريضاً، فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقول: تفاءلت بكذا.

والتفاؤل هو المصدر من هذا الفعل يقال: تفاءلت تفاؤلاً، والصيغة هنا تدل على المطاوعة، وهي قبول أثر الفعل، أي أن المتفائل قد قبل وتأثر بما رأى من فأل حسن أو سمع من كلمة طيبة.

التفاؤل اصطلاحاً:

الفأل: هو الكلمة الصالحة أو الكلمة الطيبة أو الكلمة الحسنة. سئل ﷺ عن الفأل؟ فقال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»[1].

والتفاؤل: انشراح قلب الإنسان وإحسانه الظن، وتوقع الخير بما يسمعه من الكلم الصالح أو الحسن أو الطيب.

ومن أجمل ما عرّف به التفاؤل أنه «الأفعال أو السلوكيات التي تجعل أفراد المجتمع يتغلبون على الصعوبات والمحن التي قد تواجههم في معيشتهم».

التفاؤل في القرآن والسنة:

قال الله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً

---

(١) رواه البخاري (٥٧٥٤) ومسلم (٢٢٢٣).

خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف].

وقال سبحانه وتعالى على لسان خليله إبراهيم- عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر].

وحذر القرآن من التشاؤم فقال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٢].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا طيرة، وخيرها الفأل**»، قيل: يا رسول الله وما الفأل؟ قال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»(١).

وعن أنس- رضي الله عنه- أن نبي الله ﷺ قال: «**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل: الكلمة الحسنة والكلمة الطيبة**»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ سمع كلمة فأعجبته فقال: «**أخذنا فألك من فِيك**»(٣).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع

---

(١) رواه البخاري (٥٧٥٤) ومسلم (٢٢٢٣).
(٢) رواه البخاري (٥٧٥٦) ومسلم (٢٢٢٤).
(٣) رواه ابن ماجه (٣٩١٧) وصححه الألباني.

نقيضاً من فوقه، فدفع رأسه فقال: «**هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم، وقال: أبشر بنورين أُوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته**»(١).

وعن بريدة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه، فإذا أعجبه اسمه فرح به، ورؤي بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمه رؤي كراهية ذلك في وجهه، وإذا دخل قرية سأل عن اسمها، فإن أعجبه اسمها فرح بها، ورؤي ذلك في وجهه، وإن كره اسمها رؤي كراهة ذلك في وجهه(٢).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: إن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «**الشرك بالله، والإياس من رَوْح الله، والقنوط من رحمة الله**»(٣).

النبي ﷺ يبث روح التفاؤل في الأمة:

التفاؤل هدي الرسول، وقد ترجمه ﷺ واقعًا في حياته، فكان رسول الله ﷺ لا توقفه عن سيره إلى غايته ومقصوده نازلةٌ مهما عظمت، ولا شدةٌ مهما كبرت، هكذا كان ﷺ في جميع مراحله. والمتأمّل في سيرة النبي ﷺ يجد تأكيده الأكيد والحرص الشديد على التبشير في موضع الخوف وبسط الأمل في موضع اليأس والقنوط؛ حتى لا تُصاب النفوس بالإحباط. ومن مواقفه المأثورة في هذا الباب ما يلي:

١- **في مكة**: قال خباب بن الأرت- رضي الله عنه: أتيت النبي ﷺ وهو متوسّد بردَه، وهو في ظلّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟! فقعد وهو محمرّ وجهُه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشَط بمِشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشَقّ باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه**»(٤).

---

(١) رواه مسلم (٨٠٦).
(٢) رواه أبو داود (٣٩٢٠) وصححه الألباني.
(٣) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٥٦).
(٤) رواه البخاري (٣٨٥٢).

٢- في الهجرة: خرج ﷺ وأبو بكر- رضي الله عنه- مطاردين أحاطت بهما المخاوف من كل صوب، ومع ذلك قال لصاحبه ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فصدق الله رسوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة][1].

وعندما كان هو وصاحبه والعرب قاطبة تطاردهما ليظفر كل منهم بمائة من الإبل رصدها كفار قريش، إذ بهما وقد أدركهما أحد الذين أوشكوا أن يستلموا الجائزة، فيقول له ﷺ في هذا الوقت المدلهم وعند هذه الصعوبة وعند هذه الشدة التي تهتز عندها النفوس: «**كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟!**».

٣- يوم الأحزاب: أحاط به خصومه وأعداؤه إحاطة السوار بالمعصم، فبشر أصحابه بفتح الشام وفارس واليمن، وفي قلب هذه المحنة وشدة هذا الهول يقول: «**إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن أموالهم في سبيل الله**»، وصدق المؤمنون بهذه البشارات؛ أما المنافقون فقال قائلهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

مواقف أخرى لم يغب فيها التفاؤل:

١- فِي حَدِيث أَنَس: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَةٍ يُعْجِبهُ أَنْ يَسْمَع: يَا نَجِيح! يَا رَاشِد[2].

٢- وَكَانَ ﷺ إِذَا بَعَثَ عَامِلاً يَسْأَل عَنْ اسْمه، فَإِذَا أَعْجَبَهُ فَرِحَ بِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اِسْمه رُؤِي كَرَاهَة ذَلِكَ فِي وَجْهه.

٣- وَكان النَّبِيُّ ﷺ يستبشر بالخير عند سماع الأسماء، كما في يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عندما طَلَعَ سُهَيْلُ بْنُ عُمَرو، فقال رسول الله ﷺ: «**سُهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**»[3]، فَكَانَ كَمَا قَالَ ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٥) ومسلم (٢٠٠٩).

(٢) رواه الترمذي (١٦١٦) وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٢٧٣١).

٤- بل إن الرسول ﷺ من تفاؤله بالأسماء الحسنة غيَّر بعض أسماء الرجال أو النساء لقبح أسمائهم، وأبدلهم بأسماء جديدة، كما رأى راعيًا لإبل فقال: **«لمن هذه؟»** فقيل: لرجل من أسلم، فالتفت إلى أبي بكر- رضي الله عنه- وقال: **«سلمتَ إن شاء الله»**. وقد غير اسم إحدى الصحابيات من عاصيةٍ إلى جميلةٍ، وغير اسم الصحابي حزَن إلى سهْل، واسم رجل يدعى (أصرم) إلى زرعة.

التفاؤل الإيجابي في حياة سلفنا الصالح:

- التفاؤل الإيجابي هو الذي جعل صحابيا كعمير بن الحمام- رضي الله عنه- يلقي التّمرات من يديه ويسارع إلى جنّة عرضها كعرض السموات والأرض ويغمس نفسه في العدو. قال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، عرضها السماوات والأرض، بخ بخ، لا والله يا رسول الله لا بد أن أكون من أهلها، قال: **«فإنك من أهلها»** فأخرج تميرات، فجعل يأكل. ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل.

- التفاؤل الإيجابي هو الذي جعل صحابيا كأبي أيوب الأنصاري- رضي الله عنه- قد تجاوز التسعين من عمره ينفر في سبيل الله مستشهدا بقول الله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، ويدفن على أسوار القسطنطينية.

- التفاؤل الإيجابي الذي جعل صحابيا أعرج كعمرو بن الجموح- رضي الله عنه- يقاتل في أحد ويقول: والله، إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة، فقد كان عمرو أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنون شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى أحد، قال له بنوه: إن الله- عز وجل- قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك، فقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن بنيَّ هؤلاء يمنعون أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: **«أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد»** وقال لبنيه: **«وما عليكم أن تدعوه لعل الله يرزقه الشهادة»**، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا[1].

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٧٨٢١).

أقوال العلماء في التفاؤل:

قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «الفرق بين الفأل والطيرة، أن الفأل من طريق حسن الظن بالله، والطيرة لا تكون إلا في السوء، فلذلك كرهت».

وقال ابن مسعود- رضي الله عنه: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، واليأس من روح الله».

قال ابن القيم: «ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية، التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، كما أخبرهم ﷺ: «**حبب إليَّ من الدنيا النساء والطيب**»، وكان يحب الحلواء والعسل، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه، ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم».

قال الحليمي- رحمه الله: «كان النبي ﷺ يعجبه الفأل؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله- تعالى- بغير سبب محق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله- تعالى- على كل حال».

قال الطيبي- رحمه الله: «معنى الترخص في الفأل والمنع من الطيرة هو أن الشخص لو رأى شيئاً فظنه حسناً محرضاً على طلب حاجته فليفعل ذلك. وإن رآه بضد ذلك فلا يقبله بل يمضي لسبيله، فلو قبل وانتهى عن المعنى فهو الطيرة التي اختصت بأن تستعمل في الشؤم».

ثـمرات التفاؤل:

١-حسن الظن بالله عز وجل:

والسبب في هذا أن الإنسان إذا رجا الخير، وظن أنه يكون على خير، فإن الله- جل وعلا- عند ظن عبده به؛ وليس معنى ذلك أن الفأل يكون دليلاً على وقوع القدر، لا.. ولكنه رجا الخير وظن حصوله فصار مطلوبًا ومحبوبًا، وإن العبد إِذَا قَطَعَ رَجَاءَهُ وَأَمَلَهُ بالله تَعَالَى فَإِنَّ ذَلِكَ شَرّ لَهُ، وهو من الطِّيَرَة التي فِيهَا سُوء الظَّنّ وَتَوَقُّع الْبَلاء.

٢- يجلب السعادة إلى النفس والقلب:

لأن التفاؤل تنشرح له النفوس وتُسرّ له القلوب، فهو من أسباب سعادة الإنسان وزوال الهم عنه، ولذلك فإن التفاؤل من أهم أسباب الصحة النفسية والبدنية.

٣- ترويحٌ للمؤمن، وسرورٌ له:

قد جَعَلَ الله- تعالى- في فطَر النَّاس مَحَبَّة الْكَلِمَة الطَّيِّبَة وَالأُنْس بِهَا، كَمَا جَعَلَ فِيهِمْ الارْتِيَاح بِالْمَنْظَرِ الأَنِيق وَالْمَاء الصَّافِي وَإِنْ كَانَ لا يَمْلِكهُ وَلا يَشْرَبهُ، كما جاء في وصف بقرة بني إسرائيل أنها تسرّ الناظرين، فهي تسرّ مَن نظر إليها وإن لم يملكها.

٤- في الفأل تقويةٌ للعزائم، ومعونةٌ على الظفر:

وباعثٌ على الجد، فالإسلام رغبنا في التفاؤل؛ لأنه يشحذ الهمم للعمل، وبه يحصل الأمل الذي هو أكبر أسباب النجاح، وهذا من أسرار هذه الشريعة أنها توفر للمسلم أسباب النجاح؛ ولذلك نرى الطالب الذي يذهب للامتحان أو لمناقشة رسالة جامعية وهو عنده حسن ظن بربه تجد همته قوية، وينعكس ذلك على تقويمه ونجاحه، وعكس ذلك من دخل متشائما فسيفشل بلا شك ولو كان يعرف الإجابة معرفة جيدة.

٥- أن تأثير التفاؤل يشمل الفرد والمجتمع:

ولا يقتصر على جانب من جوانب الحياة، بل يطال جميعها، فالتفاؤل على سبيل المثال عاملٌ رئيس في قرارات الاستثمار الاقتصادية، ولذلك فإن الاقتصاديين يضعون في حساباتهم عندما يقيسون نشاط أي مجتمع واتجاهات الاستثمار فيه، بمقدار التفاؤل لدى الناس؛ لأن ذلك يحدد السلوكيات الإنفاقية للأفراد والمجتمع.

٦- أن التفاؤل له علاقة بجميع قراراتنا في حياتنا كلها:

سواء في العبادة، وهو أن يتفاءل العبد بأن الله لن يضيع عبادته وجهده إذا أخلص لله، أو في طلب العلم بأن الله سيرزقه العلم النافع وينفع به، وكذلك التفاؤل له علاقة في العمل أو الوظيفة أو أي نشاط آخر؛ ولذلك في مجتمعنا لو رأيت جميع الأشخاص الناجحين سواء في الدين أو الدعوة أو في التجارة أو في أي مجال ستجد عندهم جميعا قاسما مشتركا، ألا وهو التفاؤل، ويكفي بالتفاؤل حصول الأمل الذي هو من السعادة، وكما قيل: «تفاءلوا بالخير تجدوه».

٧- التفاؤل علاج بدني:

لقد ثبت في البحوث الطبية أن الهم والقلق يسبب نقص المناعة، وبالتالي يضعف الجسم عن مقاومة الأمراض، ويبدأ الجسم تدريجيًا في الضعف والذبول

حتى يصل إلى مرحلة خطيرة: «أوضحت الدراسات الطبية أن الاضطرابات النفسية الحادة ترتبط بالمناعة في الإنسان».

وقد تعوذ الرسول ﷺ من الهم فقال: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن**»(١).

ويقول جون جوزيف: «إن قرحة المعدة لا تأتي مما تأكل، ولكنها تأتي مما يأكلك»، يعني: القلق والهموم وتوتر العواطف والخوف.

واجبات عملية:

١- الثقة بالله والرضا بقضائه:

وغذاؤه علمُ المؤمن أنّه لن يصيبَه إلا ما كتبه الله له؛ فهو سبحانه الذي يملك كلَّ شيء، فلا يستبطئ الرزق، ولا يستعجل النجاة، ولا يقلق على حال الأمة. يتفاءَل حتى لو نزلت به مصيبة أو دهمه مرض أو فقر أو فقد ولدًا أو زوجة. يتفاءل مع العمل على دفع ما يقدر من بلاء أو تخفيف ما نزل بأمته من ضرّ، ثمّ يطمع في ثواب الصبر وتحمّل المشاقّ. نتفاءل لأنّ في كلّ محنة منحةً، ولا تخلو مصيبة من غنيمة. تقول أمّ السائب: الحمّى لا بارك الله فيها، فينهاها النبي ﷺ: «**لا تسبّي الحمّى؛ فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد**»(٢)، ومن ذلك قوله ﷺ: «**ما من مسلم يُشاك شوكة فما فوقها إلا كُتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة**»(٣).

٢- التعرف على الله عز و جل:

ومدلول أسمائه وصفاته حق المعرفة؛ حتى نتمكن- واقعًا وسلوكًا لا مجرد دعوى- من إحسان الظن به سبحانه وتعالى، والاطمئنان إلى تحقيق التعرف على الله.

٣- قراءة التاريخ والسير:

وأن نقرأ في تاريخ البشرية الطويل، ونطالع سِيَر الأنبياء والمصلحين، والذين كانوا يتحسسون في الدجى مفاتيح الفرج وسط أكوام القش، ويثابرون في البحث عنها؛ حتى يكرمهم الله- سبحانه وتعالى.

٤- وأن نتعرف على نفوسنا الأمّارة بالسوء:

داعية الشر، ومركبة الجهل والظلم، فنجاهدها، ونعيد بناء حياتنا بصورة تمكننا

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٥).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٢).

من استثمار طاقاتنا، وتركيزها في جانب يبقينا في دائرة الأهم ويجنبنا ما دونها؛ من مشتتات النفس، ومبعثرات الجهد والوقت، وملهيات المرء عن القيام بالأعمال الأكثر إلحاحًا وضرورة.

٥- الواقعية والبعد عن المثالية:

أن نبتعد عن الأطروحات المثالية غير القابلة للتنفيذ بمفردها، أو بمجموعة الجوانب التي تتكامل معها في دنيا الواقع، وننتقل للعيش في بيئة نقوم فيها بعمل أفضل ما يمكننا تنفيذه.

٦- أن نتقي أحاديث اليائسين ومرافقة المحبَطين:

فهم زُرَّاع الهزيمة، ومطيلو فترة الانكسار وأمد التخلف، ونستعيض عن ذلك بأسر نفسنا في محيط أهل المبادرة، ودائرة أهل الإنجاز والعمل: وجه الأمة المشرق، وطليعتها المباركة نحو الإصلاح والتغيير.

٧- عدم التدني بالنفس:

بأن نتجنب رسم صورة دونية لقدرات نفوسنا وأمتنا، وندع التركيز على عوامل ضعفها والغفلة عن عوامل قوتنا من جهة، ولا نغرق في تضخيم المصائب والخضوع لها.

٨ - الدعاء:

عن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أصابه هم أو حزن فليقل: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمَتِك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي»** فقال رجل من القوم: يا رسول الله، إن المغبون لمن غبن في هؤلاء الكلمات. فقال: **«أجل، فقولوهن وعلموهن، فإنه من قالهن التماس ما فيهن أذهب الله تعالى حزنه، وأطال فرحه»**[1].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٠) وقال: صحيح على شرط مسلم.

٥ـ الأمانة

كان المبارك عبدًا رقيقًا يشتغلُ أجيرًا عند صاحب بستان، وفي ذات يومٍ خرَج صاحبُ البستان مع أصحابٍ له إلى البستان، وقال للمُبارك: ائتِنا برمَّانٍ حلو، فقطف المبارك رمانات ثم قدَّمَها إليهم، فإذا هي حامضةٌ، فقال صاحب البستان: أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟ قال المبارك: لم تأذَنْ لي أنْ آكُل حتى أعرف الحلو من الحامض، فقال له: أنت من كذا وكذا سنة تحرسُ البستان وتقول هذا! وظَنَّ أَنَّه يخدعه، فسأل الجيران، فقالوا: ما أكَل رمانة واحدة. فقال له صاحب البستان: يا مبارك، أريد أنْ أستشيرَك في أمر هام، إنَّني ليس عندي إلا ابنة واحدة، فلمَن أُزوِّجها؟ فقال له: يا سيِّدي، لقد كان اليهود يُزوِّجون للمال، والنصارى يُزوِّجون للجمال، والعربُ يُزوِّجون للحسَب، والمسلمون يُزوِّجون للتَّقوى، فمن أيِّ الأصناف أنت؟ زوج ابنتك للصِّنف الذي أنت منه. فقال: والله لا أُزوِّجها إلا على التقوى، وما وجدت إنسانًا أتقى لله منك، فقد أعتقتُك، وزوَّجتك ابنتي.

سبحان الله! عَفَّ المبارك عن رمَّانةٍ من البستان فسِيق إليه البستانُ وصاحبته، والجزاء من جِنس العمل. ومَن ترَك شيئًا لله عوَّضَه الله خيرًا منه!

ومن هذا البيتِ خرَج عبد الله بن المبارك الذي ملأ الدنيا عِلمًا ووَرَعًا، وكان يقولُ: لأنْ أردَّ درهمًا من شُبهةٍ خيرٌ لي من أنْ أتصدَّق بمائة ألف دِرهم ومائة ألف درهم، حتى عَدَّ ستمائة ألف درهم، وصدَق الله حيث قال: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨]

الأمانة لغةً:

الأمانة ضد الخيانة، وأصل الأَمْن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمانة مصدر أَمِن بالكسر أمانة فهو أمين، ثم استعمل المصدر في الأعيان مجازًا، فقيل: الوديعة أمانة ونحوه، والجمع أمانات، فالأمانة اسم لما يُؤمَّن عليه الإنسان، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧]، أي: ما ائتمنتم عليه، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

الأمَانَة اصطلاحًا:

الأمانة: هي كلُّ حقٍّ لزمك أداؤه وحفظه.

وقيل هي: التَّعفُّف عمَّا يتصرَّف الإنسان فيه مِن مال وغيره، وما يوثق به عليه مِن الأعراض والحرم مع القدرة عليه، وردُّ ما يستودع إلى مودعه.

وقال الكفوي: «كلّ ما افترض على العباد فهو أمانة، كصلاة وزكاة وصيام وأداء دين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار».

الأمانة في القرآن والسنة:

تكرَّر لفظُ الأمانة ومُشتقَّاتها في القُرآن العظيم أكثر من أربعين مرَّة.

والأمانة تأتي في القُرآن ويُراد بها ثلاثة أمور، ذكرها ابن الجوزي في كتابه (نزهة الأعين النواظر): الأول: الفرائض: ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٧]. الثاني: الوديعة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. الثالث: العفَّة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص].

والأمانة من أبرز أخلاق الرسل: فها هو نبيُّ الله هود عليه السلام لما دعا قومَه وأبَوْا أنْ يستَجيبوا لداعي الله واتَّهموه بالسَّفاهة والكذب ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف]. قال ابن كثيرٍ في تفسيره: وهذه الصِّفات التي يتَّصف بها الرسل (البلاغ والنُّصح والأمانة).

لقد جاء جميعُ الرسل وأخبروا قومَهم بأمانَتِهم في تبليغ الرسالة إليهم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [الشعراء]. أي: لا يخون ولا يخدع ولا يغش، ولا يزيد شيئًا أو ينقص شيئًا ممَّا كُلِّفه من التَّبليغ.

الأمانة صِفةٌ تميَّز بها النبيُّ ﷺ ودَعَا إليها: عن عبد الله بن عباسٍ- رضِي الله عنهما- قال: «أخبرَنِي أبو سُفيان أنَّ هِرقلَ قال له: سألتُك ماذا يأمُرُكم، فزعَمتَ أنَّه يأمُر بالصَّلاة والصِّدق والعَفاف والوفاء بالعهد وأداءِ الأمانة، قال: وهذه صفةُ نَبيٍّ»(١).

(١) رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

وكان ﷺ يقولُ عن نفسه: «أمَا واللهِ إنِّي لأمينٌ في السَّماء وأمينٌ في الأرض»(١).

وعند البخاري بلفظ: «ألا تأمَنُوني وأنا أمينُ مَن في السماءِ، يأتيني خبرُ السماء صباحًا ومساءً؟»(٢).

الأمانة أصل في الإنسان:

قال محمد رشيد رضا في تفسيره (المنار): الأصل أنْ يكون الناس أُمَناء، يقومون بوازع الفِطرة والدِّين، والخيانةُ خِلافُ الأصل.

وعن حُذيفة ﷺ قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ حديثين؛ رأيت أحدَهما، وأنا أنتظِرُ الآخَر: حَدَّثَنا أنَّ الأمانةَ نزلتْ في جَذْرِ قُلوبِ الرِّجال، ثم عَلِموا من القُرآن، ثم عَلِمُوا من السُّنَّة، وحدَّثَنا عن رفعها، قال: ينامُ الرَّجلُ النومة فتُقبَضُ الأمانةُ من قلبه، فيَظلُّ أثَرُها مثل أثَر الوَكْت، ثم ينامُ النومة فتُقبضُ، فيبقى أثرُها مثل المَجْل، كجمرٍ دحْرجْتَه على رِجْلِك فنَفِطَ، فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيءٌ، فيُصبحُ الناس يَتبايَعُون، فلا يَكادُ أحدهم يُؤدِّي الأمانة، فيُقالُ: إنَّ في بَني فُلانٍ رجلاً أمينًا، ويُقال للرجل: ما أعقَلَهُ، وما أظرَفَهُ، وما أجلدهُ! وما في قلبه مثقَالُ حبَّة خَردلٍ من إيمانٍ، ويقول حُذَيفة: ولقد أتى زمانٌ وما أُبالي أيَّكم بَايعتُ، لئنْ كان مسلمًا رَدَّهُ عليَّ الإسلام، وإنْ كان نصرانيًّا رَدَّهُ عليَّ ساعيه، فأمَّا اليوم فما كنتُ أُبايعُ إلا فُلانًا وفُلانًا(٣).

الأمانة دليل على إيمان العبد:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ⑧﴾ [المؤمنون].

قال ابن كثيرٍ- رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية: «إنَّ المؤمنين إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدُّونها إلى أهلها، وإذا عاهَدُوا أو عاقَدُوا أَوْفوا بذلك».

وجَمَع الله الأمانات باعتبار تَعدُّد أنواعها وتعدُّدِ القائمين بحِفظها؛ وذلك تنصيصٌ على العُموم، والحِكمة في جمْع الله تعالى الأمانةَ دُون العهد- والله أعلم- أنَّ الأمانة أعمُّ من العهد؛ ولذا فكُلُّ عهدٍ أمانةٌ(٤).

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١/ ٣٣١) (٩٨٩).
(٢) رواه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).
(٣) رواه البخاري (٦٤٩٧) ومسلم (١٤٣/ ٢٣٠).
(٤) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٦٤٦).

وعن فضالة بن عُبَيْدٍ قال: قال ﷺ: «المؤمنُ مَن أَمِنَهُ الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر مَن هَجَر الخطايا والذُّنوب»(١).

وعن أنسٍ ﷺ قال: ما خطبنا رسول الله إلاَّ قال: «لا إيمانَ لِمَن لا أمانةَ له، ولا دِين لِمَن لا عَهْدَ له» [أحمدُ وابن حبان].

خطورة ضياع الأمانة:

١- **ضَياع الأمانة دليلٌ على ضَياع الإيمان أو نُقصانه:** عن أنسٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا إيمانَ لِمَن لا أمانةَ له، ولا دِين لِمَن لا عهدَ له**»(٢).

ويقول عروة بن الزبير ﷺ: «ما نقصت أمانةُ الرجل إلا نقص إيمانُه».

فإذا نقص الإيمان أو ذهَب فلا يكون إلا النِّفاق.

٢- **ضَياع الأمانة من عَلامات النفاق:** عن أبي هُرَيرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حَدَّثَ كذب، وإذا وعَد أخلَف، وإذا اؤتُمِن خان**»(٣).

وعن عبد الله بن عمرٍو- رضِي الله عنهما- أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافقًا خالِصًا، ومَن كانت فيه خَصْلَةٌ منهم كانت فيه خَصْلَةٌ مِن النِّفاق حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِن خان، وإذا حَدَّثَ كذب، وإذا عاهد غدَر، وإذا خاصمَ فَجَر**»(٤).

فإذا ضاع الإيمان وظهَر النفاق فسد الزمان.

٣- **ضَياع الأمانة دليلٌ على فساد الزمان:** عن أبي هُرَيرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيأتي على الناس سنواتٌ خدَّاعاتٌ، يُصَدَّق فيها الكاذبُ، ويُكَذَّب فيها الصادقُ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، وينطق فيها الرُّوَيْبضة**» قيل: وما الرُّوَيْبضة؟ قال: «**الرجل التافه يتكلَّم في أمر العامَّة**»(٥).

وعن عبد الله بن عَمرو بن العاص- رضِي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف بكمْ وبزمانٍ يُوشِكُ أنْ يأتِيَ يُغَرْبَلُ الناسُ فيه غربلةً، ثم تبقى حُثَالةٌ من الناس قدْ**

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٣٤) وصححه الألباني.
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٥٤) وحسنه الأرناؤوط.
(٣) رواه البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩).
(٤) رواه البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨).
(٥) رواه البخاري (٤٠٣٦) وصححه الألباني.

مرِجَتْ عُهودُهم وأماناتهم، فاخْتلَفُوا هكذا، وشَبَّكَ بين أصابعهِ» قالوا: كيف بنا يا رسولَ الله إذا كان ذلك؟ قال: «**تأخُذون بَها تعرفون، وتدعُونَ ما تُنكِرون، وتُقْبِلون على خاصَّتِكم، وتذَرُون أمرَ عَوامِّكم**»(١).

وإذا فسَد الزمان فهذا دليلٌ على قُرب قِيامِ الساعة.

٤- **ضَياع الأمانة علامةٌ من علامات الساعة**: فعن أبي هُرَيرة ﷺ قال: بينما النبيُّ ﷺ في مجلسٍ يُحَدِّثُ القوم جاء أعرابيٌّ فقال: متى الساعة؟ فمضى رسولُ الله ﷺ يحدثُ، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمعْ. حتى إذا قضَى حديثه فقال: «**أينَ أراهُ السَّائِلُ عن الساعِة؟**» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «**فإذا ضُيِّعَتِ الأمانَةُ فانتَظِرِ الساعة**» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهْلِهِ فانتَظِرِ الساعة**»(٢).

وبيَّن النبيُّ ﷺ كيف إضاعتها: فقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضِي الله عنهما- أنَّهُ سمع رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يُبغضُ الفُحْشَ والتَّفحُّشَ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيده لا تقومُ الساعةُ حتَّى يُخوَّنُ الأمينُ، ويُؤتَمنَ الخائنُ. حتَّى يظهرَ الفُحْش والتَّفحُّش، وقطيعةُ الأرْحَامِ وسوء الجوار، والذي نفسُ محمدٍ بيده إنَّ مَثَلَ المؤمن لكمثل القطعة من الذَّهبِ، نفخَ عليها صاحبها فلم تُغيَّرْ ولم تنقصْ، والذي نفسُ محمدٍ بيده إنَّ مَثَلَ المؤمن لكمَثَلِ النحلةِ؛ أكلت طيِّبًا، ووضعت طيِّبًا، ووقعتْ فلم تكسرْ ولم تفسد...**»(٣).

ما أعظَمَ خَطَرَ عدم تأدية الأمانة، وما أعظم السؤال عنها يوم القيامة!

جاء في (تفسير ابن أبي حاتم) عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إنَّ الشهادة تُكفِّر كلَّ ذنبٍ إلا الأمانة، يُؤتَى بالرجل يوم القيامة، وإن كان قُتِلَ في سبيل الله تعالى، فيقال: أدِّ أمانتك، فيقول: وأنَّى أُؤدِّيها وقد ذهبت الدُّنيا؟ فتُمثَّل له الأمانةُ في قَعر جهنم فيَهوِي إليها، فيحملها على عاتِقِه، قال: فتنزل على عاتقه فيَهوِي على أثرها أبَدَ الأبَدَ، قال زاذان: فأتيت البراء بن عازبٍ ﷺ فحدَّثته، فقال: صدَق أخي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٥٧) وصححه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٥٩) ومسلم (٤١٤).
(٣) رواه أحمد (٢/ ١٩٩) وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

فلهذا وغيرِه كان النبيُّ ﷺ يستعيذُ من الخيانة؛ فعن أبي هُرَيرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من الجوع؛ فإنَّه بئس الضَّجيعُ، وأعوذُ بك من الخِيانة؛ فإنها بئست البطانة**»(١).

ثمـرات أداء الأمانة:

١- **الأمانة سببٌ لمحبَّة الله ورسوله ﷺ**: قال رسول الله ﷺ: «**مَن سَرَّهُ أن يُحِبَّهُ الله ورسوله فليَصْدُق حَدِيثَهُ إذا حدَّث، وليُؤَدِّ أمانَتَه إذا اؤتُمِن**»(٢).

٢- **الأمين كالغازي في سبيل الله**: أخرج الإمام أحمدُ وأبو داود عن رافع ابن خَدِيجٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**العامِلُ على الصدَقة بالحقِّ كالغازي في سبيل الله حتى يرجعَ إلى بيتِهِ**»(٣).

٣- **وبيَّن الرسولُ الأمين ﷺ أنَّ الخازن الأمين هو أحد المتصدِّقين**: قال رسول الله ﷺ: «**الخازن المسلم الأمينُ الذي يُعْطِي ما أُمِرَ به كاملاً مُوفَّرًا، طيِّبَة به نفسُه، فيدفعُهُ إلى الذي أُمِرَ لَهُ به، أحدُ المُتصدِّقين**»(٤).

٤- **الأمانة سبب البركة والنماء**: قال النبيَّ ﷺ قال: «**البيِّعان بالخِيار ما لم يتفرَّقا، فإنْ صَدَقَا وبيَّنا بُورِكَ لهما في بيعهما، وإنْ كتَما وكذَبا مُحِقتْ بركةُ بيعهما**»(٥).

٥- **الأمانة سبب للرزق والسعادة في الدنيا**: عن نافعٍ مولى ابنِ عمر ﷺ قال: خرج عبد الله بن عمر- رضِي الله عنهما- في بعض نواحي المدينة، ومعه أصحابٌ لهُ، ووضَعُوا السفرة لَهُ، فمَرَّ بهم راعي غنمٍ، فسلَّم، فقال ابن عمر: هَلُمَّ يا راعي فأصِبْ من هذه السفرة، فقال له: إنِّي صائم، فقال ابن عمر: أتصومُ في مثل هذا اليوم الحارِّ الشديد سمومُه وأنت في هذه الحال ترعى الغنم؟ فقال: والله إنِّي أبادر أيامي الخالية، فقال لهُ ابن عمر وهو يريد أنْ يختبر ورعه وأمانته: فهل لك أنْ تبيعنا

---

(١) رواه أبو داود (١٥٤٧) والنسائي (٥٤٦٨) وابن ماجه (٣٣٥٤) وحسنه الألباني.

(٢) رواه البيهقي وحسَّنه الألباني.

(٣) رواه أبو داود (٢٩٣٦) والترمذي (٦٤٥) وابن ماجه (١٨٠٩) وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) رواه البخاري (١٤٣٨) ومسلم (١٠٢٣).

(٥) رواه البخاري (٢٠٧٩) ومسلم (١٥٣٢).

شاةً من غنمك هذه فنُعطِيَك ثمنها ونُعطِيَك من لحمِها ما تفطر عليه؟ قال: إنها ليست لي بغنمٍ، إنها غنمُ سيدي، فقال له ابنُ عمر: فما يفعلُ سيدك إذا فقَدَها؟ فولَّى الراعي عنه، وهو يرفعُ أصبعَه إلى السَّماء، وهو يقول: فأين الله؟ قال: فجعل ابن عمر يُرَدِّدُ قولَ الراعي، يقول: قال الراعي: أين الله؟ قال: فلمَّا قدم المدينة بعَث إلى مولاه، فاشترى منه الغنم والراعي، فأعتَقَ الراعي ووهَبَ له الغنم.

٦- **الأمانة سببٌ لِحفظ الأهل والمال:** قال الخضرُ لموسى ﷺ مُبيِّنًا سبب بنائه للجدار: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف].

وكان سعيد بن جبير يقول في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾: كان يُؤدِّي الأمانات والودائع إلى أهلها، فحَفِظَ الله تعالى له كنزَه، حتى أدرَكَ ولداه، فاستخرجا كنزهما.

وقد سأل بعضُ خُلَفاء بني العبَّاس بعضَ العلماء أنْ يُحدِّثه عمَّن أدرَكَ، فقال: أدرَكتُ عمر بن عبد العزيز، قيل له: يا أمير المؤمنين، أقفرَتْ أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيءَ لهم- وكان في مرض موته- فقال: أدخِلُوهم عليَّ، فأدخَلوهم، وهم بضعة عشر ذكرًا، ليس فيهم بالغٌ، فلمَّا رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: يا بنيَّ، والله ما منعتُكم حقًّا هو لكم، ولم أكن بالذي آخُذ أموالَ الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إمَّا صالح؛ فالله يتولَّى الصالحين، وإمَّا غير صالح؛ فلا أخلف لَهُ ما يستعينُ به على معصية الله تعالى، قُوموا عنِّي، قال: فلقد رأيت بعض بنيه حمل على مائة فرس في سبيل الله؛ يعني: أعطاها لِمَن يغزو.

٧- **الأمانة سببٌ للنجاة والمرور على الصراط:** فعن حُذيفةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجمعُ الله- تبارك وتعالى- الناس، فيقوم المؤمنون حتَّى تُزْلَفَ لهم الجنَّةُ، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا، استفْتِحْ لنا الجنَّة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنَّة إلاَّ خطيئةُ أبيكم آدم، لستُ بصاحِبِ ذلك، اذهَبُوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال: فيقول إبراهيمُ: لستُ بصاحب ذلك، إنما كُنت خليلاً من وراءَ وراءَ، اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلَّمَهُ الله تكليمًا، فيأتون موسى ﷺ فيقول: لستُ بصاحِبِ ذلك،**

اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحِهِ، فيقول عيسى عليه السلام: لستُ بصاحبِ ذلك، فيأتون محمَّدًا ﷺ فيقوم فيُؤذَن له، وتُرسَل الأمانَةُ والرحمُ فتقومان جنبتي الصِّراطِ يمينًا وشمالاً، فيمُرُّ أولكم كالبرقِ، قال: قلت: بأبي أنت وأمي أي شيءٍ كمرِّ البرقِ؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمُرُّ ويرجعُ في طرفةِ عينٍ؟ ثمَّ كمرِّ الرِّيحِ، ثمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وشدِّ الرِّحالِ تَجْري بهم أعمالهم، ونبيُّكم قائمٌ على الصِّراطِ يقول: ربِّ سلِّمْ سلِّمْ، حتى تعجزَ أعمالُ العبادِ حتى يَجِيءَ الرَّجُلُ فلا يستطيع السير إلاَّ زحفًا، قال: وفي حافتي الصِّرَاط كلالِيبُ معلَّقةٌ مأمورةٌ بأخْذ مَن أُمرتْ به؛ فمخْدُوشٌ ناجٍ، ومكْدُوسٌ في النَّار»(١).

٨- أداء الأمانة سببٌ لدُخول الجنَّة: فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اضمَنُوا لي سِتًّا من أنفسِكُم أضمنْ لكم الجنَّة: اصدقُوا إذا حدَّثُتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا اؤتمنتُم، واحفَظُوا فُروجكم، وغضُّوا أبصاركم، وكفُّوا أيديكُمْ»(٢).

٩- لا عليك ما فاتَك من الدُّنيا إنْ كنت أمينًا: فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتَك من الدنيا: صِدْقُ الحديث، وحِفْظُ الأمانِة، وحُسن الخُلُقِ، وعِفَّةُ مَطْعَم»(٣).

ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص- رضِي الله عنهما: «أربعُ خِلالٍ إذا أُعطيتَهُنَّ فلا يَضُرُّك ما عُزل عنك من الدُّنيا: حُسْنُ خَلِيقةٍ، وعَفافُ طُعمة، وصِدْق حديثٍ، وحِفظ أمانة»(٤).

---

(١) رواه مسلم (١٩٥/ ٣٢٩).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٣) رواه أحمد (٢/ ١٧٧) وضعفه الأرناؤوط.
(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٨٨) وصححه الألباني.

٦ ـ مجالات الأمانة

أولاً: أمانة الضرورات الخمس:

١ - دينك أمانة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾. قال القرطبي في تفسير هذه الآية: الأمانة تعمُّ جميع وظائف الدين. اهـ.

وتبليغ هذا الدين أمانة أيضاً، فالرسل أمناء الله على وحيه، قال ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء»[1].

٢ - عقلك أمانة:

اتِّصاف المرء بالعقل وتسخيرُه في طاعة الله ﷻ أمانةٌ كُبرى يُثابُ عليها؛ لذا كان من رِعاية الإسلام لأمانة العقل أنْ جعَلَه إحدى الضروريَّات الخمس، ومنَع أيَّ فِعْلٍ يُعطِّل مُهِمَّته، وحَرَّمَ حِفظًا له كلَّ ما يضرُّ بمهمَّتِه ولو لفترةٍ محدودة؛ فقد حرَّم كلَّ مُسْكِرٍ ومُخدِّرٍ ممَّا يُخامِرُ العقل ويُغطِّيه؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة].

ومن أجل صِيانة العقل شُرعت عُقوبةُ جَلْدِ شارب الخمر لردْع مُتناوِله، وزجر كُلِّ ما يَسعَى إلى الإضرار بأمانة العقل ولو لفترةٍ محدودة.

أمَّا تعطيل العقل بالكليَّة بأيِّ سببٍ يُؤدِّي إلى ذهابه، فقد عاقَب الشرع فاعلَه بالدِّية كاملةً رعايةً لَهُ.

قال ابن القيم- رحمه الله: «إنَّ امتناع السَّموات والأرض والجبال من حمل الأمانة لأجل خُلُوِّها من العقل الذي يكونُ به الفهم والإفهام، وحُمِّلَ الإنسان إيَّاها لمكان العقل فيه»[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).

(٢) الروح، لابن القيم ص٢٢٣.

ومن الأمثلة العظيمة لأمانة العقل، أَنَّه لما عزَم أبو بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ على جمع القُرآن، قال لزيد بن ثابت- رضِي الله عنهما: «إنَّك رجلٌ شاب عاقل لا نتَّهمُكَ، قد كنت تكتبُ الوحي لرسول الله ﷺ فتتبَّع القُرآن فاجمَعْه»[1] فكان أوَّل ما حمَل أبا بكرٍ ﷺ على اختيار زَيْدٍ ما اتَّصف به من أمانة العقل.

قال المهلَّب مُعقبًا على قول أبي بكرٍ ﷺ: «إنَّ العقل أصلُ الخِلال المحمودة؛ لأنَّه لم يصفْ زيدًا بأكثر من العقل، وجعَلَه سببًا لائتمانه ورفع التُّهمة عنه»[2].

ومن حِفظ أمانة العقل أنْ يُزكِّيه الإنسانُ ويُوظِّفه ويُعلِي همَّتَه في ذلك، بأنْ يُوجِّهه إلى آيات الله الكونيَّة، وفي النفس البشريَّة، وارتياد أوسع الآفاق لخِدمة الناس في الحياة الدُّنيا، وبناء الحَضارة الإسلاميَّة، وفوق هذا معرفة أسرار الشريعة، والفهْم في كتاب الله تعالى وسنَّة نبيه ﷺ.

وعلى هذا نقول: إنَّ مَن عطَّل العقلَ وغيَّبَه عن مُهمَّته فقد ضيَّع الأمانة التي سيُسأل عنها يومَ القيامة.

٣ - نفسك وجوارحك أمانة:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء].

فستُسأَل عن هذه الأمانات: هل أدَّيت حقَّ هذه الأمانات؟ أم ضيَّعت هذا الحقَّ؟

واعلم أخي الحبيب أن لكلِّ جارحة عبوديَّةٌ، فمَن نظَر إلى حرامٍ، أو سَمِع حَرامًا، أو تكلَّم بحرامٍ، أو ذاقَ حَرامًا، أو أكَل حرامًا، أو شَمَّ حَرامًا، فقد أخَلَّ بالأمانة.

يقول أبو حامدٍ الغزالي- رحمه الله: اعلم يا مَن تَعصِي الله بِجَوارِحك، إنما هي نعمةٌ من الله عليك، وأمانةٌ لديك، فاستِعانتُك بنعمة الله تعالى على معصيته غايةُ الكُفران، وخِيانتك في أمانةٍ أودَعَكَها الله تعالى غايةَ الطُّغيان، فأعْضاؤك رعاؤك،

(١) رواه البخاري (٤٦٧٩).

(٢) فتح الباري (١٣/ ١٨٣).

فانظُر كيف ترعاها «ألا فكُلُّكُم راعٍ، وكُلُّكُم مسئولٌ عن رَعِيَّتِهِ»[١].

٤- مالك أمانة:

وإذا كان الله -سبحانه- قد استَخلَفَ الإنسانَ في المال ووَضَعَه في يده وتحت تصرُّفه، فليس معنى ذلك أنَّ له مطلقَ الحريَّة بالتصرُّف فيه بحيث يضَعُه حيث شاء أو يُنفِقه كيف شاء؛ لأنَّ المال في حقيقة الأمر مالُ الله، والإنسان خليفتُه في ذلك؛ كما قال الله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وما دام الإنسان قد استَخلَفه الله تعالى على هذا المال، فلا بُدَّ أنْ يَضَعَه أو يتصرَّف فيه حيث أمَرَه مالِكُه، وإلا فسوف يكون مسئولاً عن ضَياعه أو تقصيره في المحافظة عليه؛ فقد أخرَجَ الترمذي أنَّ الحبيب النبيَّ ﷺ قال: «**لن تزول قدَما ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأَل عن خمسٍ: عن عُمره فيمَ أفْناه، وعن شَبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وماذا عمل فيما عَلِمَ**»[٢].

وما دام الإنسان سيُسأَل عن هذا المال من أين اكتَسَبه وفيمَ أنفقه، فلا بُدَّ أنْ يكون كسبُه حَلالاً، وإنفاقُه في طاعة الرحمن، ساعتَها يكون المال نعمةً عليه ويُغبَط بهذه النِّعمة.

كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد والترمذي: عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ أُقسِمُ عليهنَّ: ما نقص مالُ عَبْدٍ من صدقةٍ، ولا ظُلِمَ عبدٌ مَظلَمةً صَبَرَ عليها إلا زادَه الله عز وجل عِزًّا، ولا فتَح عَبْدٌ بابَ مَسْألةٍ إلاَّ فتح الله عليه بابَ فَقْرٍ، وأُحدِّثُكم حديثًا فاحفَظُوه: إنَّما الدنيا لأربعة نَفَرٍ: عبد رزَقَه الله مالاً وعِلْمًا فهو يَتَّقي فيه ربَّه، ويصلُ فيه رَحِمَهُ، ويعملُ لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزَقَه الله تعالى عِلْمًا ولم يرزُقه مالاً، فهو صادِقُ النيَّة، يقولُ: لو أنَّ لي مالاً لعَمِلْتُ بعَمَلِ فُلانٍ، فهو بنيَّته، فأجرُهما سواء، وعبد رزَقَه الله مالاً، ولم يَرزُقه علْمًا، يَخبِطُ في مالِهِ بغير علمٍ؛ لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يَصل فيه رَحِمَه، ولا يعمل لله فيه حَقًّا، فهذا بأخبَثِ المنازل، وعبد لم يرزُقْه الله مالاً ولا عِلْمًا فهو يقول: لو أنَّ لي مالاً**

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٧) ومسلم (١٨٢٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٤١٧) وصححه الألباني.

لعَمِلتُ فيه بعملِ فُلانٍ، فهو بنيَّتِه، فوِزرُهما سواء»(١).

٥ - صحتك أمانة:

نعم الله تعالى على الإنسان كثيرة، فهي لا تعد ولا تحصى. ومن هذه النعم: نعمة الصحة والعافية.

فبالصحة يستطيع الإنسان أن يتمتع بلذة العيش، وبها يستطيع أن يقوم بسائر الحقوق والواجبات؛ يعبد الله تعالى ويكدح ويعمل، يدخل ويخرج، يجاهد في سبيل الله، ويذود عن حياض الدين والوطن.

وقد أكد الإسلام على أهمية الصحة في حياة الإنسان، فمن دعاء النبي ﷺ: **«اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا»**(٢).

ويعلمنا ﷺ وبشكل عملي قيمة الصحة والعافية في الإسلام. وفي الحديث: **«من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»**(٣).

ولما كانت الصحة بهذه الأهمية فقد أُمرنا بالمحافظة عليها، ورسم لنا الإسلام الخطوات التي نحافظ من خلالها على الصحة والعافية، ومن هذه الخطوات:

١ - الابتعاد عن كل ما يضر بالصحة من المخدرات والمسكرات والمفترات بكل أنواعها.

٢- الوقاية من الأمراض: بالاعتدال في موضوع الطعام والشراب، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف].

وقد أكد هذا المعنى النبي ﷺ فقال: **«مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلبَهُ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لنَفَسِهِ»**(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٥) وأحمد (٤/ ٢٣١) وصححه الألباني.
(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٢) وحسنه الألباني.
(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١) وحسنه الألباني.
(٤) رواه الترمذي (٢٣٨٠) وابن ماجه (٣٣٤٩) وصححه الألباني.

٤- التداوي من الأمراض إذا وقعت، فقد أمرنا النبي ﷺ بذلك؛ حيث قال: «**تداووا عباد الله؛ فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواءً**»(١).

٥- المحافظة على النظافة، والطهارة: فقد حث الإسلام على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

ثانيا: الأمانة في المعاملات:

١ - حفظ الأسرار:

أخرج الترمذيُّ وأبو داود عن جابر بن عبد الله- رضِي الله عنهما- عن النبيِّ ﷺ قال: «**إذا حدَّث الرَّجُلُ الحديثَ ثم التَفَتَ فهي أمانَةٌ**»(٢).

أخرج الإمام أحمد وأبو داود عن جابرٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما المجالسُ بالأمانة**»(٣).

ويُؤكِّد هذا المعنى العظيم الحسن البصري- رحمه الله- بقوله: «إنما تُجالسوننا بالأمانة، كأنَّكم تظنُّون أنَّ الخِيانة ليست إلاَّ في الدِّينار والدِّرهم، إنَّ الخيانة- أشدَّ الخيانة- أنْ يُجالسنا الرجل، فنطمئن إلى جانبه، ثم ينطلق فيسعى بنا..»(٤).

أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر- رضِي الله عنهما: أنَّ عمر بن الخطاب حين تأيَّمت حَفصةُ بنت عمر من خُنَيْس بن حذافة السَّهمي- وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتُوفِّي بالمدينة- فقال عمر بن الخطاب: أتيتُ عثمان ابن عفَّان، فعرضتُ عليه حفصةَ فقال: سأنظُر في أمري، فلبث ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدَا لي ألا أتزوَّج يومي هذا، قال عمر: فلقيت أبا بكرٍ الصِّدِّيق فقلت: إنْ شئتَ زوَّجتُك حَفصةَ بنت عمر، فصَمَتَ أبو بكر، فلم يَرجِعْ إليَّ شيئًا، وكنتُ أَوْجَدَ عليه منِّي على عثمان فلبثتُ ليالي، ثم خطبها رسولُ الله ﷺ فأنكَحتُها إيَّاه، فلقيني أبو بكرٍ فقال: لعلَّك وجدتَ عليَّ حين عَرضتَ عليَّ حفصةَ، فلم أرجعْ إليك شيئًا، قال عمر: قلتُ: نعم، قال أبو بكرٍ: فإنَّه لم يمنَعْني أنْ أرجعَ إليك فيما عرضتَ عليَّ إلا أنِّي كنتُ

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٨٧) وصححه الأرناؤوط.
(٢) رواه أبو داود (٤٨٦٨) والترمذي (١٩٥٩) وحسنه الألباني.
(٣) رواه أبو داود (٤٨٦٩) وأحمد (٣/ ٣٤٢) وضعفه الألباني.
(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ١٢٥).

قد علمتُ أنَّ رسول الله ﷺ قد ذكَرَها، فلم أكن لأُفشي سِرَّ رسول الله، ولو تركها رسول الله قبِلْتُها(١).

٢- حِفظ الغلمان لأسرار الكبار:

ولا يتوقَّف الأمرُ على أمانة حِفظ الأسرار عند الرجال والنساء من الصَّحابة، بل حتى الغلمان، فهذا أنسُ بن مالك ﷺ الغُلام الصَّغير الذي يخدمُ رسولَ الله ﷺ يقول: أَسَرَّ إليَّ النبي ﷺ سرًّا فما أخبرتُ به أحدًا بعدَه، ولقد سألتني أمُّ سُلَيم فما أخبرتُها به(٢).

٣- الوفاء بالعقود والعهود:

الوفاء بالعهود والوعود من شِيَم الأتقياء الأنقياء. قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران].

فيجبُ الوفاء بالعهود حتى ولو مع الكافرين، وهذا ما فعَلَه الرسول الأمين ﷺ؛ فقد أخرج الإمام مسلمٌ عن حُذَيفة بن اليَمان ﷺ قال: ما منعَني أنْ أشهد بدرًا إلا أنِّي خرجتُ أنا وأبو حُسَيل، قال: فأخَذَنا كفَّارُ قريش، قالوا: إنَّكم تريدون محمدًا؟ فقلنا: ما نريده، ما نريدُ إلا المدينة، فأخذوا منَّا عهدَ الله ومِيثاقه لَنَنصَرفنَّ إلى المدينة ولا نُقاتِل معه، فأتَيْنا رسولَ الله ﷺ فأخبرناه الخبر.. فقال: «**انصَرِفا، نَفِي لهم بعَهْدِهم، ونستعين الله عليهم**»(٣).

قال ميمون بن مهران: «ثلاثةٌ يُؤَدَّيْنَ إلى البَرِّ والفاجر: الأمانةُ، والعهدُ، وصلة الرَّحم»(٤).

٤- ردُّ الودائع:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

ولقد ضرَب النبيُّ ﷺ أروَعَ الأمثلة في رَدِّ الوَدائع إلى أهلها؛ فقد كان الكفار

---

(١) رواه البخاري (٤٠٠٥).
(٢) رواه البخاري (٦٢٨٩).
(٣) رواه مسلم (١٧٨٧).
(٤) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٠/ ١١٢).

يأتمنونه على أموالهم ويُودعون عنده وَدائعهم؛ فقد كان معروفًا عندهم بالصادق الأمين، فلمَّا أُمِرَ بالهجرة لم يَفُتْهُ أنْ يُوصِيَ عليَّ بن أبي طالبٍ أنْ يَرُدَّ الودائع والأمانات إلى أهلها.

وجاء في صحيح البخاري: أنَّه ذات يومٍ صلَّى العصر، فلمَّا سلَّم قام سريعًا فدخَل على بعض نسائه، ثم خرَج ورأى ما في وُجوه الصحابةِ من تعجُّبهم لسُرعته فقال: «**ذكرتُ وأنا في الصلاةِ تِبْرًا عندنا، فكرهت أنْ يُمسيَ- أو يبيت- فأمرتُ بقِسْمتِهِ**»(١).

ولقد أثنى الله- تعالى- على رِعاية المؤمنين للأمانة؛ فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[المؤمنون].

٥- المحافظة على أموالِ مَن تعمل لديهم:

فقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ قال: كنتُ أرعى غنمًا لعُقبة بن أبي مُعَيْطٍ، فمَرَّ بي رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ، فقال: «**يا غُلامُ، هل من لبنٍ؟**» قال: قلت: نعم، ولكنِّي مُؤْتَمَنٌ، قال: «**فهل من شَاةٍ لم يَنْزُ عليها الفحْلُ؟**» فأتيتُه بشاةٍ، فمَسَح ضَرْعَها، فنزَل لبنٌ، فحلَبَهُ في إناءٍ، فشربَ وسقَى أبا بكرٍ، ثم قال للضَّرْع: «**اقْلِصْ**» فقَلَصَ، قال: ثم أتَيْتُه بعد هذا فقلتُ: يا رسول الله، علِّمْني من هذا القول، قال: فمسَح رأسي، وقال: «**يَرحَمُكَ اللهُ، فإنَّك غُلَيِّمٌ مُعلَّمٌ**»(٢).

وفي روايةٍ: فأتاه أبو بكرٍ بصَخرةٍ مَنقورةٍ، فاحتلب فيها وشرب، وشرب أبو بكرٍ وشربتُ. قال: ثم أتيته بعد ذلك، قلت: عَلِّمني من هذا القُرآن. قال: «**إنَّك غُلامٌ مُعَلَّم**» قال: فأخَذتُ من فِيه سبعين سورةً(٣).

٦- توفية الكيل والميزان:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٧- الأمانة في البيع والشراء:

قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الإسراء: ٣٥].

---

(١) رواه البخاري (١٢٢١).

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٧٩) وحسنه الأرناؤوط.

(٣) رواه أحمد (١/ ٤٦٢) وحسنه الأرناؤوط.

وجاء عن ابن عباسٍ- رضِي الله عنهما- قوله: لما قَدِمَ النبي ﷺ المدينة كانوا مِنْ أَخْبثِ الناس كيلاً، فأنزَل الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١﴾[المطففين]، فأحسَنُوا الكيل بعد ذلك(١).

وعن ابن عمرَ- رضِي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا مَعشَر المهاجرين، خِصالٌ خمسٌ، إذا ابتُلِيتُم بهنَّ- وأعوذ بالله أنْ تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قومٍ قطُّ حتى يُعلِنوا بها إلاَّ فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مَضَتْ في أسلافِهم الذين مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاَّ أُخذوا بالسنين، وشدَّة المؤنة، وجور السلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلاَّ مُنِعوا القَطْرَ من السَّماء ولولا البهائمُ لم يُمْطَرُوا. ولم ينقضوا عهدَ الله وعهدَ رسولِه إلاَّ سلَّط الله عليهم عَدُوًّا من غيرهم، فأخَذوا بعض ما كان في أيديهم. وما لم تحكم أئمَّتهم بكتاب الله ﷻ ويتحرَّوا فيما أنزل الله إلاَّ جعَل الله بأسَهُم بينهم شديدًا»**(٢).

وعند الطبراني في الكبير عن ابن عبَّاس- رضِي الله عنهما- أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«خمسٌ بخمْسٍ، ما نقضَ قومٌ العهدَ إلاَّ سُلِّط عليهم عدوُّهم، وما حكَموا بغير ما أنزَل الله إلاَّ فَشَا فيهمُ الفقرُ، ولا ظَهَرت فيهم الفاحشةُ إلاَّ فشا فيهمُ الموتُ، ولا طفَّفوا المكيالَ إلاَّ مُنِعوا النَّبات وأُخذوا بالسنين، ولا منَعوا الزكاة إلاَّ حُبِسَ عنهُم القَطْرُ»**(٣).

٨- قضاءُ الدَّيْن:

ممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ مسألة الدَّيْنِ من المسائل الخطيرة التي يتَهاوَنُ فيها كثيرٌ من المسلمين، ويدلُّ على خطَرِها ما أخرَجَه الإمام أحمد والترمذي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«نَفْس المؤمن مُعَلَّقةٌ بِدَيْنِه حتى يُقضَى عنه»**(٤).

وأخرج الإمام مسلمٌ عن عبد الله بن عمرٍو- رضِي الله عنهما- أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«يُغفَر للشهيد كُلُّ ذنبٍ إلاَّ الدَّيْن»**(٥).

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٢٣) وحسنه الألباني.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٨٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٥) وصححه الألباني في الترغيب والترهيب (٧٦٥).

(٤) رواه الترمذي (١٠٧٨) وأحمد (٢/ ٤٤٠) وصححه الألباني.

(٥) رواه مسلم (١٨٨٦).

والمولى ﷻ أطلق اسمَ الأمانة على الدَّيْنِ الذي في الذِّمَّة، وفي ذلك تعظيمٌ لأمانة الدَّين وحَثٌّ على تأدِيَتِه.

وعلى هذا ينبغي للمَدِين أنْ يُبادِرَ إلى إبْراء ذمَّته، والوَفاء بالدَّيْن في مَوعِدِه ما دام قادرًا على السَّداد، والمماطلةُ هنا: من الخِيانة والظُّلم.

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هُرَيرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«مَطلُ الغَنيِّ ظلمٌ»**(١).

٩ - ألا يبخس الأجير حقَّه:

ينبغي مُراعاةُ الأمانة في استِئجار الأُجَراء، والمبادرةُ في إعطائهم حُقوقَهم وأجورَهم؛ لقول رسولِ الله ﷺ: **«أعْط الأجيرَ أجرَه قَبْلَ أنْ يجفَّ عَرَقُه»**(٢).

ثالثا: الأمانة في البيوت:

الزوجان مُؤتَمنان على رِعاية مِيثاق الزواج الذي وصَفَه الله بالميثاق الغليظ؛ قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء]، فعقد الزواج أمانةٌ عظيمة، لا يجوز خِيانته والتفريط فيه.

وهذا ما يُؤكِّد عليه النبيُّ ﷺ؛ ففي الحديث الذي أخرجه البخاريُّ ومسلم من حديث ابن عمر- رضِي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيَّته؛ الإمام راعٍ ومسئولٌ عن رعيَّته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيَّته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولة عن رعيَّتها، والخادم راعٍ في مال سيِّده ومسئولٌ عن رعيَّته، وكلُّكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيَّته»**(٣).

أ - أمانة الزوج تجاه حقوق زوجته:

فعلى الزوج أنْ يعرف أنَّ زوجته عنده أمانة، فليتَّقِ الله فيها: فقد أخرج الإمام مسلمٌ عن جابر بن عبد الله- رضِي الله عنهما- أنَّ رسول الله ﷺ خطَب في حَجَّة الوداع، فكان ممَّا قال: **«اتَّقوا الله في النساء؛ فإنَّكم أخذتموهُنَّ بأمَان الله، واستحللتم**

---

(١) رواه البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (١٥٦٤).
(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٤٣) وصححه الألباني.
(٣) رواه البخاري (٢٤١٧) ومسلم (١٨٢٩).

فُروجَهُنَّ بكلمة الله، وإنَّ لكم عليهنَّ ألا يُوطِئْنَ فُرُشكُم أحدًا تَكرهُونَه...»[(١)].

فعلى الزوج أنْ يُطعمها إذا طَعِم، ويكسوها في البيت إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه، ولا يُقبِّح (لا يُسمعها ما تكره؛ كقَّبح الله وجهك ونحوه)، ولا يهجر إلا في الفِراش، وأنْ ينفق على زوجته ولا يطعمها إلا من الحلال، ويحسن عِشرتها، وأنْ يعلمها، وأنْ يمنعها من التبرُّج والسفور، ويأمرها بالحجاب، ويغار عليها، وعدم التماس عثرات الزوجة، والتجسُّس عليها وتخْوينها، وهو أمر منهيٌّ عنه؛ روى جابر ﷺ: نَهى رسول الله ﷺ أن يطرقَ الرَّجُلُ أهله ليلاً يَتَخوَّنُهُم أو يلْتَمِسُ عَثَرَاتِهم[(٢)].

ومن أعظم الأمانة تُجاه الزوجة حفظُ سرِّها وخُصوصًا أسرارَ الفِراش؛ فقد أخرج الإمام مسلمٌ في صحيحِه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يُفضِي إلى امرأته وتُفضِي إليه ثم ينشر سِرَّها**»[(٣)].

وفي رواية: «**إن أشرَّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشُر سِرَّها**»[(٤)].

ب - أمانة الزوجة تجاه حُقوق زوجها :

- **طاعتها لزوجِها**: الزوجة مُؤتَمَنة ومُلزَمة بطاعة الزوج الذي له حَقُّ القوامة عليها ما دام لم يأمرها بمعصية، والمرأة الصالحة الأمينة هي التي تحفَظُ معروفَ زوجها وتطيعُه في المعروف؛ قال تعالى: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وقال ابن عباس- رضِي الله عنهما- وغير واحدٍ في قوله تعالى: ﴿قَـٰنِتَـٰتٌ﴾: يعني: مطيعات لأزواجهنَّ[(٥)].

- **حِفظ نفسها وعِرضها**: فالزوجة مُؤتَمَنةٌ على حِفظ نفسها وعِرضها؛ فقد أخرج ابن حبَّان عن أبي هُرَيرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلَّت المرأةُ**

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) رواه ومسلم (٧١٥).

(٣) رواه مسلم (١٤٣٧/ ١٢٤).

(٤) رواه مسلم (١٤٣٧/ ١٢٣).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٣).

خَمسَها، وصَامَتَ شَهرَها، وحَصَّنَت فَرجَها، وأطَاعَت بَعلَها، دَخلَت الجَنَّة من أيِّ أبوابِ الجنَّةِ شَاءَت»(١).

- **حِفظ مال الزوج وعدَم الإسراف في إنفاقه:** الزوجة مُؤتَمَنة على حِفظ مال زوجها وعدَم الإسراف في المأكل والمشرب؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

وغاية هذه الأمانة أنَّ المرأة لا تتصرَّف في مال زوجها إلاَّ بإذْنه إلاَّ في الصَّدقة المعتدلة؛ كما في حديث عائشة- رضِي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تَصدَّقَت المرأةُ من طعام زوجها، غَير مُفْسِدةٍ، كانَ لها أجرُها، ولزوجها بما كَسَب، وللخازنِ مثل ذلك**»(٢).

- **حِفظ أسرار الزوج:** الزوجة مُؤتَمَنة على حِفْظِ أسرار زوجها، ويجبُ عليها أنْ تحرصَ أشدَّ الحِرص علي عدَم إفشائها، ولا شَكَّ أنَّ حِفْظَ سِرِّ الزوج من أخصِّ خَصائص أمانة الزوجة تجاه زوجها، ومن أكثرها إسهامًا في ديمومة الحياة الزوجيَّة واستِقرارها.

ومن أعظم الأسرار ما يكونُ من أمور الاستمتاع: فقد أخرجَ الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد: أنها كانت عند رسولِ الله ﷺ والرجال والنساء قُعودٌ فقال: «**لعلَّ رجلاً يقولُ ما يفعل بأهله، ولعلَّ امرأة تخبرُ بما فعلت مع زوجها**»، فأَرَمَّ القوم، فقُلت: والله يا رسول الله إنهنَّ ليفعلن وإنهم ليفعلون. قال: «**فلا تفعَلُوا؛ فإنما ذلك مثلُ الشيطان لقي شيطانةً في طريقٍ فغشيها والناس ينظُرون**»(٣).

جـ - حِفظ الأولاد وحُسن تربيتهم:

وهذه النِّعمة التي أعطاك الله إيَّاها ستُسأَل عنها يوم القيامة، هل حَفِظت أو ضيَّعت؟ فللأولاد وتربيتهم مسؤوليَّةٌ سيُسأَلُ عنها الآباء أمامَ الله- عز وجل- يوم القيامة؛ فلن تزولَ قدَمَا عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عمَّا استَرْعاه، أحفظ أم ضيَّع؟

فقد أخرج البخاري ومسلمٌ عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أنَّ النبيَّ

---

(١) رواه ابن حبان (٩/ ٤٧١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٠).

(٢) رواه البخاري (١٤٣٧).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٤٥٦) وضعفه الأرناؤوط.

ﷺ قال: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيَّته، فالرجل راعٍ في بيته وهو مسئولٌ عن رعيَّته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيَّتها»(١).

قال الإمام النووي- رحمه الله: الراعي هو الحافظ المؤتمَن الملتزِم صلاحَ ما قام عليه وما هو تحت نظَرِه، ففيه أنَّ كلَّ مَن كان تحت نظَرِه شيءٌ فهو مُطالَبٌ بالعدل فيه والقيام بِمَصالحه في دِينه ودُنياه ومُتعلَّقاته. اهـ.

وقول النبي ﷺ: «وكلُّكم مسئولٌ عن رعيَّته»؛ أي: في الآخِرة، فإنْ وفَّى ما عليه تجاه الولد من الناحية الصحيَّة والجسديَّة وتوفير القوت والملبس والمسكن؛ حيث إنَّ الطفل لا يستطيع أنْ يُوفِّر ذلك لنفسه، وكذلك يُوفي ما عليه من ناحية التربية، فيُربِّيه على المبادئ الإيمانيَّة السامية؛ حيث إنَّ الطفل يُولد وعقله وقلبه صفحة بيضاء يستوعبُ ما يُنقَش فيه، ويتعلَّم ما يُملَى عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

فإنْ رُبِّي الولدُ على الخير نشَأ عليه وأصبح بارًّا بوالديه يدعو لهما ويقول: ﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

فشَكَرَ الولد حُسن صَنيع الوالدين؛ حيث بذَلا المجهود الكبير في تربيته حتى استَقام على دِينه، واستَغنى بنَفْسه عن غيرِه.

وأمَّا إذا ضيَّعا وفرَّطا في تربية الولد، فإنَّه سيخرُج عُضوًا فاسدًا ومِعوَل هدمٍ وعاقًّا لوالديه.

فالولَدُ كما أنَّه مسئوليَّة فإنَّه أمانةٌ عند والدَيْه، وسيُسألان عنه يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

وإنْ كانت الأمانة هي التَّكاليف الشرعيَّة، إلا أنها بمفهومها أعمُّ وأشملُ من ذلك؛ فالإحسان إلى الأولاد وتربيتهم تربيةً إسلاميةً صحيحةً أداءٌ للأمانة، وإهمالهم والتقصير في حُقوقهم غِشٌّ وخِيانةٌ؛ لأنهم لم يعمَلُوا بوصيَّة الله لهم.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ

(١) سبق تخريجه.

﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم].

قال الشافعي- رحمه الله- في هذه الآية: على الآباء والأمَّهات تعليم أولادهم الصِّغار ما يتعيَّن عليهم عند البُلوغ؛ فيُعلِّمه الوليُّ الطَّهارة والصَّلاة والصوم ونحوه، ويُعرِّفه تحريم الزنى واللواط.

وقال الحسن البصري- رحمه الله: أي: مُرُوهم بطاعة الله، وعَلِّموهم الخير.

وقد نقَل ابنُ كثيرٍ في تفسير هذه الآية قولَ الإمام عليٍّ ﷺ حيث قال: «عَلِّموهم وأدِّبوهم».

وكذلك نقَل هذا الكلام الإمام النووي عن مجاهد وقتادة.

إذًا فالزوجان مُؤتمَنان على تربية أولادِهما، وتعليمهم ما ينفَعهم في دِينهم ودُنياهم.

يقول ابن القيِّم- رحمه الله: «فمَن أهمل تعليمَ ولدِه ما ينفعُه، وترَكَه سُدًى، فقد أساء إليه غايةَ الإساءة، وأكثَرُ الأولاد إنما جاء فَسادُهم من قِبَلِ الآباء وإهمالهم لهم، وترْك تعليمهم فرائض الدِّين وسننه، فأضاعوها صِغارًا، فلم ينتَفِعوا بأنفُسهم، ولم ينفَعُوا آباءَهُم كبارًا» اهـ.

٧ـ التعاون

أعطى الله- تعالى- ذا القرنين مُلكًا عظيمًا؛ فكان يطوف الأرض كلها من مشرقها إلى مغربها، وقد مكَّن الله له في الأرض، وأعطاه القوة والسلطان، فكان يحكم بالعدل، ويطبق أوامر الله.

وكان في الأرض قوم مفسدون هم يأجوج ومأجوج، يهاجمون جيرانهم، فينهبون أموالهم، ويظلمونهم ظلمًا شديدًا؛ فاستغاث هؤلاء الضعفاء المظلومون بذي القرنين، وطلبوا منه أن يعينهم على إقامة سد عظيم، يحول بينهم وبين يأجوج ومأجوج ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف].

فطلب منهم ذو القرنين أن يتحدوا جميعًا، وأن يكونوا يدًا واحدة؛ لأن بناء السد يحتاج إلى مجهود عظيم، فعليهم أن يُنَقِّبُوا ويبحثوا في الصحراء والجبال، حتى يحضروا حديدًا كثيرًا لإقامة السد، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾[الكهف]. وتعاون الناس جميعًا حتى جمعوا قدرًا عظيمًا من الحديد بلغ ارتفاعه طول الجبال، وصهروا هذا الحديد، وجعلوه سدًّا عظيمًا يحميهم من هؤلاء المفسدين.

التعاون لغةً:

العون: الظَّهير على الأمر، وأعانه على الشَّيء: ساعده، واستعان فلانٌ فلانًا وبه: طلب منه العون. وتعاون القوم: أعان بعضهم بعضًا. والمِعْوانُ: الحَسَن المَعُونة للنَّاس، أو كثيرها.

التعاون اصطلاحًا :

التَّعاون هو: المساعدة على الحقِّ ابتغاء الأجر مِن الله سبحانه.

من الألفاظ المترادفة للتَّعاون يقولون: شدَّ على يديه، وأجازه، وأيَّده، وأمدَّه، وهو في حرمته، وفي جواره، وفي خفارته، ظافره، وصانعه، ومالأه.

التعاون في القرآن والسنة:

أمرنا الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾ [المائدة].

قال ابن القيّم الجوزية: اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق.

فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونًا على مرضاة الله وطاعته التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، فلا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كلّه.

فإن حقيقة البر هو الكمال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه. فالبر كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد، وفي مقابلته الإثم، والإثم كلمة جامعة للشرور والعيوب التي يُذم العبد عليها.

وقال القرطبي- رحمه الله- في تفسير: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ..﴾ الآية، وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أي لِيُعِنْ بعضكم بعضا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه، وهذا موافق لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من دلّ على فعل خير فله مثل أجر فاعله**»، وقد قيل: الدال على الشر كصانعه.

وسئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ فقال: هو أن تعمل به، وتدعو إليه، وتعين فيه، وتدل عليه.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي :الإعانة هي: الإتيان بكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، والامتناع عن كل خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المسلمين، بكل قول يبعث عليها، وبكل فعل كذلك.

وأمر الله إبراهيم عليه السلام أن يرفع جدران الكعبة، ويجدد بناءها، فقام إبراهيم عليه السلام على الفور لينفذ أمر الله، وطلب من ابنه إسماعيل عليه السلام أن يعاونه في بناء الكعبة،

فأطاع إسماعيل أباه، وتعاونا معًا حتى تم البناء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

وأرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون؛ يدعوه إلى عبادة الله وحده، فطلب موسى عليه السلام من الله- سبحانه- أن يرسل معه أخاه هارون؛ ليعاونه ويقف بجانبه في دعوته، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه]. فاستجاب الله تعالى لطلب موسى، وأيده بأخيه هارون، فتعاونا في الدعوة إلى الله؛ حتى مكنهم الله من النصر على فرعون وجنوده.

وبَيَّن النبي ﷺ أن التعاون من ضروريات الحياة؛ إذ لا يمكن للفرد أن يقوم بكل أعباء هذه الحياة منفردًا. قال النبي ﷺ: «**من كان معه فضل ظهر فلْيعُدْ به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فلْيعُدْ به على من لا زاد له**»(١).

النبي ﷺ المثل الأعلى في التعاون:

كان النبي محمد ﷺ المثل الأعلى في التعاون، سواء أكان داخل بيته أم مع أصحابه... كان متعاونًا في كل أحواله: في البيت يساعد أهله، ويعاونهم في شئون المنزل، وفى خارج البيت يتعاون مع أصحابه في القيام ببعض الأعمال بهمة ونشاط.

بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بدأ في بناء مسجد للمسلمين يصلون فيه، ويجتمعون فيه لبحث شئون حياتهم، واشترك النبي بنفسه في البناء، فكان ﷺ يحمل مثل أصحابه التراب والطوب، وكان عمره في ذلك الوقت- وهو يعمل- ثلاثًا وخمسين سنة، ولم تمنعه سنه ولا مكانته العالية من أن يتعاون مع أصحابه في بناء المسجد، وظل يعمل معهم حتى اكتمل بناء المسجد، الذي كانت أعمدته من جذوع النخل، وسقفه من الجريد.

موقف آخر قام به النبي ﷺ مع أصحابه في غزوة الخندق، وهى الغزوة التي تحالفت فيها «قريش» مع عدد من القبائل العربية لمحاربة المسلمين في «المدينة»، فقدموا إليها في عشرة آلاف مقاتل، وأقام النبي ﷺ خندقًا حول «المدينة»؛ استجابة لرأي الصحابي سلمان الفارسي، وقد عمل المسلمون في حفر الخندق في ظل ظروف

---

(١) رواه مسلم (١٧٢٨) وأبو داود (١٦٦٣).

صعبة جدًا، فالجو كان في غاية البرودة، ولا بد من إنجاز الحفر في أسرع وقت، فقسم الرسول ﷺ العمل على أصحابه، وجعل لنفسه نصيبًا من العمل، فكان يحفر معهم، ويحمل التراب بنفسه مثل باقي الصحابة.. وكان إذا رأى من الصحابة تعبًا قام بتنشيطهم للعمل مردّدا: «**اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة**»(١).

وكانوا يجيبونه مرددين: نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا.

كان النبي ﷺ يعمل ذلك العمل الشاق وهو في السابعة والخمسين من عمره، ضاربًا المثل الأعلى والقدوة الحسنة لأصحابه، وأنه مثلهم يعمل كما يعملون، ويبذل جهدًا كما يبذلون.

وبفضل هذا التعاون أتمَّ المسلمون حفر الخندق في ستة أيام، على الرغم من طوله واتساع عرضه وعمقه، وصلابة الأرض الصخرية التي تم الحفر فيها، ولما جاء المشركون فوجئوا بهذا الخندق، واندهشوا من قدرة المسلمين على إنجاز هذا العمل الجبار في هذا الوقت القصير وبهذه الأعداد القليلة!

التعاون فطرة المخلوقات:

وقد جعل الله التعاون فطرة في جميع مخلوقاته، حتى في أصغرهم حجمًا، كالنحل والنمل وغيرها من الحشرات، فنرى هذه المخلوقات تتحد وتتعاون في جمع طعامها، وتتحد كذلك في صد أعدائها.

ثـمرات التعاون:

أولاً: ثمرات يقطفها الفرد:

١- زيادة الأجر والمضاعفة:

قال ابن القيم- رحمه الله: إن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى في انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله كما ينتفع بعملهم في الحياة مع عمله، فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض في الأعمال التي يشتركون فيها كالصلاة في جماعة؛ فإن كل واحد منهم تضاعف صلاته إلى سبعة وعشرين ضعفا لمشاركة غيره له في

---

(١) رواه البخاري (٤٢٨) ومسلم (١٨٠٥).

الصلاة، فعمل غيره كان سببا لزيادة أجره، كما أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر.

٢- نيل رضا الله ومحبته:

«حقّت محبتي للمتحابين فيّ، وحقّت محبتي للمتواصلين فيّ، وحقّت محبتي للمتباذلين فيّ، وحقّت محبتي للمتزاورين فيّ»(١).

٣- ينزع الحقد من القلوب الضعيفة ويزيل أسباب الحسد.

٤- دليل حب الخير للآخرين. قال أبو الحسن العامري: التَّعاون على البرِّ داعية لاتِّفاق الآراء، واتِّفاق الآراء لإيجاد مجلبة المراد، مكسبة للوداد.

٥- شعور الفرد بالقوة ونزع شعور العجز من نفسه: قال ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضُه بعضًا»**(٢).

٦- يجعل الفرد يشعر بالسعادة.

ثانياً: ثمرات يقطفها المجتمع:

١- ينال المجتمع معية الله:

قال ﷺ: **«يد الله مع الجماعة»**(٣)، ودعا يزيد بن المهلَّب ولده حبيبًا ومَن حضر مِن ولده، ودعا بسهام، فحزمت، وقال: أفترونكم كاسريها مجتمعةً؟ فقالوا: لا. قال: أفترونكم كاسريها مفترقةً؟ قالوا: نعم، قال: هكذا الجماعة.

٢- إتقان العمل وإنجازه في أسرع وقت:

فقد عمل المسلمون في حفر الخندق في ظل ظروف صعبة جدًّا، فالجو كان في غاية البرودة، ولا بد من إنجاز الحفر في أسرع وقت، فقسم الرسول العمل على أصحابه، وجعل لنفسه نصيبًا من العمل، فكان يحفر معهم، ويحمل التراب بنفسه مثل باقي الصحابة.. وبفضل هذا التعاون أتم المسلمون حفر الخندق في ستة أيام، على الرغم من طوله واتساع عرضه وعمقه، وصلابة الأرض الصخرية التي تم الحفر فيها، ولما جاء المشركون فوجئوا بهذا الخندق، واندهشوا من قدرة المسلمين على إنجاز هذا العمل الجبار في هذا الوقت القصير وبهذه الأعداد القليلة!

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٦) وصحح إسناده الأرناؤوط.

(٢) رواه البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥).

(٣) رواه الترمذي (٢١٦٦) وصححه الألباني.

٣- التقدّم والإنتاج والنجاح والتفوّق:

نجاح الهجرة قام على تعاون عدد من الرجال والنساء، كان لكل منهم دوره المرسوم الذي أداه بدقة، وهم: أبو بكر الصديق- علي بن أبي طالب-عبد الله بن أريقط- أسماء وعائشة ابنتا أبي بكر الصديق- عبد الله بن أبي بكر الصديق- عامر بن فهيرة، وهو خادم أبي بكر.

٤- الترابط والإخاء بين أفراد المجتمع: قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(١).

٥- القضاء على الأنانية وحب الذات: حيث يقدم كل إنسان ما عنده ويبذله للآخر عن حب وإيمان.

٦- إشاعة روح النصيحة بين أفراد المجتمع: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ**»(٢).

واجبات عملية:

١- التعارف:

فالحب في الله والإحساس بالجسد الواحد أصل التعاون؛ فإن تعارف القلوب يزيد في ترابطها وتوادها وألفتها، ولهذا قال ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»(٣)، فتفقُّد المسلم لأحوال إخوانه واطلاعه عليها يساعده على معونتهم؛ ولهذا قيل: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

وقال عطاء بن أبي رباح: «تفقَّدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم، أو نسوا فذكِّروهم».

٢- نصرة المظلوم ومنع الظالم عن الظلم:

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال ﷺ: «**انصر أخاك ظالماً أو**

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٩١٨) وحسنه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٣٣٣٦) ومسلم (٢٦٣٨).

مظلوماً»، قال: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «**تأخذ فوق يديه**»(١) . وفي لفظ قال: «**تحجزه عن الظلم**»(٢).

وعن مخارق ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: الرجل يأتيني فيريد مالي؟ قال: «**ذكّره بالله**» قال: لم يذكر؟، قال: «**فاستعن عليه بمن حولك من المسلمين**»، قال: فإن لم يكن حولي أحد من المسلمين؟، قال: «**فاستعن عليه بالسلطان**» قال: فإن نأى السلطان عني، قال: «**قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة، أو تمنع مالك**»(٣). فترك الظَّلَمَة يظلمون من غير منع لهم يعدُّ من التعاون على الإثم والعدوان.

٣- إغاثة الملهوف وتفريج كربة المكروب:

فإن ذلك من القرب العظيمة التي تقرّب إلى الله تعالى، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالله فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»(٤)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أقال مسلماً أقال الله عثرته**»(٥). ومعنى: أقال مسلماً: أي رفعه من عثرته وفرّج كربه.

٤ - نفع الناس وإعانتهم وقضاء حوائجهم:

لقول النبي ﷺ: «**لا يزال الله في حاجة العبد ما دام في حاجة أخيه**»(٦).

وعن زيد بن ثابت- رضي الله عنه- قال ﷺ: «**من مشى في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق، كل خندق أبعد مما بين الخافقين**»(٧) أي: المشرق والمغرب.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٤).

(٢) رواه البخاري (٦٩٥٢).

(٣) رواه النسائي (٤٠٨١) وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٥) رواه أبو داود (٣٤٦٠) وصححه الألباني.

(٦) رواه الطبراني في الكبير (٥/ ١١٨) (٤٨٠٢).

(٧) رواه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٢٠) (٧٣٢٦) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩٢): إسناده جيد.

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما قال: إن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيُّ الناس أحب إلى الله تعالى؟ وأيُّ الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخي في حاجة أحب إليّ من أن اعتكف في هذا المسجد- يعني** مسجد المدينة- **شهراً»**(١).

وقال أبو جعفر بن صهبان: كان يقال: أوَّل المودَّة طلاقة الوجه، والثَّانية: المودَّة، والثَّالثة: قضاء حوائج النَّاس.

٥- التنفيس عن المعسر:

عن أبي قتادة ﷺ قال: إنه طلب غريماً له، فتوارى عنه، ثم وجده فقال: إني معسرٌ، فقال: آلله؟ قال: آلله، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه»**، وقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ الله فِي ظِلِّهِ»**(٢).

والمعنى: من أخَّر عن المعسر أداء الدين أو أسقط عنه بعضاً من الدين.

٦- مؤازرة المؤمن ومواساته وعدم خذلانه:

قال ﷺ: **«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا»**(٣).

وعَنْ أَبِي مُوسَى أنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»**(٤).

قَوْلُهُ: «إِذَا أَرْمَلُوا» أَيْ: فَنِيَ زَادهمْ، وَأَصْله مِنْ الرَّمْل. كَأَنَّهُمْ لَصِقُوا بِالرَّمْلِ مِنْ الْقِلَّةِ. وفي الحديث: فَضِيلَة الْإِيثَارِ وَالْمُوَاسَاةِ، وَاسْتِحْبَاب خَلْطَ الزَّاد فِي السَّفَرِ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥٣) (١٣٦٤٦) وحسنه الألباني في الترغيب والترهيب (٢٦٢٣).

(٢) رواه مسلم (٣٠٠٦).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٤) رواه البخاري (٢٤٨٦) ومسلم (٢٥٠٠).

وَفِي الإِقَامَةِ أَيْضًا.

٧- التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع:

فقد دعا الإسلام إلى التكافل وحثَّ عليه ورغّب فيه، فقال رسول الله ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا**» وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى[١]، وقال ﷺ: «**السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ**»[٢]. وفي لفظ: «**كالقائم الذي لا يفتر والصائم الذي لا يفطر**»[٣]. وقد ذكر بعض أهل العلم أن الساعي على أهله أعظم أجرًا.

٨- القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصائص هذه الأمة المسلمة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] وحين يقوم المجتمع بهذا الواجب يكون صمام أمان للمجتمع من العقوبات الإلهية ومن الفساد والأضرار الاجتماعية، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال].

٩- معاونة أهلك في البيت:

في حديث ثوبان قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه: يا رسول الله أيّ المال نتخذ؟ فقال: «**ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة**»[٤].

ألم تسمع إلى سيرة النبي ﷺ فيما ورد في الصحيح «كان في حرفة أهله، وكان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويقم البيت».

---

(١) رواه البخاري (٥٣٠٤).

(٢) رواه البخاري (٥٣٥٣).

(٣) رواه البخاري (٦٠٠٧) ومسلم (٢٩٨٢).

(٤) رواه ابن ماجه (١٨٥٦) وصححه الألباني.

٨- الوفاء

أتى شابَّان إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وكان في المجلس، وهما يقودان رجلاً من البادية فأوقفاه أمامه، قال عمر: ما هذا؟ قالا: يا أمير المؤمنين، هذا قتل أبانا، قال: أقتلت أباهم؟ قال: نعم قتلته، قال: كيف قتلتَه؟ قال: دخل بجمله في أرضي، فزجرته فلم ينزجر، فأرسلت عليه حجرًا وقع على رأسه فمات، قال عمر: النفس بالنفس، لا بد أن تُقتل كما قتلت أباهما.

انظروا إلى سيدنا عمر.. لم يسأل عن أسرة هذا الرجل، هل هو من قبيلة قويَّة أو ضعيفة؟ هل هو من أسرة معروفة ولها أهميَّة في المجتمع؟ كل هذا لا يهم عمر ﷺ لأنه لا يجامل أحدًا على حساب شرع الله، ولو كان ابنه القاتل لاقتصَّ منه.

قال الرجل: يا أمير المؤمنين، أسألك بالذي رفع السماء بلا عمد أن تتركني ليلة؛ لأذهب إلى زوجتي وأطفالي في البادية، فأُخبِرُهم بأنك سوف تقتلني ثم أعود إليك، والله ليس لهم عائلٌ إلا الله ثم أنا، قال عمر: مَن يكفلك أن تذهب إلى البادية ثم تعود إليَّ؟ فسكت الناس جميعًا؛ إنهم لا يعرفون اسمه ولا داره ولا قبيلته، فكيف يكفلونه؟ وهي كفالة ليست على مائة دينار، ولا على عقار، ولا على ناقة، إنها كفالة على الرقبة أن تُقطع بالسيف.

فسكت الناس وعمر مُتأثر؛ لأنه وقع في حيرة، هل يقدم فيقتل هذا الرجل وأطفاله يموتون جوعًا هناك؟ أو يتركه فيذهب بلا كفالة فيضيع دم المقتول؟ وسكت الناس ونكَّس عمر رأسه، والتفت إلى الشابَّين: أتعفوان عنه؟ قالا: لا، مَن قتل أبانا لا بد أن يُقتل يا أمير المؤمنين. قال عمر: مَن يكفل هذا أيها الناس؟ فقام أبو ذر الغفاريّ بشيبته، وقال: يا أمير المؤمنين، أنا أكفله. قال عمر: هو قَتْل، قال: ولو كان قاتلاً! قال: أتعرفه؟ قال: ما أعرفه، قال: كيف تكفله؟ قال: رأيت فيه سِمات المؤمنين فعلمت أنه لا يكذب، وسَيَفِي بعهده إن شاء الله، قال عمر: يا أبا ذر، أتظن أنه لو تأخَّر بعد ثلاث أني تاركك؟ قال: الله المستعان يا أمير المؤمنين، فذهب الرجل وأعطاه عمر ثلاث ليالٍ، يُهيِّئ فيها نفسه، ويُودع أطفاله وأهله، وينظر في

أمرهم بعده ثم يأتي ليُقْتَص منه؛ لأنه قتل، وبعد ثلاث ليالٍ لم ينسَ عمر الموعد، وفي العصر نادى في المدينة: الصلاة جامعة، فجاء الشابَّان، واجتمع الناس، وأتى أبو ذر وجلس أمام عمر، قال عمر: أين الرجل؟ قال: ما أدري يا أمير المؤمنين! وتلفَّت أبو ذر إلى الشمس، وكأنها تمرُّ سريعة على غير عادتها، وقبل الغروب بلحظات، إذ بالرجل يأتي، فكبَّر عمر وكبَّر المسلمون معه، فقال عمر: أيها الرجل، أما إنك لو بقيت في باديتك ما شعرنا بك وما عرفنا مكانك.

قال: يا أمير المؤمنين، والله ما عليَّ منك ولكن عليَّ من الذي يعلم السرَّ وأخفى، ها أنا يا أمير المؤمنين، تركت أطفالي كفراخ الطير لا ماء ولا شجر في البادية، وجئتُ لأُقتل، وخشيت أن يُقال: لقد ذهب الوفاء بالعهد من الناس، فسأل عمر بن الخطاب أبا ذر: لماذا ضمنته؟ فقال أبو ذر: خشيت أن يُقال: لقد ذهب الخير من الناس، فوقف عمر وقال للشابَّين: ماذا تَرَيَان؟ قالا وهما يبكيان: عفونا عنه يا أمير المؤمنين لصدقه ووفائه بالعهد، وقالوا: نخشى أن يُقال: لقد ذهب العفو من الناس، قال عمر: الله أكبر، ودموعه تسيل على لحيته.

إنه الوفاء. هذا الخلق الجميل، والصِّفة الحميدة والخصلة الإيمانية، والخلق النبوي. والوفاءُ قيمةٌ إسلاميَّة عظيمة، ورصيدٌ إنساني نبيلٌ، وهو من أُسُس بناءِ المجتمع واستقامةِ الحياة.

الوفاء لغة :

الوفاءُ ضد الغَدْر، يقال: وَفَى بعهده وأَوْفَى، ووَفَى بعهده يفي وفاءً، وأوفى: إذا تمم العهد ولم ينقض حفظه.

الوفاء اصطلاحًا:

هو: (ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء)، وقيل: (هو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه، ويرهن به لسانه، والخروج مما يضمنه، وإن كان مجحفًا به).

قال الغزالي: إن الوفاء هو: الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه.

الوفاء في القرآن والسنة:

أمرنا الله تعالى بالوفاء بالعهد، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ ﴾[الإسراء]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١].

وأمرنا الله تعالى بالوفاء في كل أمورنا، فقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾[البقرة: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾[الأنعام: ١٥٢].

ودعا الناس إلى الوفاء بالعهود والعقود حتى مع الأعداء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١].

قال ﷺ: «**ثلاثٌ لَيسَ لأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِيهِنَّ رُخْصَةٌ: بِرُّ الوَالِدَينِ مُسْلِمًا كان أوْ كافِرًا، والوَفاءُ بالعَهْدِ لِمُسْلِمٍ كانَ أوْ كافِرٍ، وأداءُ الأَمانَةِ إلى مُسْلِمٍ كانَ أوْ كافِرٍ**»(١).

والوفاء من صفات أهل الجنة المكرمون: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المعارج].

والوفاء من صفات المؤمنين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[المؤمنون].

والوفاء من علامات الصادقين المتّقين: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة].

والوفاء بالعهد صفة لأولياء الله- سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الرعد].

والوفاء بالعهد خلق نبوي كريم، فقال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم].

وفاء إسماعيل عليه السلام: قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم].

وفاء موسى عليه السلام: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٨٢) (٤٣٦٣).

ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ [القصص].

وعن سعيد بن جبير- رحمه الله- قال: جاءني رجل يهودي فسألني: أي الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ فقلت له: لا - أي: لا أجيبك - حتى آتي حبر العرب - ابن عباس ﷺ - قال: فجئت ابن عباس فسألته عن أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: أفضلهما وأطيبهما، وإن رسول الله إذا قال فعل(١).

وفاء الرسول ﷺ:

بل تعال أخي المسلم إلى سيرة مَن علَّم البشريَّة الوفاء بالعهد، إلى سيرة سيِّدنا محمد ﷺ لنأخذ موقفًا واحدًا من المواقف العظيمة التي جسَّد فيها رسول الله ﷺ خُلق الوفاء بالعهد.

وفاء النبي ﷺ قبل البعثة: وحديث عبد الله بن أبي الحمساء إذ قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يُبعث، وبقيت له بقيةٌ، فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت ثم تذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: «**يا فتى لقد شققت عليّ، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك**»(٢).

قال في عون المعبود: «كان انتظاره ﷺ لصدق وعده لا لقبض ثمنه».

دعوته ﷺ للوفاء في بداية البعثة: روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- في الحديث الطويل لما حدثت مناظرة بين هرقل وأبي سفيان في أمر النبي ﷺ: «فقال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال له: لا. قال: فهل يغدر؟ قال له: لا. قال: فبم يأمركم؟ قال: يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة»(٣).

قبل غزوة «بدر» يخبر حذيفة بن اليمان: أن النبيَّ ﷺ كفَّار قريش قد أخذوه قبل أن يدخل المدينة هو وأبا حُسَيل، فقالوا: إنكم تريدون محمدًا، قلنا: ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عَهْد الله وميثاقه لننصرفَنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معك يا رسول الله.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٨٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٩٦) وضعفه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٧).

فماذا قال لهما صاحب الوفاء يا تُرى؟ ماذا قال لهما مَن بعثه الله ليتممَ به مكارم الأخلاق؟ ومع أنه كان في أشد الحاجة إلى الرجال ليقاتلوا معه ضد المشركين، المشركين الذين أخرجوه من مكة، الذين سفكوا دماء المسلمين واستحلوا أموالهم، وعذبوهم أشد العذاب، وبالرغم من كلِّ هذا، قال لهما رسول الله ﷺ: «**انصرفا نَفِي لهم بعَهْدِهم، ونستعين الله عليهم**»(١).

وها هو ﷺ يُعاهِد سُهيل بن عمرو في الحديبية، فيأتي أبو جندل بن سهيل بن عمرو مُستصرِخًا مستنصرًا، فيردُّه رسولُ الله وفاءً بالعهد.

وها هو أبو بصير يأتي إلى مدينة رسول الله ﷺ بعد صُلْح الحديبية، فترْسِل قريش في عقبه رجلين يأخذانِه، فقالا: يا محمد، رُدَّه إلينا بالعهد الذي بيننا وبينك، فردَّه النبي الكريم وفاءً بعهده، غير أن أبا بصير مكَّنه الله من أحد الرجلين فقتله، وفرَّ الآخر عائدًا إلى رسول الله في المدينة، فلما رآه الحبيب المصطفى قال: «إن هذا رأى ذعرًا».

فإذا بأبي بصير يأتي ثانيةً قائلاً: يا نبي الله، قد أوفى الله ذِمَّتَك ونجَّاني الله منهم، فيقول النبي الكريم: «**ويل أُمِّه، مُوقِد حرب!**»(٢) وهنا عَلِم أبو بصير أنَّ رسول الله لا محالة رادّه إلى قريش؛ وفاءً بالعهد الذي بينه وبينهم.

فهرب أبو بصير إلى منطقة تسمى «سيف البحر» عند البحر الأحمر، ومكث بها ولحق به أبو جندل بن سهيل وكلُّ مَن أسلم مِن قريش؛ فجعلوا يُرهِبون قريشًا، ويأخذون قوافلَها، حتى استغاثت برسول الله أن يأذن لهؤلاء النفر باللحاق به في المدينة؛ وبذلك يكون النبي الكريم قد ضرب لنا المثل الأعلى في الوفاء بعهده.

جاء في صحيح البخاري، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ: «**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كلمني فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**»(٣)، وذلك لأن المطعمَ بنَ عدي أجار النبي ﷺ من أهل مكة قبل الهجرة، فانظروا إلى عظم الوفاء حتى مع المشرك.

وفاء الصحابة والتابعين:

لقد كان الصحابة- رضي الله عنهم- المثَلَ الأعلى في الالتزام بالأخلاق العالية،

---

(١) رواه مسلم (١٧٨٧).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) رواه البخاري (٣١٣٩).

والوفاء في بَيْعِهم وشرائهم، بل فَتَحوا بلادًا بأكملها بحُسْن خُلُقهم.

فهذا سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، الذي علَّم الأمة كيف يكون الانقياد لرسول الله ﷺ، انظر إلى موقفه الذي ترجم فيه خُلق الوفاء بالعهد:

يرسل إليه أبو عبيدة بن الجرَّاح يستفتيه في فتوى غريبة جدًّا، ويقول له: إنَّ أحد الجنود قد أمَّن قرية من بلاد العراق على دمائهم وأموالهم وهي في طريقنا، فماذا نصنع؟ وتأمَّل معي في هذا الموقف الغريب: جندي- لا يُعرف اسمه- من جيش المسلمين يُعطي الأمان لقرية بأكملها، وربَّما هذه القرية إن لم تفتح فقد تكون ثغرة عظيمة يتضرَّر بها المسلمون كثيرًا إذا انقلبت عليهم.

فبماذا أجابه الفاروق عمر- رضي الله عنه؟ قال بعد حمد الله والثناء عليه: «إن الله- تعالى- قد عظَّم الوفاء، ولا تكونون أوفياء حتى تفوا، فأوفوا لهم بعهدهم واستعينوا الله عليهم».

ما أبدع هذه العبارة! وما أروعها لمن فَهِم معناها! فالوفاء كباقي الأخلاق ليس شعارًا يرفع في السماء، ولا كلمة تطير في الهواء، ولكن الوفاء خُلق لن يتحقق إلا إذا أتيت به وتحمَّلت في سبيل إتيانه كلَّ شيءٍ.

بهذه الأخلاق فتح المسلمون بلاد الفرس وبلاد الروم، وإسبانيا وفرنسا وغيرها، ولذلك قال سيد قطب- رحمه الله: «ولقد انتصر محمد حين انتصر، حينما جعل من المصحف نسخًا كثيرة، لا أقول: مطبوعة في الأوراق، ولكن مزروعة في قلوب الرجال، فتحركوا بهذا القرآن يمشون على الأرض، حتى فتح الله على أيديهم ووصل الدين إلى ما وصل إليه».

واجبات عملية:

١- الوفاء بعهد الله:

وأعظَمُ عهدٍ يجِب الوفاءُ به الوفاءُ مع الله بأن يُعبَد وحدَه لا يُشرَك به شيئًا، كما قال - سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

٢- الوفاء بين الزوجين:

ومِن أحق الناس بعد الوالدين بالوفاء هم أهل بيتك، زوجتك التي شاطرتك الحياة، وتحملت معك الأعباء، وشاركتك في المسيرة والبناء، إنها قدمت كثيرًا،

وبذلت كثيرًا، وصمدت كثيرًا، وبعض الأزواج لا يستشعر ذلك ولا يشعر به، فهو دائم الخروج، كثير التذمر، لا يرضى بشيء، ولا يشكر على نجاح، ولا يعترف بفضل، وهذا جحود لا يحسن بك- أيها الفاضل- وظلم ينبغي أن تترفع عنه، واعلم أن هذا يسبب شرخًا كبيرًا في بناء الأسرة، وربما يؤدّى إلى انهياره.

تعالوا- أيها الفضلاء- إلى هذا المشهد العجيب من حياة المصطفى ﷺ ليكون نبراسًا لنا معاشر الأزواج في الاعتراف بالفضل، ورد الجميل لأزواجنا.

عَنْ عَائِشَةَ- رضي الله عنها- قَالَتْ: «مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النبي ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النبي ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلاَّ خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ**»[(١)]، وجاء عند مسلم: «**إني قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**»[(٢)].

وعَنْ عَائِشَةَ- رضي الله عنها- أيضًا أنها قَالَتْ: جَاءَتْ عَجُوزٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ عِنْدِي، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ أَنْتِ؟**» فَقَالَتْ: أَنَا جَثَّامَةُ الْمُزَنِيَّةُ، فَقَالَ: «**بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ الْمُزَنِيَّةُ، كَيْفَ أَنْتُمْ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟**» قَالَتْ: بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، فَلَمَّا خَرَجَتْ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الإِقْبَالَ، فَقَالَ: «**إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ**»[(٣)].

وجاء عند مسلم عَنْ عَائِشَةَ- رضي الله عنها- أنها قَالَت: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَاحَ لِذَلِكَ فَقَالَ: «**اللهمَّ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ**»، فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: وَمَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ فَأَبْدَلَكَ الله خَيْرًا مِنْهَا[(٤)].

قال النووي في شرحه للحديث: «فعرف استئذان خديجة» أي: صفة استئذان

---

(١) رواه البخاري (٣٨١٨).

(٢) مسلم (٢٤٣٥).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

(٤) رواه مسلم (٢٤٣٧).

خديجة، لشبه صوتها بصوت أختها، فتذكر خديجة بذلك، «فارتاح لذلك» أي: هشَّ لمجيئها وسرَّ بها، لتذكُّره بها خديجة وأيامها، وفي هذا كله دليل لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والعشير، في حياته ووفاته، وإكرام أهل ذلك الصاحب. اهـ.

٣- الوفاء بين الأصحاب:

كان ﷺ وفيًّا مع صحابته، فهذا أبو بكرٍ - رضي الله عنه- أفضلُ الصحابة نُصرة للنبيِّ ﷺ بماله ونفسِه، وكان أكثرَ الصحابة صُحبَة له، فقال عنه: **«لو كنتُ مُتَّخِذًا من أمّتي خليلاً لاتّخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكن أخِي وصاحبي»**(١).

وعَزَّ الإسلامُ بإسلامِ عمرَ بنِ الخطاب- رضي الله عنه - الذي أبلى في المشاهِدِ بلاءً حسنًا، فقال عنه النبيُّ ﷺ: **«عمر في الجنّة»**(٢).

ولـمّا بذل عثمانُ- رضي الله عنه- لهذا الدينِ مِن ماله ما بَذل، وجهَّز جيشَ العُسرة بألفِ دينارٍ ألقاها في حِجر النبي ﷺ قال فيه: **«ما ضرَّ عثمان ما عمِل بعد اليوم»**(٣).

وعليٌّ- رضي الله عنه - أوّلُ من أسلم من الصّبيان، فقال النبيّ ﷺ فيه يومَ خيبر: **«لأُعطينَّ الرايةَ غدًا رجلاً يحبّ اللهَ ورسولَه ويحبُّه اللهُ ورسولُه»**، فأعطاها عليًّا(٤).

وصلَّى على شهداء أُحُدٍ بعد ثماني سنين من استشهادهم كالـمُودِّع لهم(٥).

وصلَّى على قبر جاريةٍ سوداءَ كانت تقُمُّ المسجد.

ولما ناصرَ الأنصارُ المهاجِرين دَعا لهم النبيُّ ﷺ ولذراريهم فقال: **«اللهمّ اغفر للأنصارِ، ولأبناءِ الأنصار، ولأبناءِ أبناءِ الأنصار»**(٦).

---

(١) رواه مسلم (٢٣٨٣).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣٣) وصححه الأرناؤوط.

(٣) رواه الترمذي (٣٧٠١) وحسنه الألباني.

(٤) رواه البخاري (٢٩٧٥).

(٥) رواه البخاري (٤٠٤٢) ومسلم (٢٢٩٦).

(٦) رواه البخاري (٤٩٠٦) ومسلم (٢٥٠٦).

ولم يُسدِ أحدٌ من الصحابة للنبيّ ﷺ معروفًا إلا ويُكافِئُه عليه، قال- عليه الصلاة والسلام: «**ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكرٍ، فإن له عندنا يدًا يُكافِئُه الله به يوم القيامة**»(١).

وأمر- عليه الصلاة والسلام- بحفظ الوُدِّ لصحابته كلِّهم بعد مماته، فقال: «**لا تسُبُّوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدُكم مثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما أدركَ مُدَّ أحدهم ولا نصيفَه**»(٢).

٤- الوفاء للوالدين:

والوفاءُ يعظُم مع الوالدَيْن؛ فقد تعِبا لراحتك، وسهِرَا لنومِك، وكدَحَ الوالدُ لعَيشِك، وحمَلَتك أمّك كرهًا ووضعَتْك كُرهًا، وأوّل واجبٍ فرَضه الله من حقوقِ الخَلق البرُّ بالوالدين، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ومن الوفاءِ لهما الدعاء لهما: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]، وطاعتُهما في غيرِ معصيةٍ، وفعلُ الجميل معهما، وإدخالُ السرور على نفوسِهما.

ومن البرِّ بهما أن يريَا ثمرةَ جُهدهما على أولادهما بِسلوكهم طريقَ الاستقامةِ والصّلاح. ومن الوفاء لهما إكرامُ صديقهما بعد موتهما.. جاء في صحيح مسلم، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ الله، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ: فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ الله إِنَّهُمُ الأَعْرَابُ، وَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ، فَقَالَ عَبْدُ الله: إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ**»(٣).

٥- الوفاء مع الأولاد:

وذلك بتعليمهم ورعايتهم وتوجيههم إلى الطريق المستقيم؛ لأنهم سيمسكون بتلابيبك يوم القيامة يسألونك حقوقهم، لذلك يجب عليك أن تأمرهم بطاعة الله

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٦١) وصححه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠).
(٣) رواه مسلم (٢٥٥٢).

وترشدهم إلى طريق الخير، لقوله ﷺ: **«مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»**(١). وقوله ﷺ: **«أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب آل بيته، وتلاوة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل عرش الله يوم لا ظل إلاّ ظله مع أنبيائه وأصفيائه»**.

والإنسان عليه ألا يندم على الطيبات إذا ما قوبلت بغير ما تستحق؛ لأن اليد المحسنة لا تنتظر الجزاء إلاّ من الله وحده. ورحم الله القائل:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

٦- الوفاء للوطن:

حب الوطن والانتماء له والوفاء إلى الأمة ، نتعلمه من النبي ﷺ وذلك في هذا الموقِف العظيم، الذي يقول فيه: **«لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مُستجابة، فتَعَجَّل كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمّتي يومَ القيامة، فهي نائلةٌ إن شاءَ الله من ماتَ مِن أمّتي لا يُشرك بالله شيئًا»**(٢).

٧- الوفاء لمن صنع لك معروفاً:

ومَن صنَع إليك معروفًا فكافِئْه عليه، فإن لم تجد ما تُكافِئُه فادعُ له، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن].

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٥) وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم (١٩٩/ ٣٣٨).

٩ـ إصلاح ذات البين

عن أنس بن مالك ﷺ قال: بينا رسولُ الله ﷺ جالسٌ إذ رأيناه ضحِك حتَّى بدت ثناياه، فقالَ له عمرُ: ما أضحككَ يا رسولَ الله بأبي أنت وأمِّي؟ قال: «رجلان من أمَّتي جثَيا بين يدَيْ ربِّ العزَّةِ فقال أحدُهما: خُذْ لي مظلمتي من أخي. فقال اللهُ: كيف تصنعُ بأخيك ولم يبْقَ من حسناتِه شيءٌ؟ قال: يا ربِّ فليحمِلْ من أوزاري» وفاضت عينا رسولِ الله ﷺ بالبكاءِ، ثمَّ قال: «إنَّ ذلك ليومٌ عظيمٌ يحتاجُ النَّاسُ أن يُحمَلَ من أوزارِهم، فقالَ اللهُ للطَّالبِ: ارفَعْ بصرَك فانظُرْ، فرفع، فقال: يا ربِّ أرَى مدائنَ من ذهبٍ وقصورًا من ذهبٍ مُكلَّلةً باللُّؤلؤِ، لأيِّ نبيٍّ هذا؟ أو لأيِّ صديقٍ هذا؟ أو لأيِّ شهيدٍ هذا؟ قال: لمن أعطَى الثَّمنَ. قال: يا ربِّ، ومن يملِكُ ذلك؟ قال: أنت تملِكُه. قال: بماذا؟ قال: بعفوِك عن أخيك. قال: يا ربِّ إنِّي عفوتُ عنه. قال اللهُ: فخُذْ بيدِ أخيك وأدخِلْه الجنَّةَ». فقال رسولُ الله ﷺ عند ذلك: «اتَّقوا اللهَ، وأصلِحوا ذاتَ بينِكم، فإنَّ اللهَ يُصلِحُ بين المسلمين»(١).

إصلاح ذات البين شعبة إيمانية، وشرعة إسلامية، تُستلّ بها السخائم، وتصفو القلوب، وتخمد نيران الفتن، وبها تكون الطمأنينة والهدوء والاستقرار والأمن وتتفجر ينابيع الألفة والمحبة.

إصلاح ذات البين لغة:

- إصلاح لغة: قال أبو الحسين أحمد بن فارس: الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد، يقال: صَلُح الشيء يَصلُح صلاحا، ويقال: صَلَح بفتح اللام.

وقال ابن منظور: والإصلاح نقيض الفساد... والصُلح: تصالح القوم بينهم، والصلح: السلم، وقد اصطلحوا وصالحوا وأصلحوا وتصالحوا واصالحوا بمعنى واحد. اهـ. فالصلح اسم من المصالحة، وهي المسالمة بعد المنازعة.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٨٧١٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وذات البين لغة: أي صاحبة البين، والبين في كلام العرب يأتي على وجهين متضادين: فيأتي بمعنى: الفرقة، ويأتي بمعنى: الوصل. وإصلاح ذات البين على المعنى الأول يكون بمعنى إصلاح صاحبة الفرقة بين المسلمين، وإصلاحها يكون بإزالة أسباب الخصام، أو بالتسامح والعفو، أو بالتراضي على وجه من الوجوه، وبهذا الإصلاح يذهب البين وتنحل عقدة الفرقة.

أما إصلاح ذات البين على المعنى الثاني فيكون بمعنى إصلاح صاحبة الوصل والتحابب والتآلف بين المسلمين. يقول الإمام الطاهر بن عاشور في تفسيره: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: المعنى: أصلحوا حقيقة بينكم، أي: اجعلوا الأمر الذي يجمعكم صالحا غير خاسر.

وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى لفتة بديعة، وهي أن هذا التعبير من مبتكرات القرآن؛ حيث قال: «واعلم أني لم أقف على استعمال (ذات البين) في كلام العرب، فأحسب أنها من مبتكرات القرآن».

إصلاح ذات البين اصطلاحاً:

هو: عقد وضع لرفع المنازعة بالتراضي. وقيل: معاقدة يتوصل بها إلى موافقة بين مختلفين كمسلم وحربي أو زوج وزوجة أو نحوهما، فنجد أن التعاريف الشرعية تعود في أصلها للمعنى اللغوي.

إصلاح ذات البين في الكتاب والسنة:

إصلاح ذات البين فريضة وواجب؛ لأمر الله الصريح في كتابه: يقول الله- عز وجل: ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال].

فالوجوب مأخوذ من هذه الآية من وجوه عديدة:

١ - أنَّ الله تعالى رَبَطَ هذا الأمر بتقوى الله، وتقواه هي أوجب الواجبات، وآكد الفرائض.

٢- أنَّه أَمَر بذلك أمرا صريحا، لا يحتمل التأويل، فقال: ﴿ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

٣- أنه رَبَطَ ذلك أيضا بطاعة الله تعالى، فقال: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ﴾.

٤- رَبْطه بطاعة رسوله ﷺ، فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٥- أن الله تعالى عَدَّ ذلك من الإيمان، وجعله شرطًا له؛ فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وأمر النبي ﷺ بإصلاح ذات البين: عن أُمِّ كُلْثُوم بِنْتَ عُقْبَةَ- رضي الله عنها وأرضاها - أَنَّ النَّبي ﷺ قال: «**لَيْسَ الْكَذَّابُ الذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**»[١].

وقالت: لَمْ يُرَخِّص في شيئا مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب، وفي إصلاح ذات البين، وفيما يقوله الرجل لزوجته، أو تقوله الزوجة لزوجها.

الثواب الجزيل للقائم بإصلاح ذات البين:

قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة].

وقال ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟**» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ؛ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ**». وفي رواية قال ﷺ: «**لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**»[٢].

أمثلة عملية على إصلاح ذات البين في القرآن والسنة:

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٠] : قال ابن كثير- رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية: «أي: واتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا، ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢) ومسلم (٢٦٠٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٩١٩) والترمذي (٢٥٠٩) وأحمد (٦/ ٤٤٤) وصححه الألباني.

بسببه»، ثم أورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا الله ويصلحوا ذات البين».

وفي آية ثالثة: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

* وفي سنة النبي ﷺ الفعلية محاولات وعمل دائب منه ﷺ في الإصلاح بين الناس، فقد روى البخاري- رحمه الله تعالى- في صحيحه: إن أهل قباء اقتتلوا حتى ترامو بالحجارة، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «**اذهبوا بنا نصلح بينهم**»(١).

* بل إن النبي ﷺ كان يذهب في الإصلاح ولو بعدت المسافة وفاته شيء من الجماعة لأجل الإصلاح بين الناس، وكما روى البخاري- رحمه الله: «أن بني عمرو ابن عوف بقباء كان بينهم شيء، فخرج يصلح بينهم ﷺ في أناس من أصحابه، فحبس رسول الله ﷺ وحانت الصلاة، فجاء بلال إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر إن رسول الله ﷺ قد حبس، فهل لك أن تؤم الناس؟ فقال: نعم إن شئت، فأقام بلال الصلاة، وتقدم أبو بكر- رضي الله عنه- فكبر بالناس، وجاء رسول الله ﷺ يمشي في الصفوف يشقها شقا حتى قام في الصف، فأخذ الناس بالتصفيح(٢).

* وكذلك فإن الإصلاح بين طالبي الدية في الحجرات مما جاء في السنة، فإن أنسا ﷺ حدث: أن الربيع بنت النضر كسرت ثنية جارية، اعتدت عليها فكسرت ثنيتها، فطلبوا القصاص، فقال أهل الربيع: نعطيكم مالا بدلا مما فعلته الربيع، أو اعفوا عنها وتنازلوا عن طلب القصاص، فأبوا إلا بالقصاص، فأتوا النبي ﷺ، فأمرهم بالقصاص لأنه كتاب الله، فقال أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله ﷺ؟! – وكان رجلا صالحا من أولياء الله .تعالى– لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال: يا أنس، كتاب الله القصاص، وفجأة تغير الموقف، فرضي القوم فعفوا، فقال النبي ﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**»(٣).

* مر رجل من اليهود بملأ من الأوس والخزرج، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٣).

(٢) رواه البخاري (١٢٠١).

(٣) رواه البخاري (٢٧٠٣) ومسلم (١٦٧٥).

بعاث وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض، وتثاوروا، ونادوا بشعارهم، وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» وتلا عليهم: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]، فندموا على ما كان منهم، وأصلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح- رضي الله عنهم جميعا[(١)].

* وعن عبد الله بن كعب بن مالك عن كعب أنه تقاضى ابن أبي حدرد دينا كان عليه في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجف (سِتْر)حجرته، فنادى «**يا كعب**» قال: لبيك يا رسول الله. فقال: «**ضع من دينك هذا**» وأومأ إليه، أي: الشطر. قال: لقد فعلت يا رسول الله. قال: «**قم فاقضه**»[(٢)].

* وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رجلا قرأ آية، وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها، فجئت به إلى النبي ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: «**كلاكما محسن ولا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»[(٣)].

* وجاءَ رَسُولُ الله ﷺ بيْتَ فَاطِمَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ: «**أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟**» قَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَغَاضَبَنِي فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لإِنْسَانٍ: «**انْظُرْ أَيْنَ هُوَ**» فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: «**قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ**»[(٤)].

وفي سيرة الصحابة نماذج رائعة في الصلح :

* جعل النبي ﷺ من فضائل الحسن بن علي ﷺ إصلاحه بين أهل العراق وأهل

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٦/ ٥٥) عن زيد بن أسلم مرسلا، وفيه أيضا جهالة شيخ ابن إسحاق.

(٢) رواه البخاري (٤٥٧) ومسلم (١٥٥٨).

(٣) رواه البخاري (٣٤٧٦).

(٤) رواه البخاري (٤٤١) ومسلم (٢٤٠٩).

الشام، ومدحه على ذلك وأثنى عليه، مما يدل على أن الإصلاح بينهما مما يحبه ويرضى عنه ويحمده الله ورسوله ﷺ مع أن الحسن- رضي الله عنه- نزل عن الأمر وسلمه إلى معاوية بن أبي سفيان ﷺ عام ٤١هـ. فسمي عام الجماعة لاجتماع الناس على معاوية ﷺ واجتماع كلمة المسلمين، وزوال الفتنة بينهم.

فكان إصلاح الحسن بن علي ﷺ بالتنازل عن الأمر ومصالحة غيره، وما دون شأن الولاية أهون وأيسر، فنال ﷺ بتنازله هذا السيادة التي كان عليها، قال الرسول ﷺ: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»(١)، وقال ﷺ: «**إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله- تبارك وتعالى- به بين فئتين من المسلمين**»(٢).

* ومن القصص المؤثرة في الإصلاح والسماحة والحلم: أنه كان لعبد الله ابن الزبير- رضي الله عنهما- مزرعة في المدينة مجاورة لمزرعة يملكها معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنهما. وفي ذات يوم دخل عمال مزرعة معاوية إلى مزرعة ابن الزبير، فغضب ابن الزبير وكتب لمعاوية في دمشق: من عبد الله بن الزبير إلى معاوية (ابن هند آكلة الأكباد): أما بعد، فإن عمالك دخلوا إلى مزرعتي، فمرهم بالخروج منها.. أو فوالذي لا إله إلا هو ليكونن لي معك شأن.

فوصلت الرسالة لمعاوية، وكان من أحلم الناس، فقرأها.. ثم قال لابنه يزيد: ما رأيك في ابن الزبير، أرسل لي يهددني؟ فقال له ابنه يزيد: أرسل له جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتيك برأسه، فقال معاوية: بل خير من ذلك زكاة وأقرب رُحما. فكتب رسالة إلى عبد الله بن الزبير يقول فيها: من معاوية ابن أبي سفيان إلى عبد الله بن الزبير(ابن أسماء ذات النطاقين): أما بعد، فوالله لو كانت الدنيا بيني وبينك لسلمتها إليك، ولو كانت مزرعتي من المدينة إلى دمشق لدفعتها إليك، فإذا وصلك كتابي هذا فخذ مزرعتي إلى مزرعتك وعمالي إلى عمالك، فإن جنة الله عرضها السموات والأرض.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٩)).
(٢) رواه أحمد (٥/ ٤٤) بإسناد حسن.

فلما قرأ ابن الزبير الرسالة بكى حتى بلها بالدموع، وسافر إلى معاوية في دمشق وقبل رأسه وقال له: لا أعدمك الله حلمًا أحلك في قريش هذا المحل.

مفسدات ذات البين:

١- ترك طاعة الله- عز وجل- ورسوله ﷺ فيما أمرنا به، ونهانا عنه:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومن أعظم ما أمرنا الله- عز وجل- به ورسوله ﷺ التزام الأخلاق الإسلامية: الصفح عن من ظلم، والإحسان إلى من أساء، والدفع بالتي هي أحسن، وإِلَانَة الجانب، ولين الحديث، والهشاشة والبشاشة مع المسلم، وحُسْن الظَّن بالمسلمين... إلى غير ذلك، كلُّ ذَلِكَ مِمَا أَمَرَنَا الله- عز وجل- به، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف].

٢- الهوى، والكبر، وبطر الحق وغمط الناس:

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «**إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»[1].

٣- الْجَهْلُ:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - عليه رحمة الله: «فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله- سبحانه وتعالى- وقعت بينهم العداوة والبغضاء، إذ لم يبق جامع مشترك من الحق يجتمعون عليه ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون]».

٤- التَّعَصب:

وكذلك مما يُعْمي البصر والبصيرة، ويُأَجِّج العداوات بين المسلمين «التعصب لِبَلَد»، أو «التعصب لقبيلة»، أو «التعصب حتى لشيخ أو لعالِمٍ أو لِشَخْصٍ من الناس»، أو «أَنْ يتعصب أهل الزوجة للزوجة»، أو «أهل الزوج للزوج»، فيحرض كل واحد الآخر على قطيعة ود المسلم، وينشأ من ذلك الشجار والمشكلات،

---

(١) رواه مسلم (٩١).

والمقاطعات.

٥- الْمِرَاءُ والْجِدَالُ:

روي عن النبي- عليه الصلاة والسلام- أنه قال: «لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ كُلَّهُ حَتَّى يَتْرُكَ الْكَذِبَ فِي الْمُزَاحَةِ، وَيَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا»(١).

ولهذا قال ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»(٢).

٦- فتح باب قالة السوء وسعة الصدر لاستقبال المفسدين النمامين:

جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز- رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه- فقال له قولا في شخص، فقال عمر ﷺ: «يا هذا، إن كنت صادقًا فأنت ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾[القلم] وإن كنت كاذبًا فأنت ممن قال الله- سبحانه- فيه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾» [الحجرات].

وقال الشافعي عليه- رحمه الله: «نَزِّهوا أَسْمَاعَكم عَنْ سَمَاعِ الْخَنَا كَمَا تنزهُون أَلْسِتكم عَنْ النُّطق بِهِ؛ فَإِنَّ المستمع شَرِيك القَائِل، وَإِنَّ السَّفِيه ينظر إلى أخبث شيء فِي وِعَائِهِ فيَحرص عَلَى أَنْ يُفرِّغُهُ فِي أَوْعِيَتِكُم، وَلو رَدَّ النَّاس كلمة السَّفيه لَسَعِدَ بِذَلِك رَادوها كما شَقِي بِذَلِك قَائِلُهَا».

وقال الفضيل بن عياض- رحمه الله: ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن أدرك بسلامة الصدور، وسخاء الأنفس، والنصح للأمة.

٧- سوء الظن:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحجرات: ١١، ١٢].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٦٤) والطبراني في الأوسط (٥١٠٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «فيه منصور ابن أذين ولم أر من ذكره».

(٢) رواه أبو داود (٤٨٠٠) وحسنه الألباني.

وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»(١).

٨- التَّجَسُسُ وَالتَّحَسُّسُ:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ قال ابن كثير- رحمه الله: «التجسس إنما يكون في الشر ومن ذلك الجاسوس».

وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا»(٢)، ولذلك نهى الرسول ﷺ معاوية- لأنه يعلم بما أَعْلَمَهُ الله أَنَّ أمور المسلمين ستصير إليه- نهاه عن تتبع عورات المسلمين وقال: «إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ»(٣).

واجبات عملية:

١- احتساب الأجر:

كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء].

فما ظنك بعمل صالح رتب الله عليه هذا الثواب الجزيل؟

إنه عمل عظيم وله- في نظر الشارع- مقام جليل؛ فاحتساب ذلك على الله- عز وجل- يبعث الهمم، ويقود إلى المسارعة والمسابقة في ذلك السبيل، ويمد القائم به بالصبر، والروح، والطمأنينة.

٢- استشعار أن ذلك العمل استجابة لأمر الله:

قال الله- عز وجل: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[الأنفال: ١].

٣- استحضار أنه سبب لقوة الأمة:

لأن الأمة المتصارعة المتفككة، يوشك أن تنهار، وأن تلتهمها أمم أخرى؛ فإصلاح ذات البين سبب لقوة الأمة، وصلابتها، وهيبة أعدائها لها.

٤- شكر الله- عز وجل:

فحقيق على الـمُصلِح بين الناس، الـمُيَسَّر لهذا العمل الجليل، أن يشكر الله على

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٣) ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) انظر الحديث السابق.

(٣) رواه أبو داود (٤٨٨٨) وصححه الألباني.

هذه النعمة؛ وأن يعترف له بتلك المنة؛ فانشراح صدره لذلك العمل، وقبول الناس لإصلاحه، وإصغاؤهم لكلامه، وأخذهم برأيه، إنما هو محض فضل الله- عز وجل.

٥- التحلي بالحلم وسعة الصدر:

لأن المصلح- في الأغلب- سيدخل بين أطراف يقل عندها العدل والعقل، ويفشو فيها الظلم والجهل؛ فيحتاج- إذًا- إلى ضبط النفس، وسعة الصدر، واحتمال ما يصدر من سفه، وتطاول، وترديد كلام، وإطالة في المقدمات. فلا يحسن به أن يكون ضيق الصدر، قليل الصبر.

وليعلم أن مهمته مرهقة؛ فليوطن نفسه على عقبات الطريق، وليداوِ كلوم النفوس بالهدوء، وسعة الصدر، ولين الجانب، ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ فإن تلك الصفات رقيةُ النفوس الشرسة، وبلسم الجراح الغائرة.

٦- التصور التام للقضية :

فلا بد للمصلح إذا أراد الدخول في قضية ما، أن يكون على تصور تام لها؛ فالحكم على الشيء فرع عن تصوره؛ إذ كيف يدخل في مجاهل ومفاوز لا يدرك غورها، ولا يسبر مسالكها؟ فلابد- إذاً- من تصور القضية، ومعرفة أطرافها، وأحوال أصحابها، وما يكتنفها من غموض وظروف.

٧- النظر في إمكان الدخول في القضية:

فإذا تصور المصلح القضية تماماً نظر في إمكان الدخول فيها، وجدوى السعي في حلها.

وربما احتاج إلى الاستشارة والاستخارة؛ فربما تكون القضية فوق طاقته، وربما يكون دخوله فيها كعدمه، بل ربما لحقه ضرر دون أدنى فائدة. ومن هنا كان التحري، والتروي، وحسن النظر، متحتمًا قبل الدخول في القضية.

٨- الدعاء وسؤال الله التوفيق :

فمهما بلغ الإنسان من الكياسة والفطنة، والسياسة، وحسن التصرف- فإنه لا يستغني عن توفيق الله ولطفه وإعانته؛ فليلجأ المصلح إلى ربه وليسأله التوفيق، والتسديد واللطف، فإنه- عز وجل- يجيب من دعاه، ويعين من استعان به ﴿وَقَالَ

رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

٩- المحافظة على أسرار المتخاصمين:

فذلك من الأخلاق التي يجب على المصلح أن يأخذ بها، وألا يسمح لنفسه بالتفريط في شأنها. أما إذا احتاج إلى إفشاء شيء من ذلك لمن يعنيه الأمر، أو لمن يمكن الإفادة من رأيه - فذلك داخل في الإصلاح.

١٠- الحذر من اليأس:

فربما حاولت المحاولة الأولى، وبذلت وسعك في معالجة المشكلة فأخفقت؛ فإن كنت قصير النَّفَس، ضيق العطن أيست من العلاج، وتركت المحاولة إلى غير رجعة.

أما إذا أخذت بسياسة النفس الطويل، وتدرجت في مراحل العلاج مرحلة مرحلة- أوشكت أن تصل إلى مبتغاك؛ فاحذر- إذًا- من اليأس، وإن أعيتك حيلة فالجأ إلى أخرى، وإذا انسد عليك طريق فاسلك غيرها.

١١- مراعاة الذوق العام:

ويندرج تحت ذلك أمور كثيرة، وربما كان بعضها صغيرا، لكنه قد يغير مسار القضية تماماً، فيدخل تحتَ الذوقِ تجنبُ بعضِ الكلمات الجافية المثيرة، واستعمالُ العبارات اللائقة الجميلة التي تبهج النفس، وتشرح الصدر.

ويدخل في ذلك اللمسةُ الحانيةُ، والبسمةُ الصادقة، ويدخل فيه استثارة النخوة، وتحريك العاطفة، بل قد يدخل فيه العتب والغضب إذا كان ذلك في محله، وممن يليق منه ذلك.

ويدخل في ذلك مراعاة العادات، وفهم الطبائع والنفسيات.

١٣- حسن الاستماع:

لأن كلَّ طرف من الأطراف يزعم أنه على حق، وأن صاحبه على باطل؛ فيحتاج كلُّ واحد منهما إلى مَنْ يَستمع إليه، ويرفق به، ويأخذ ويعطي معه. بل إن بعض الخصوم يكفيه أن يفرغ ما في نفسه من غيظ، أو كلام؛ فيشعر بعد ذلك بالراحة، ويكون مستعدًا لما يراد منه.

١٤- الانفراد بكل طرف على حدة:

فاللقاء الفردي بكل واحد من الأطراف ربما يحسن في بعض الأحيان؛ حتى لا

يحصل الصراع والعراك في بداية الأمر؛ فيتعذر الإصلاح.

١٥- الوضوح ولزوم الصدق والصراحة:

والمقصود بالصراحة ههنا: ألا يساير أحدا من الخصمين على باطل، وألا يَعِدَ أحدا منهما وعدا وهو غير قادر على إنفاذه، إلى غير ذلك مما يستلزم الوضوح والصدق.

١٦- تذكير الخصوم بالعاقبة:

فيحسن بالمصلح أن يُذكِّر الأطراف المتخاصمة بالعاقبة؛ فيذكرهم بعاقبة الخصومة، وما تجلبه من الشقاق، وتوارث العداوات، واشتغال القلوب، وغفلتها عن مصالحها.

ويذكرهم- كذلك- بالعاقبة الحميدة للصلح في الدنيا والآخرة، ويسوق لهم الآثار الواردة في ذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وكقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وكقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

ويسوق لهم قصصاً لأناس عفوا، فحصل لهم من العز والخير ما حصل.

١٧- الحذر من إلحاق الضرر بأيٍّ من الخصوم:

وذلك بالحرص على ألا يترتب على الإصلاح إضرار بأحد الأطراف، كحال من إذا رأى حادثاً مرورياً في طريقٍ ما فبادر إلى حث الطرفين على الصلح.

وربما جامل صاحب الحق، وسكت، وعفا، وتحمل نتيجة الحادث، مع أنه قد يكون قليل ذات اليد، وقد يضطر إلى المسألة؛ ليصلح سيارته.

فلا بد- إذًا- من مراعاة هذا الأمر؛ فلا ضرر ولا ضرار، ولا بد في العفو من الإصلاح لا الإفساد.

١٨- ألا تدخل في قضية بشرط النجاح:

بل عليك- أيها المصلح- بذل الوسع، واستنفاذ الطاقة، ثم بعد ذلك وطِّن نفسك على أن محاولاتك ربما لا تفلح؛ فلا يكبر عليك ذلك، واعلم أنك مأجور مثاب، وليس من شرط الإصلاح إدراك النجاح، وليكن شعارك: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

١٠ـ العمـــل

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: «**أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟**» قَالَ: بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَالَ: «**ائْتِنِي بِهِمَا**»، قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ: «**مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟**»، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ: «**مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ**» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: «**اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ**» فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ اذْهَبْ: «**فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا**» فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَصْلُحُ إِلا لِثَلاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ**»(١).

هذا هو الإسلام الذي نظر إلى العمل نظرة احترام وتمجيد، فمجد العمل ورفع قيمته وربط كرامة الإنسان به، بل إنه جعله فريضة من فرائضه التي يثاب عليها فهو مأمور به.

العمل لغة:

قال ابن منظور: إن العمل هو المهنة والفعل، مِن عَمِلَ عَمَلاً، والجمع أعمال، وأعمَله واستعمَله: طلب إليه العمل، واعتَمَلَ، أي: عمل بنفسه وأعمل رأيه، والعَمَلة، أي: العاملون بأيديهم، والعَامِل على الصدقة الذي يسعى إلى جمعها، والعَامِل من يعمل في مهنة أو صنعة، وقد يطلق لفظ العمل على تصرفات وسلوك الإنسان، فيقال: عَمَل معروف أي تصرف معروف.

العمل اصطلاحاً:

هو كل ما يَصدُر من فعل أو حركة ظاهرة عن أي جسم سواء بإرادة أو بغير

(١) رواه أبو داود (١٦٤١) وابن ماجه (٢١٩٨) وضعفه الألباني.

إرادة.

إنه كل ما يزاوله الإنسان من أنشطة صناعية، أو مهنية، أو زراعية، أو تجارية، أو غيرها بغية أي هدف.

العمل في القرآن والسنة:

وقد ورد ذكر العمل في القرآن الكريم في (٣٧١) موضعا، ووردت (١٩٠) آية عن (الفعل) وهي تتضمن أن العمل الصالح شعار الإسلام وهدفه الأسمى، إنه رمز عظمة هذا الدين الذي أقام العدل، وبسط الخير ونشر المحبة بين الناس، إنه صلاح القلوب، وسلامة النية، وطهارة النفس، وأصل التسامح والتعاون على البر والتقوى:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [السجدة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه].

وقال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

وقال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الروم].

وحث القرآن على ضرورة العمل، وعلى الكسب، وبذل الجهد، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة].

وقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك].

وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[يس].

وإذا اتجهنا إلى السيرة النبوية العطرة، فسنجدها مليئة بالأحاديث الشريفة التي تؤكد هذا المنهاج، وتعظم من قيمة العمل، أياً كان نوعه، ما دام في حدود شرع الله- سبحانه وتعالى.

فالرسول ﷺ حثَّ على العمل ودعا إليه، ورغَّب في العمل المشروع مهما كان نوعه، فعن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: «**عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ**»(١).

وبين أن الإنسان الشريف هو مَن يكسب قوته من عمل يده، عَنْ الْمِقْدَامِ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»(٢).

وبين الرسول ﷺ أن مفهوم العمل في الإسلام يجمع بين تحصيل الرزق في الدنيا والأجر للآخرة. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ**

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٤١) وحسنه الأرناؤوط.

(٢) رواه البخاري (٢٠٧٢).

بِهِ صَدَقَةٌ»(١).

وحث الرسول ﷺ الإنسان على أن يكون حريصا على كرامته، يطرق جميع أبواب الرزق الحلال؛ ولا يرضى أن يذلّ أو يهون بالسؤال. عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ- رَضِيَ الله عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ الله بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»**(٢).

يرسم الرسول الكريم خطّة العمل للكسب الحلال، وبذل عرق الجبين في سبيل العيش الكريم، وذلك خير من أن يُريق الإنسان ماء وجهه، ويطلب المساعدة من غيره، سواء لقي عونا أو صُدّ صدوداً.

وبين الرسول ﷺ أن الإنسان الفاعل هو الذي يكفي نفسه وينفع غيره، عن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى»**(٣).

وأخبر النبي ﷺ أن الهم وقلق البال وانشغال الفكر بسبب كسب العيش في الحياة، تكفر بعض الذنوب التي يرتكبها الإنسان، فقد قال الرسول ﷺ: **«من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة»**(٤).

وبين الرسول ﷺ أن سعي الإنسان في الحصول على رزق عياله من عمل حلال في مرتبة الجهاد في سبيل الله، حيث ﷺ: **«لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»**(٥)، وقال الرسول ﷺ: **«من سعى على عياله من حلٍّ، فهو كالمجاهد في سبيل الله، ومن طلب الدنيا في عفاف كان في درجة الشهداء»**.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٢٠).
(٢) رواه البخاري (١٤٧٠).
(٣) رواه مسلم (١٠٣٦).
(٤) رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٣٨) (١٠٢).
(٥) رواه البخاري (١٤٧٠).

وينهى رسول الله ﷺ عن التخلف عن ركب الحياة، ووعد الكسلان بأشد العقاب فقال ﷺ: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة المكفي الفارغ**». والمكفي هو الذي يكفيه غيره ضرورات العيش، والفارغ هو المتعطل.

وقد رفض الرسول ﷺ التقاعس عن العمل، فلا قيمة لحياة المرء بغير عمل، حتى وإن كان ترْك العمل لأجل العبادة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**أعظم الناس هما المؤمن الذي يهتم بأمر دنياه وآخرته**»(١).

السلف الصالح والعمل:

وقد كان الصحابة- رضوان الله عليهم- يعملون في شتى المجالات، فأبوبكر- رضي الله عنه- كان بزازاً يبيع الثياب، وكان عمر بن الخطاب سمساراً، وكان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب يشتغلان بالتجارة، وكان عمرو بن العاص جزاراً، وكانوا- رضوان الله عليهم- يكرهون أن يقعد المرء بدون عمل:

* قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب- رضي الله عنه: لا يَقعدنَّ أحدُكم عن طلبِ الرِّزق، وهو يقول: اللهمَّ ارزقني، وقد علِمَ أنَّ السَّماء لا تُمطِر ذهبًا ولا فِضَّة.

وقال- رضي الله عنه- أيضًا: إنِّي لأرى الرَّجل فيُعجبني، فأسأل: أَلَه مهنة؟ فإن قيل: لا، سقط مِن عيني.

ورأى الفاروقُ- رضي الله عنه- قومًا قابعين في رُكن المسجد بعدَ صلاة الجمعة، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: نحن المُتوكِّلون على الله، فعَلاهم عمر- رضي الله عنه- بدِرَّته ونَهَرَهم، وقال: لا يَقعُدنَّ أحدُكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علِمَ أن السماءَ لا تُمطِرُ ذهبًا ولا فضّة، وإن الله يقول: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠].

* وقال أبو عبد الله الباجي الزاهد: «خمس خصال بها تمام العمل: الإيمان بمعرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال».

العامل وحقوقه:

وقد حفظ الإسلام للعامل حقوقاً كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال:

---

(١) رواه ابن ماجه (٢١٤٣) وضعفه الألباني.

١- أن يتم تكليف العامل قدر طاقته، قال رسول الله ﷺ: **«اكلفوا من العمل ما تطيقون؛ فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل»**(١).

٢- اختيار العمل المناسب للعامل ووضعه في مكان العمل المناسب حسب إمكانياته وقدراته وطاقته، وعدم تكليفه ما لا يطيق، يقول رسول الله ﷺ: **«خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح»**(٢)، ويقول ﷺ كذلك: **«إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»**(٣).

كذلك أمر الإسلام بتحديد الأجور مسبقاً، وأن لا تترك مطلقة، فقد قال رسول الله ﷺ: **«إذا استأجر أحدكم أجيراً فليعْلِمه أجره»**(٤).

وجاء في الحديث القدسي قول رسول الله ﷺ: **«قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»**(٥).

٣- توفير العمل: فعلى ولاة الأمر ضمان وجود العمل وأدواته للقادرين عليه من الناس، أي إن الإسلام قد أوجب على الدولة الإسلامية أن تضمن وجود العمل وأدواته للمواطنين بصورة مباشرة، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن ينظر في أمره؛ لأنه لا عمل له وهو محتاج، فدعا النبي ﷺ بقدَوم- أي بفأس- وبيد من خشب، سواها بنفسه ووضعها ودفعها إلى الرجل وأمره أن يذهب إلى مكان عينه له، وكلفه أن يعمل هناك وطلب إليه أن يعود بعد حين ليخبره بحاله، فجاء الرجل بعد ذلك وشكره على صنعه له وما صار إليه من يسر الحال.

٤- توفير الرعاية الإنسانية والاجتماعية والصحية للعامل، وكذلك تجنب مخاطر العمل، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه نبه إلى رعاية أحوال العاملين ومستوى معيشتهم في قوله: **«هم إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان**

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٥).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٣٤). وقال الأرناؤوط: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين

(٣) رواه البخاري (٥٩).

(٤) رواه البيهقي في الكبرى (٦/ ١٢٠) (١١٤٣١).

(٥) رواه البخاري (٢٢٢٧).

أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»(١).

٥- ضمان حاجة العامل عند العجز وحماية أسرته بعد مماته : فقد أوضح الإسلام أن من حق العامل تأمينه على نفسه وأسرته ضد طوارئ العمل والأمن في المستقبل، فإذا عجز العامل عن العمل للشيخوخة أو المرض أو للإصابة في العمل أو لأي سبب من الأسباب، وأدى ذلك إلى فقره، وجب تأمين حياته، قال رسول الله ﷺ: **«أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن مات وترك مالا فماله لموالى العصبة، ومن ترك كلا أو ضياعا، فأنا وليه، فلأدعى له»**(٢).

كما يروى أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- مر بشيخ من أهل الذمة، وكان مسناً أعمى يسأل الناس، فضرب عضده من الخلف، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذه عمر بيده وذهب إلى منزله ففرض له شيئاً، ثم أرسل إلى خازن بيت المال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ثم خذلناه عند الهرم.

وكان عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول في حق الأرامل: «أما لئن لقيت أرامل أهل العراق لا أدعهن يحتجن إلى أحد بعدي».

واجبات عملية:

١- التحلي بالقيم الإيمانية، ومنها الإيمان بأن العمل عبادة وطاعة لله- عز وجل- وأن الله- عز وجل- سوف يحاسبه يوم القيامة عن عمله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة].

٢- التحلي بالأخلاق الحميدة من الأمانة والصدق، حيث دعا الإسلام إلى الأمانة، ونهى عن الغش والكذب في المعاملة، قال تعالى على لسان ابنة سيدنا شعيب عليه السلام عندما زكّت سيدنا موسى- عليه السلام- للعمل عند أبيها: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص] وهذا ما يُعرف

---

(١) رواه البخاري (٢٥٤٥).

(٢) رواه البخاري (٦٧٤٥).

بالصلاح والصلاحية، فالقوي الأمين قد جمعت بين الصلاح وهو الأمانة، والصلاحية وهي القوة أو الكفاءة، وفي سورة يوسف يوضح لنا القرآن خصال من يتولى الولاية على أمور الناس، يقول الله على لسان سيدنا يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف]، وقال ﷺ: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما**»(١).

٣- إتقان العمل وإحسان أدائه حسب الجوانب الفنية له من الواجبات الدينية، وعندما زكى سيدنا يوسف- عليه السلام- نفسه ليكون مسئولاً على الخزائن قال: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف]، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»(٢)، ويقول ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**»(٣).

٤- الجد وعدم التقاعس عن العمل: فقد قال رسول الله ﷺ: «**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها**»(٤).

٥- السماحة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**»(٥)، وقال تعالى في كتابه الكريم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية].

٦- أن يعرف العامل حدود عمله وكيف يؤديه، وأن يختار العمل المناسب وفقاً لقدراته وإمكانياته الفنية وغيرها، ولقد حذرنا رسول الله ﷺ من تكليف العامل بعمل ليس من اختصاصه، فيقول ﷺ: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»(٦)، وبيّن أن لا يكون اختيار العامل للعمل على أساس المجاملة والقرابة،

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٩).
(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٧٥) (٨٩٧) وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١١٥): رواه أبو يعلى وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة.
(٣) رواه أبو داود (١٤٠٩) وصححه الألباني.
(٤) رواه أحمد (٣/ ١٨٣) وقال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٥) رواه البخاري (٢٠٧٦).
(٦) سبق تخريجه .

ولكن على أساس الخبرة والكفاءة، واعتبر عدم الالتزام بذلك خيانة، فلقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**من استعمل عاملا من المسلمين وهو يعلم أن فيهم أولى بذلك منه وأعلم بكتاب الله وسنة نبيه، فقد خان الله ورسوله وجميع المسلمين**»[١]، وقال ﷺ: «**من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمّر عليهم أحداً محاباة، فعليه لعنة الله، لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً**»[٢].

٧- أن تكون قيّماً على ذاتك متابعاً لعملك، محاسباً ومعاتباً وزاجراً لنفسك عند التقصير والإهمال، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر].

٨- أن تستشعر مراقبة الله له، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وتخاف من الله في كل عملك، ذاكراً قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر].

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٨) (٢٠١٥١).

(٢) رواه أحمد (١/ ٦) وضعفه الأرناؤوط.

١١ ـ إتقان العمـــل

كان هناك نجار تقدم به العمر وطلب من رئيسه في العمل وصاحب المؤسسة أن يحيله إلى التقاعد ليعيش بقية عمره مع زوجته وأولاده، رفض صاحب العمل طلب النجار ورغَّبه بـزيادة مرتبه، إلا أن النجار أصرَّ على طلبه، فقال له صاحب العمل: إن لي عندك رجاء أخير، وهو أن تبني منزلا أخيرًا، وأخبره أنه لن يكلفه بعمل آخر، ثم يحال للتقاعد فوافق النجار على مضض.

وبدأ النجار العمل، ولعلمه أن هذا البيت الأخير فلم يحسن الصنعة، واستخدم مواد رديئة الصنع، وأسرع في الإنجاز، دون الجودة المطلوبة، وكانت الطريقة التي أدى بها العمل نهاية غير سليمة لعمر طويل من الإنجاز والتميز والإبداع. وعندما انتهى النجار العجوز من البناء سلم صاحب العمل مفاتيح المنزل الجديد، وطلب السماح له بالرحيل، إلا أن صاحب العمل استوقفه وقال له: إن هذا المنزل هو هديتي لك نظير سنين عملك مع المؤسسة، فآمل أن تقبله مني، فصعق النجار من المفاجأة؛ لأنه لو علم أنه يبني منزل العمر لما توانى في الإخلاص في الأداء والإتقان في العمل.

الإتقان لغة:

يقول الفيروزآبادي في معجمه: تقن الأمر أحكمه، والتقن: الرجل الحاذق، ورجل من الرماة يضرب بجودة رميه المثل، والإحسان يرادف كلمة الإتقان، وهو يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان. والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علما حسنا أو عمل عملا حسنا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين علي- رضي الله عنه: الناس أبناء ما يحسنون، أي منسوبون إلى ما يعملونه من الأفعال الحسنة.

إتقان العمل اصطلاحاً:

أداء العمل بضوابطه في وقته المحدد، وبذل الجهد والفكر في تطويره وتجويده؛ ليعود نفع ذلك على أمة الإسلام وأفرادها.

الإتقان في القرآن والسنة:

لقد اهتم القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهرة بالإتقان، فخلْقُ الله- عز وجل- للكون بما فيه ومن فيه قائم على الإتقان، دلنا على ذلك قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل] فأحسنه وجوده وأتقنه، وجعله بديعاً في هيئته ووظيفته على حسب ما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى.

ويتجلى إتقان الله- عز وجل- في هذه المخلوقات التي خلقها، فلو بحث الباحث المدقق عن خللٍ في خلق الله ما وجد، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

أَتْقَنَ كُلَّ صَنْعةٍ وأَحكمَا   مَنْ ذَا يَرُدُّ ما به قد حَكَمَا
اللهُ أَحكَمَ خَلقَ ذَلِكَ كُلِّهِ   صُنعاً وأتقَـنَ أَيَّما إتقانِ

أمر الله تعالى عباده بالإحسان في أعمالهم، وأحب ذلك، فقال- عز وجل: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة]. هذا الإحسان، هو الإتقان والإحكام، وهذه القضية- وهي تجويد الشيء وإحسانه وإتقانه- من المطالب الشرعية العظيمة في ديننا، ومبنى الدين على هذا فيما أمر به في كل شيء، حتى ذبح البهائم «**وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**».

وعن عاصم بن كليب عن أبيه قال: شَهدت مَعَ أَبِي جَنازَة شَهِدَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَأَنا غُلاَمٌ أَعْقِلُ وَأَفْهَمُ، فَانتُهي بِالْجَنازَةِ إِلَىٰ الْقَبْرِ وَلَمْ يمكَّن لَهَا. قَالَ: فَجَعَلَ رَسُوْلُ الله ﷺ يَقُولُ: «**سَوّوا لَحْدَ هَذَا**» حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّة، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِم، فَقَالَ: «**أَمَا إِنَّ هَذَا لاَ يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلاَ يَضُرُّهُ، وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنِ**»(١). وفي لفظٍ: «**ولكن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»(٢).

والسيرة النبوية بكامل مواقفها تدل على أن رسولنا الكريم ﷺ كان ديدنه الإتقان في كل أموره، ويأخذ بالأسباب متوكلاً على الله تعالى، ويراقب ربه- عز وجل- ويراعي الأولويات.. إلخ.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ١٩٩).
(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٧٥) (٨٩٧).

وما حادث الهجرة عنا ببعيد في تجهيزه للرحلة سراً، واختياره لعلي- رضي الله عنه- في المبيت مكانه، والخروج هو وأبو بكر- رضي الله عنه- ليلاً، وترتيبه للأدوار، واجتهاده في اختيار الزمان والطريق.. إلخ.

وهكذا في كل أموره، حتى إنه كان يسمع لمن يجتهد من أصحابه- رضي الله عنهم- في أشد المواقف، وخير دليل سماعه لرأي الحباب بن المنذر بل والأخذ به.

الصحابة الذين عاشوا فيما بعد تعودوا الإتقان، ومن ثمرات إتقانهم انتصاراتهم وفتوحاتهم شرقاً وغرباً، وجمع الصحابة للقرآن الكريم، واجتهادهم في إتقان ذلك العمل، ومن بعدهم التابعون وتابعو التابعين وجهدهم المتقن في جمع الحديث وضوابطهم في ذلك.

مجالات الإتقان:

١- الإتقان في العبادات:

* الإتقان في الوضوء: يقول النبي ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ**»[١]، «**مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَحْسَنَ غُسْلَهُ وَتَطَهَّرَ فَأَحْسَنَ طُهُورَهُ وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ وَمَسَّ مَا كَتَبَ الله لَهُ مِنْ طِيبِ أَهْلِهِ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ وَلَمْ يَلْغُ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى**»[٢].

* الإتقان في الصلاة: قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وهذه الإقامة تتضمن الإتقان والإحسان والإتمام. قال مطرف بن عبد الله: شهدت جنازة واعتزلت ناحية قريبا فصليت ركعتين كأني خففتهما لم أرض إتقانهما، ونعست، فرأيت صاحب القبر يكلمني. فقال: ركعت ركعتين لم ترض إتقانهما؟ قلت: قد كان ذلك. قال: تَعملون ولا تَعلمون [عمل من غير وجود علم يقيني]، ونحن نعلم [عين اليقين] ولا نستطيع أن نعمل؛ لأن أكون ركعت مثل ركعتيك أحب إليَّ من الدنيا بحذافيرها.

* الإتقان في التكفين: قال ﷺ: «**إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ**»[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٥).

(٢) رواه ابن ماجه (١٠٩٧) وقال الألباني: حسن صحيح.

(٣) رواه مسلم (٩٤٣).

* في حفر القبر: قال : «احْفِرُوا، وَأَعْمِقُوا، وَأَحْسِنُوا»(١) .

* **الإتقان في الصوم**: وذلك بأن تصوم الجوارح عن المعاصي الظاهرة، والقلوب عن الأعمال الباطنة، ولا يستقيم صوم بدون الأمرين، وإلا كان صوما مردودا، أو منقوص الأجر، وليس كاملا متقنا، وعن مثل هؤلاء الصائمين الذين يصومون صوما ظاهريا بلا اكتمال الصوم وإتقان صوم الجوارح والقلوب يقول ﷺ: «**رُب صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش**»(٢).

٢-الإتقان في التربية:

قال ﷺ: «**أيما رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها، وأعتقها وتزوجها، فله أجران...**» (٣).

٣- الإتقان في العلم:

عن أبي عبد الرحمن السّلمي أنه قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبيّ ﷺ عشر آياتٍ لم يجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

٤- الإتقان في قراءة القرآن :

قال ﷺ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**»(٤).

٥-الإتقان في تعلم اللغات :

عَنْ زَيْد بْن ثَابِت عن النَّبِي ﷺ قَالَ: «**يَا زَيْدُ تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فَإِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي**» قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ. قال: فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِذَا كَتَبَ، وَأَقْرَأُ لَهُ إِذَا كُتِبَ إِلَيْهِ(٥).

---

(١) رواه النسائي (٢٠١٠) وصححه الألباني.
(٢) رواه ابن ماجه (١٦٩٠) وصححه الألباني.
(٣) رواه البخاري (٢٥٤٧).
(٤) رواه مسلم (٧٩٨/ ٢٤٤).
(٥) رواه أبو داود (٣٦٤٥) والترمذي (٢٧١٥) وقال الألباني : حسن صحيح.

٦- الإتقان في التخطيط :

الإتقان يكون في التخطيط، وكذلك في وضع المتطلبات اللازمة لسد الاحتياجات المستقبلية، وهذا ما فعله يوسف- عليه السلام- بمهارة لمواجهة الأزمة الاقتصادية الخانقة، وابتدأت المسألة برؤيا الملك، وعبرها يوسف- عليه الصلاة والسلام- ووضع الخطة، وهذه الخطة واضح من كلام يوسف-عليه السلام- أن المسألة ليست مجرد تأويل رؤيا، تأويل الرؤيا أن هناك سبع سنوات رخاء، سيعقبها سبع سنوات جدب، سيعقبها السنة الخامسة عشرة رخاء، هذا تأويل الرؤيا، لكن يوسف قدّم برنامج عمل، ولذلك الملك الحاكم لما رأى أمامه برنامج عمل جاهز أخذ به، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧] تزرعون سبع سنين متواليات، لأنها خصب ومطر، إذن تعملون على هذا أولاً، تستثمرون الخصب للمستقبل، ثم نظام التخزين، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾، خزنوه بالسنابل لئلا يسرع إليه الفساد، إلا المقدار الذي تأكلونه وليكن قليلاً بغير إسراف، ليبقى لكم ما يُقِيتكم في السبع الشداد، ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٤٨]، المجدبات متواليات أيضاً، تستهلك ما تم تجميعه في سني الخصب، يأكلن ما قدمتم لهن، فليس في تلك السبع المجدبات نبات، وبشرهم بأن السنة الخامسة عشرة ستكون سنة تغيير ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف].

كانت نتيجة التخطيط المتقن، خروج الناس من الأزمة سالمين، وفاضت خيرات مصر على بلاد الشام وما جاورها، فلذلك جاء أولاد يعقوب وصار الناس يتسامعون بذلك، وصار النفع العظيم، بخطة يوسف المتقنة- عليه السلام- وهو المؤيد بالوحي من الله- عز وجل.

٧- الإتقان في البناء:

قص الله علينا في كتابه إتقان ذي القرنين في البناء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ ما أخذ منهم قرشاً ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ فأعينوني : استثارهم، نأتي للهدف والنتيجة وهي تحصل بماذا ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٣- ٩٥].

قال ابن كثير: «وأما السد فقد بناه ذو القرنين من الحديد والنحاس وساوى به الجبال الصم الشامخات الطوال، فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجلّ منه ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم».

فلو قيل ما هو أنفع بنيان في العالم؟ فهو سد القرنين، لأنه لو لم يكن موجوداً لخرجوا على الناس وأفسدوا الدنيا، فلا الأهرامات، ولا تمثال الحرية، ولا برج إيفل، ولا البرجان التوأم، ولا الفنادق الشامخات، أكثر بنيان فيه فائدة للبشرية، هو سد ذي القرنين.

وقص علينا القرآن قصة ملكة سبأ، فقد أرادت أن تأتي وهؤلاء أهل دنيا كفار، أراد سليمان أن يفاجئها بما يبهرها حتى تستسلم، وتسلّم فتسلم، غير قضية العرش، صنع سليمان- عليه الصلاة والسلام- بالجن الذين سخرهم الله له والصّناع الحذاق الذين عنده قصراً من الزجاج، أنا لا أدري هل يوجد في العالم قصر من الزجاج؟ كله زجاج، قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل].

قال ابن كثير- رحمه الله: «وذلك أن سليمان- عليه السلام- أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيما من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه».

واهتم النبي ﷺ بمسألة الإتقان في بناء المسجد النبوي كما جاء في حديث طلق ابن علي- رضي الله عنه: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يُعْجِبْهُ عَمَلُهُمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُ عَمَلَهُمْ أَخَذْتُ أُحْذِقُ الْمِسْحَاةَ (أي: المجرفة من الحديد) فَخَلَطْتُ بِهَا الطِّينَ، فَكَأَنَّهُ أَعْجَبَهُ أَخْذِي الْمِسْحَاةَ وَعَمَلِي، فَقَالَ: «**دَعُوا الْحَنَفِيَّ وَالطِّينَ، فَإِنَّهُ أَضْبَطُكُمْ لِلطِّينِ**»(١). وفي رواية: «**قَرِّبُوا الْيَمَامِيَّ مِنْ الطِّينِ، فَإِنَّهُ أَحْسَنُكُمْ لَهُ مَسًّا وَأَشَدُّكُمْ لَهُ سَبكًا**». وفي لفظ لابن حبان : فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَأَنْقُلُ كَمَا يَنْقُلُونَ؟ أنا أعمل في نقل الحجارة؟ فَقَالَ: «**لا، وَلَكِنْ اخْلِطْ لَهُمْ الطِّينَ، فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ**».

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٣٣٥) (٨٢٥٤).

آثار عدم الإتقان:

* **تأخر النصر**: فكيف تنتصر أمة في ذيل الأمم، وفي مؤخرة الركب، عالة على غيرها، سلاحها من صنع عدوها، بل يستذلها عدوها بما يمن به عليها من الفتات مما يفضل عنه.

* **الإساءة إلى الدين وتشويه صورته**: وليت عدم الإتقان يقف بنا عند تخلفنا فقط، بل ينسب هذا التخلف- للأسف- إلى المسلمين، وأن السبب في تخلفهم الناتج عن عدم إتقانهم لأنهم مسلمون، فلماذا الغربيون- وهم ملاحدة وكفار- متقدمون، والمسلمون- وهم موحدون ومؤمنون- متأخرون، ويستغل عدم النهوض الإسلامي كذريعة للإساءة للإسلام ولحملته من المسلمين، ولا يعلم هؤلاء أن سبب تخلف المسلمين وعدم إتقانهم هو بعدهم عن الإسلام، والتمسك به، فالإسلام يأبى أن يأكل مسلم حراما بعدم إتقانه للعمل، والإسلام من أهم أخلاقه الأمانة، والأمانة تقتضي من العامل أن يقوم بعمله على أكمل وجه، وأفضل حال.

واجبات عملية:

١- الصبر وعدم العجلة:

وقد أرشد الله- سبحانه وتعالى- نبيه عليه السلام إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، قال ابن كثير رحمه الله: «يعني: أنه- عليه السلام- كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدّة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لئلا يشق عليه... أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده». وبين- عليه الصلاة والسلام- هذا المعنى لأصحابه يوم شكوا إليه ما كانوا يلاقونه في مكة من العذاب الشديد فقال لهم: «**والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[١].

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

٢- علو الهمة ومضاء العزم وعدم العجز:

كان النبي ﷺ يتعوذ من ضد ذلك فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل»(١)، وبين لنا القرآن الكريم ما كان من عدم مضاء عزم آدم- عليه السلام- وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه]، فكانت النتيجة أن أخرج من جنة وصفها ربنا بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه].

٣- الإعداد والتخطيط:

ذلك أن أي عمل يفترض به أن يغير شيئاً من الواقع المعاش إلى غيره في المستقبل القريب أو البعيد، سواء كان هذا التغيير في الكم أو الكيف، فلا بد من دراسة الإمكانات والفرص المتاحة، ووضع الخطط، وتحديد الوسائل التي يرجى أن توصل للمطلوب. أما أن يكون العمل ارتجالياً، أو أن يعمل المرء يوماً بيوم دون خطة مدروسة، فهذا إن لم يحل بينه وبين مراده، فغالباً ما سيطيل عليه الطريق، وقد قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٤- أنْ يختار العمل الذي يُناسِبه، ويستطيع أداءَه بكفاءة ومقدرة، فمن غير المناسب أنْ يختار عملاً لم يُؤَهَّل له ولا يستطيع أداءَه.

٥- أنْ يعرف العامل متطلَّبات العمل ومستلزماته؛ كي يَتَمَكَّن من الوَفاء بها على الوجْه الأمثل.

٦- أداء العمل بصدقٍ وإخلاص: وهذا يَزِيد من الإنتاج وينمي الاقتصاد، ويَعُود بالنَّفع والفائدة على العامل نفسه، وعلى ربِّ العمل، وعلى المجتمع كذلك.

(١) رواه البخاري (٢٨٢٣) ومسلم (٢٧٠٦).

١٢ ـ النظام

يقول الشيخ علي الطنطاوي- رحمه الله: حدثني رجل كبير القدر صادق اللهجة قال: كنت في لندن، فرأيت صفا طويلا من الناس يمشي الواحد منهم على عقب الآخر، ممتدا من وسط الشارع إلى آخره، فسألت، فقالوا: إن هنا مركز توزيع، وإن الناس يمشون إليه صفا كلما جاء واحد أخذ آخر الصف، فلا يكون تزاحم ولا تدافع ولا يتقدم أحد دوره ولو كان الوزير، ولو كان أمامه الكناس، وتلك عادتهم في كل مكان على مدخل الكنيسة، وعلى السينما، وأمام بائع الجرائد، وعند ركوب الترام، أو صعود القطار.

قال: ونظرت فرأيت في الصف كلبا في فمه سلة، وهو يمشي مع الناس كلما خطوا خطوة.. خطا خطوة، لا يحاول أن يتعدى دوره أو يسبق من أمامه، ولا يسعى مَنْ وراءه ليسبقه، ولا يجد غضاضة أن يمشي وراء كلب مادام قد سبقه الكلب.

فقلت: ما هذا؟ قالوا: كلب يرسله صاحبه بهذه السلة وفيها الثمن والبطاقة فيأتيه بنصيبه من الإعاشة.

لما سمعت هذه القصة خجلت من نفسي أن يكون الكلب قد دخل النظام وتعلم آداب المجتمع ونحن لا نزال نبصر أناسا في أكمل هيئة وأفخم زي، تراهم فتحسبهم من الأكابر، يزاحمونك ليصعدوا الترام أو الأتوبيس قبلك بعدما وضعت رجلك على درجته، أو يمدون أيديهم من فوق رأسك إلى شباك البريد، وأنت جئت قبلهم، وأنت صاحب الدور دونهم، أو يقفزون ليدخلوا قبلك على الطبيب وأنت تنتظر متألما لساعتين وهم إنما وثبوا من الباب إلى المحراب.

النظام لغة :

مأخوذ من الفعل (نظم) بمعنى: الاستقامة والاتساق والتمام. تقول: نظمت الأمر فانتظم، أي: أقمته فاستقام، وهو على نظام واحد، أي: نهج غير مختلف.

كما يطلق النظام على اللؤلؤ المجموع في السلك، وعلى تدبير الأمور وسياستها. يقال: قد انتظم لفلان الأمر والتدبير، واتسق، واستتب، واطرد، وتهيأ، واستقام، والتأم.

النظام اصطلاحاً:

يطلق على تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني، مناسبة الدلالات، على حسب ما يقتضيه العقل.

النظام في القرآن والسنة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سوّوا صفوفكم، فإنّ تسوية الصّفّ من تمام الصّلاة»**(١).

الكون قائم على النظام:

وإن خلق هذا الكون بهذا الانتظام البديع ليوحي للمسلم بأهمية النظام، فجميع ما في الكون قد قدره الله وقضاه ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]، وقال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس]، ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

---

(١) رواه البخاري (٧٢٣) ومسلم (٤٣٣).

بل لو فكر الإنسان في خلق نفسه ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات]، لوجد ذلك الجسم بجميع أعضائه ينتظم بنظام عظيم دقيق، فسبحان الذي خلق فسوى!!

خصائص النظام في الإسلام:

١- الربانية:

أي أن مصدره من وحي الله تعالى إلى خاتم رسله. وتمتاز هذه الخاصية بعدة مزايا: خلوه من التناقض، والجهل والهوى والتحيز والظلم- الرضا بالانقياد له ما دام هذا النظام من الله تعالى.

٢- الشمول:

فالنظام الإسلامي يعالج شؤون الحياة جميعها، فهو الضابط للسلوك في مختلف الميادين.

٣- التوازن:

ويراد به التعادل بين طرفين أو متضادين؛ بحيث لا يأخذ أحد الطرفين غير حقه.

منهج الإسلام أساسه النظام:

ديننا دين منظم، ويأمر بالنظام، ويهتم به في كل جوانب الحياة، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع في باب الحياة الشخصية أو الأسرية أو الاجتماعية أو في باب العبادات.

العبادات والنظام:

* الصلاة في أوقاتها نظام ينظم يوم المسلم في الليل والنهار ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء]، واكتمال الصفوف وتراصها وتسويتها في الصلاة نظام بديع يجعل من المسلم منظماً في حياته، قال ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصف الأول فالأول، ويتراصون في الصف...**»[1]، وعن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتسوّنّ

(١) رواه مسلم (٤٣٠/ ١١٩).

صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم»[١].

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سوّوا صفوفكم، فإنّ تسوية الصّفّ من تمام الصّلاة»[٢].

* اختيار إمام الصلاة: عن أبي مسعود الأنصاريّ- رضي الله عنه- أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسّنّة، فإن كانوا في السّنّة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلما. ولا يؤمّنّ الرّجل الرّجل في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلّا بإذنه»[٣].

* الائتمام بالإمام في كل حركات الصلاة: عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّما جعل الإمام ليؤتمّ به، فلا تختلفوا عليه، فإذا ركع فاركعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربّنا لك الحمد. وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلّى جالسا فصلّوا جلوسا أجمعون، وأقيموا الصّفّ في الصّلاة، فإنّ إقامة الصّفّ من حسن الصّلاة»[٤].

* والمسلمون ينتظمون بالصيام في وقت واحد من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

* والزكاة منظمة في وقتها ونصابها وأهلها.

* والحج رحلة منظمة في أماكن محدودة؛ لتعطي للإنسان ترتيباً لحياته وفق نظام دقيق.

النظام والحياة الاجتماعية:

لقد اهتم الإسلام بالنظام والتنظيم في الحياة الاجتماعية؛ سواء على مستوى المجتمع أو الأسرة أو الفرد.

فعلى مستوى المجتمع: عن عمرو بن العاص- رضي الله عنه- قال: كان الناس إذا نزل رسول الله ﷺ منزلاً تفرقوا في الشعاب والأودية. فقال رسول الله ﷺ: «إن

---

(١) رواه البخاري (٧١٧) ومسلم (٤٣٦).
(٢) رواه البخاري (٧٢٣) ومسلم (٤٣٣).
(٣) رواه البخاري (٦٧٣).
(٤) رواه البخاري (٧٢٢) ومسلم (٤١٤).

تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان» فلم ينزل بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض، حتى يقال: لو بسط عليهم ثوب علمهم[١].

وعلى مستوى الأسرة: فقد قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة] فجعل نظاماً وحقوقاً للزوجة وللزوج، وفضل الرجال على النساء بدرجة.

ثم بعد الإشارة إلى هذه الحقوق المنظمة قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهذا التقسيم والتنظيم صدر عن حكمة وهي وضع الشيء في موضعه المناسب.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَصُم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه»**[٢].

وعلى مستوى الفرد، بوب البخاري في صحيحه (باب: يجلس حيث ينتهي به المجلس).

وذكر الطبراني وغيره من أهل الحديث أن النبي ﷺ كان من صفاته أنه يجلس حيث ينتهي به المجلس.

وهكذا كان الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- فعن جابر بن سمرة- رضي الله عنه- قال: «كنا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهي»[٣].

إذا كان الصحابة- رضوان الله عليهم- إذا جاء أحدهم إلى المجلس لم يتكلف الجلوس في المقدمة أو مزاحمة ومضايقة الجالس بل كانوا يجلسون حيث ينتهي بهم المجلس، فينبغي أن يكون أحدنا هكذا، إذا جاء إلى مكان فيه طابور أن يقف حيث انتهى تراص الواقفين، لا يتكلف المزاحمة في المقدمة أو النصف في الطابور والتحايل ونحو ذلك .

لقد كان النبي ﷺ يهتم بالنظام والتنظيم حتى في كلامه، كما تصفه لنا أم معبد- رضي الله عنها- في حديثها الذي وصفت فيه الرسول ﷺ حيث قالت: «كأن منطقه

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٢٨) وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (١٠٢٦).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٢٥) والترمذي (٢٧٢٥) وصححه الألباني.

خرزات نظم يتحدرن»[١].

وقد جاء الإسلام بأنظمة تحدد التعامل بين الناس؛ فالاستئذان ثلاث، وإن أذن لك وإلا فارجع، قال ﷺ: **«الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع... الحديث»**[٢] وشرع الاستئذان عند دخول البيت. ويستأذن الرجل على أمه وزوجته وبنته. وشَرع للإنسان أوقاتًا خاصة به ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [النور: ٥٨].

نظرة على الواقع:

انظر إلى الشوارع والطرقات والسرعة الجنونية التي حصدت الآلاف من الشباب وعدم الالتزام بالأنظمة المرورية مما كان سببه إزهاق الأرواح أو العاهات المستديمة.

إنك لا تكاد تمشي في طريق إلا وترى من المخالفات والتجاوزات التي يعملها الكثيرون دون أي شعور بالمسؤولية أو الإحساس بالخطأ.

لو نظرت نظرة عند مدخل كل مسجد رأيت منظراً فوضوياً يدلك على عدم اهتمامنا بالنظام والتقيد به.. فترى الأحذية المترامية والمتكدسة التي في مداخل المساجد في منظر يشوه جمال المسجد ويخالف ما أمر الله به من العناية بالمساجد والاهتمام بنظافتها.

وإن هدي الإسلام للمسلم في دخول المسجد يدل على اهتمامه بالنظام، فتقديم الرجل اليمنى وذكر الذكر الوارد وقول النبي ﷺ: **«إذا أتى أحدكم المسجد فلينظر إلى نعليه، فإن وجد بهما أذى فليمسح بهما الأرض»**[٣]. كل ذلك بعداً عن تلويث المساجد. فلماذا الإصرار على تلك الفوضوية مع وجود ما ينظم ويحفظ؟

ومن الفوضوية ما نراه ونشاهده في وقوف السيارات وقوفاً خاطئاً ومخالفاً للأنظمة، فلماذا المسلم لا يكون منضبطاً وملتزماً بالأنظمة حتى يسود النظام

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٠).

(٢) رواه مسلم (٢١٥٣) والترمذي (٢٦٩٠).

(٣) رواه البيهقي في الكبرى (٢/ ٦٠٤) (٤٢٥٠).

وتختفي مظاهر الفوضوية في حياتنا؟

واجبات عملية:

١- دوام مراقبة الله تعالى علام الغيوب في جميع الأعمال والأحوال.

٢- إدراك أن النظام جزء من ديننا وعقيدتنا وفيه صلاح حياتنا، فالإسلام ينظم وقت المسلم وعلاقاته وأحواله من أول نهاره إلى نومه يدفع بالمسلم إلى العمل إلى التخطيط والتنظيم.

٣- قيام الأسرة بدورها المطلوب واهتمام الأب بأولاده ليغرس فيهم هذا الخلق الجميل.

٧- إيجاد الفرص المناسبة للعمل الذي يعود على النظام والانتظام، ويقضي على مظاهر الفوضوية والضياع.

٨- تنظيم الدورات التدريبية في التنظيم والتخطيط.

٩- إدراك أهمية الوقت واغتنامه، وأن في قوله ﷺ: **«اغتنم خمساً قبل خمس»** وقوله: **«بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل...»**.

١٣ ـ الشكر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ الله أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ - أَوْ قَالَ الْبَقَرُ شَكَّ إِسْحَقُ إِلَّا أَنَّ الأَبْرَصَ أَوْ الأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الإِبِلُ، وَقَالَ الآخَرُ: الْبَقَرُ- قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ. فَقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا. فَقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ الله إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا. فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا.

قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الْغَنَمِ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ الله فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ الله إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ الله إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَالله لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا

أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ، وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[(١)].

الشكر لغةً:

مصدر شَكَرَ يَشكُرُ، وهو مأخوذ من مادة: (ش ك ر) التي تدل على: «الثناء على الإنسان بمعروف يُوليكَهُ»، قال الراغب: الشُّكر تصور النِّعمة وإظهارُها، وقال ابن منظور: الشُّكر عِرفانُ الإحسان ونشرُه، والشُّكر من الله: المجازاةُ والثناءُ الجميلُ. قال الفراء: شكرتك وشكرت لك، ونصحتك ونصحت لك، والفصيح الأول، والشُّكر معرفة الإحسان والتحدث به؛ وأصله في اللغة: الظهور.

الشكر اصطلاحا:

قال المناوي: الشُّكر شُكران: شُكر باللسان وهو الثناء على المنعم، والآخر شُكر بجميع الجوارح، وهو مكافأة النِّعمة بقدر الاستحقاق، والشُّكور الباذل وسعه في أداء الشُّكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا.

وقال ابن القيم: الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا، وعلى قلبه شهودا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادا وطاعة.

الشكر في القرآن والسنة:

من أسماء المولى- جل وعلا- فقد اشتق سبحانه لأهل الشكر اسماً من أسمائه، فمن أسمائه سبحانه (الشكور) قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

يقول العلامة ابن القيم- رحمه الله: وسمى نفسه شاكرا وشكورا، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا.

وقد أمر الله ﷻ به في كثير من الآيات في القرآن الكريم، فقال سبحانه وتعالى:

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٤) ومسلم (٢٩٦٤).

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[البقرة].

قال القرطبي: إن شكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذلك إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بطاعته له؛ إلا أن شكر العبد نطقٌ باللسان، وإقرارٌ بالقلب بإنعام الرب مع الطاعات.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: «إن النعمة موصولة بالشُّكر، والشُّكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشُّكر من العبد».

وقال بعض أهل العلم: «مَن أُعطي أربعًا لم يُمنع أربعًا: مَن أُعطي الشُّكر لم يُمنعِ المزيدَ، ومَن أُعطي التوبةَ لم يُمنعِ القبولَ، ومَن أُعطي الاستخارةَ لم يُمنعِ الخِيَرَةَ، ومَن أُعطي المشورةَ لم يُمنعِ الصوابَ».

قال بعض السلف- رحمهم الله تعالى: النعم وحشية، فقيدوها بالشكر.

وقال الحسن البصري: إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا، ولهذا كانوا يسمون الشكر: الحافظ، لأنه يحفظ النعم الموجودة، والجالب، لأنه يجلب النعم المفقودة.

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان].

يقول ابن عاشور- رحمه الله: وكان أول ما لُقنه لقمان من الحكمة هو الحكمة في نفسه بأن أمره الله بشكره على ما هو محفوف به من نعم الله التي منها نعمة الاصطفاء؛ لإعطائه الحكمة وإعداده لذلك بقابليته لها، وهذا رأس الحكمة لتضمنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل النظر في حقائق الأشياء، وقبل التصدي لإرشاد

غيره، ويقول أيضًا: وشكر الله من الحكمة، إذ الحكمة تدعو إلى معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه لقصد العمل بمقتضى العلم، فالحكيم يبث في الناس تلك الحقائق على حسب قابلياتهم بطريقة التشريع تارة والموعظة أخرى، مع حملهم على العمل بما علموه من ذلك، وذلك العمل من الشكر إذ الشكر قد عُرف بأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من مواهب ونعم فيما خلق لأجله؛ فكان شكر الله هو الأهم في الأعمال، فهو رأس الحكمة، الذي هي تقديم العلم بالأنفع على العلم بما هو دونه.

وقال جل جلاله إخبارًا عن إبليس اللعين: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾[الأعراف]، قيل: هو طريق الشُّكر، ولعلو رتبة الشُّكر، طعن اللعين في الخلق فقال: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وذكر سيد قطب كلاماً لطيفاً حول هذه الآية فقال: «ويجيء الشكر تنسيقاً مع ما سبق في مطلع السورة ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعراف] لبيان السبب الحقيقي في قلة الشكر، وكشف الدافع الحقيقي الخفي من حيلولة إبليس دونه وقعوده على الطريق إليه، ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذي يدفعهم عن الشكر والهدى».

وعن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: **«يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك»**، فقال: **«أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن للطاعم الشَّاكر من الأجر مثل ما للصائم الصابر»**(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا بن آدم حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النساء، وجعلتك تَرْبَعُ وترأس، فأين شكر**

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائي (١٣٠٣) وصححه الألباني.
(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٨٩) وحسنه الأرناؤوط.

ذلك؟»[١].

وعن صهيب الرومي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»**[٢].

قال مُطَرِّفٌ رحمه الله: «لأَن أُعافى فأشكُر، أحبُّ إلي مِن أن أُبتلى فأَصبر».

الشكر من صفات الأنبياء الكرام:

والشكر قد وصف الله عز وجل به أنبياءه الكرام، الذين اصطفاهم من خلقه؛ فقد قال- سبحانه وتعالى- عن نوح- عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء]، فقد قيل عن نوح عليه السلام إنه كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني. وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني، ولو شاء أظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني، ولو شاء أعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني، ولو شاء أحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية، ولو شاء حبسه، وقيل: إنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به، فإن وجده محتاجاً آثره به.

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ]، فآل داود- عليه السلام- كانوا قائمين بشكر الله عز وجل بالقول والفعل، فالآية تدل على حصول الشكر بالقول والفعل.

وقال أبو عبد الرحمن الحبلي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر الحمد.

وقد ورد في السنة النبوية ما يدل على قيام آل داود- عليه السلام- بالشكر قولاً وعملاً؛ ففي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن أحب الصلاة إلى الله تعالى**

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٩٢) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩/ ٦٤).

صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما»(١).

وفي شأن النبي ﷺ ما ذكرته لنا عائشة- رضي الله عنها: أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه. فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا**»(٢).

وكان من دعائه ﷺ كما روى ابن عباس- رضي الله عنهما: «**رب اجعلني لك شكاراً، لك ذكارا، لك رهابا، لك مطواعا، لك مخبتا، إليك أواها منيبا..**»(٣).

الشكر من صفات أهل الإيمان:

فقد أثنى الله ﷻ على أهل الإيمان وهم أهل الشكر، فسعيهم مشكور، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]، وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان]، وقال -سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان]، وأهل الإيمان هم أهل الذكر، عند النظر في آيات الله الباهرات هنا وهناك، وهم أهل الشكر لله على ما أنعم عليهم من النعم الكثيرة التي لا تحصى، من جملتها تعاقب الليل والنهار، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾، وأهل الإيمان هم أهل الشكر، وأهل الشكر هم القليل من عباده، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

الشكر ينجي من عذاب الله:

قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾، ونجّى الله لوطًا عليه السلام من العذاب بالشكر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ [القمر].

ولما تنكَّر قومُ سبأ لنعم الله وجحدوها، وقابلوها بالعصيان، سلبها الله- سبحانه وتعالى- منهم، وأذاقهم ألوانًا من العذاب، ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم

---

(١) رواه البخاري (١١٣١) ومسلم (١١٥٩/ ١٨٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧) ومسلم (٢٨١٩).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٥١) وابن ماجه (٣٨٣٠) وصححه الألباني.

بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ]. وأصحاب الجنة (المذكورون في سورة القلم) قابلوا نعمةَ الله بالنكران وحرمان المساكين، فطاف على ثمرهم طائف، فأصبحت زروعهم هباءً منثورا كالليل البهيم.

قال الفضيل بن عياض- رحمه الله: «عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقلَّ نعمةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم». وقال الحسن البصري- رحمه الله: «إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء الله، فإذا لم يُشكر عليها قَلَبَهَا عذابًا».

النعم التي تستحق الشكر:

١-نعمة الإسلام والإيمان:

وهي- والله- أعظم نعمة أنعم الله بها علينا، حيث جعلنا من أهل الإسلام والتوحيد، ولم يجعلنا من اليهود، الذين سبّوا الله- عز وجل- ووصفوه بأقبح الصفات وأخسّها، أو النصارى، الذين عبدوا غير الله، ونسبوا إليه الولد- تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

قال مجاهد- رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾. قال: «هي لا إله إلا الله».

وقال ابن عيينة- رحمه الله: «ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرّفهم لا إله إلا الله».

٢-نعمة الستر والإمهال:

وهي أيضًا من أعظم النعم، لأن الله- عز وجل- لو عاجلنا بالعقوبة لهلكنا، قال مقاتل- رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال: «أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة: فستره عليكم المعاصي».

وقال رجل لأبي تميمة- رحمه الله: كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله، فلا يستطيع أن يُعيِّرني بها أحد؟ ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها علمي».

٣- نعمة التذكير:

قال ابن القيم- رحمه الله: «ومن دقيق نعم الله على العبد التي لا يكاد يفطن لها، أنه يغلق عليه بابه، فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القوت

ليعرّفه نعمته عليه».

وقال سلام بن أبي مطيع- رحمه الله: «دخلت على مريض أعوده، فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم، ولا لهم مَنْ يخدمهم. قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكري المطروحين في الطريق.. اذكري من لا مأوى له، ولا له من يخدمه».

٤- نعمة فتح باب التوبة:

فمن نِعم الله- عز وجل- على عباده أنه لم يغلق باب التوبة دونهم، مهما كانت ذنوبهم ومعاصيهم، وفي أثر إلهي يقول الله- عز وجل: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أُقنطهم من رحمتي، إن تابوا إليّ فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب».

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»[1].

٥-نعمة الاصطفاء:

وهذه النعمة يشعر بها أهل الاستقامة والورع والإقبال على الله- عز وجل- دون غيرهم، فالله- عز وجل- ثبت هؤلاء على دينه في زمن الفتن، وصرفهم إلى طاعته، في حين أنه صرف أكثر الناس عنها، وحبّبهم في الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وهذه من أعظم النعم التي يستحق عليها- سبحانه وتعالى- تمام الشكر وغاية الحمد.

وقد مرّ وهب بن منبه- رحمه الله- ومعه رجل على رجل مبتلى، أعمى، مجذوم، مقعد، به برص، وهو يقول: الحمد لله على نعمه، فقال له الرجل الذي كان مع وهب: أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ وكان هذا الرجل في قرية تعمل بالمعاصي، فقال للرجل: ارم ببصرك إلى أهل المدينة، فانظر إلى كثرة أهلها، وما يعملون، أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري!!.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٣).

٦- نعمة الصحة والعافية وسلامة الجوارح :

حكى سلمان الفارسي- رضي الله عنه: «أن رجلاً بُسط له من الدنيا، فانتزع ما في يديه، حتى لم يكن له إلا حصير بالية، فجعل يحمد الله- تعالى- ويثني عليه. فقال له رجل آخر قد بسط له من الدنيا: أرأيتك أنت، علامَ تحمد الله؟ فقال الرجل: أحمده على ما لو أعطيت به ما أعطي الخلق لم أعطهم إياه. قال: وما ذاك؟ قال: أرأيتك بصرك؟ أرأيتك لسانك؟ أرأيتك يدك؟ أرأيتك رجليك؟».

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: «أيسرّك ببصرك هذا مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا. قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا. قال: فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا. قال: فذكّره نعم الله عليه، ثم قال له: أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة!!».

٧-نعمة المال:

والمال هو الطعام والشراب واللباس، قال بكر المزني- رحمه الله: «والله ما أدري أي النعمتين أفضل عليّ وعليكم: أنعمة المسلك؟ أم نعمة المخرج إذا أخرجه منا؟ فقال الحسن- رحمه الله: «إنها لمن نعمة الطعام».

وقالت عائشة- رضي الله عنها: «ما من عبد يشرب الماء القراح- الصافي- فيدخل بغير أذًى، ويخرج بغير أذًى، إلا وجب عليه الشكر».

وقال بعض السلف في خطبته يوم عيد: «أصبحتم زهرًا، وأصبح الناس غبرًا، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون»، فبكى وأبكاهم.

وقال عبدالله بن قرط الأزدي- رحمه الله- وقد رأى على الناس ألوان الثياب في يوم العيد: «يا لها من نعمة ما أعظمها! ومن كرامة ما أظهرها! وإنما تثبت النعم بشكر الـمُنْعَم عليه للمُنْعِم».

أنواع الشكر :

والشكر على ثلاثة أنواع هي:

١- شكر القلب :

وهو تصور النعمة. فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: مُطِر الناس على

عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله...**»(١).

٢- شكر اللسان :

وهو الثناء على المنعم، ومنه قوله ﷺ: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمْد لله**»(٢)، ومن الشكر باللسان التحدث بنعمة الله تعالى عليك؛ فعن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال النبي ﷺ على المنبر: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ﷻ، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب**»(٣).

٣- شكر الجوارح :

وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها، بمعنى استعمالها فيما خلقت له.

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، يقول القرطبي- رحمه الله: قال الزهري: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، أي: قولوا الحمد لله، و﴿شكرًا﴾ نصب على جهة المفعول، أي: اعملوا عملاً هو الشكر، وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي في نفسها الشكر إذا سدت مسده، فحقيقة الشكر الاعتراف بالنعمة للمنعم، واستعمالها في طاعته، والكفران استعمالها في المعصية، بمعنى أن العبادات وخاصة البدنية هي شكر الجوارح.

ويقول ابن القيم- رحمه الله: وحقيقة الشكر في العبودية هي ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا، وعلى قلبه: شهودا ومحبة، وعلى جوارحه: انقيادا وطاعة.

واجبات عملية:

١- الإلحاح في الدعاء والتضرع لله، بأن يوفقك الله لشكره، كما قال تعالى عن سليمان: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [النمل: ١٩].

وقد أوصى النبي ﷺ معاذ بن جبل أن يقول دبر كل صلاة: «**اللهم أعني على**

---

(١) رواه مسلم (٧٣/ ١٢٧).
(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٣) وحسنه الألباني.
(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨).

ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(١)].

٢- إمعان النظر في كثرة النعم التي نرفل فيها ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً، وأننا مطالبون بشكر الله عليها سواءً كانت حسية أو معنوية، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

قال يونس بن عبيد- رحمه الله تعالى- لرجل يشكو ضيق حاله: أيسرك ببصرك هذا مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا. قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا. قال: فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا. فذكره نعم الله عليه. ثم قال له: أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة؟

٣- النظر في أمور الدنيا إلى من هو دونك، وإلى أمور الآخرة إلى من هو فوقك، كما أرشدنا إلى ذلك النبي ﷺ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[(٢)].

قال عون بن عبد الله: صحبتُ الأغنياء، فلم أر أحدًا أكبر همًا مني، أرى دابة خيرًا من دابتي، وثوبًا خيرًا من ثوبي، وصحبت الفقراء فاسترحت.

٤- الاعتراف لله بالنعمة التحدث بها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى]، قال الحسن البصري: أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله- عز وجل- يوم القيامة: يا ابن آدم، حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النساء، وجعلتك ترْبَع، وترأس، فأين شكر ذلك؟**»[(٣)].

٥- الانتفاع بالنعم وعدم كنزها، والاقتصاد في النعمة وصرفها في الخير: قال النبي ﷺ: «**كلوا واشربوا وتصدّقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[(٤)].

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائي (١٣٠٣) وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٣) وابن ماجه (٤١٤٢) وصححه الألباني.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٤٩٢) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

فإن ذلك من علامات شكر النعم، ولذلك روي أن داود- عليه السلام- كان يقول في دعائه: «سبحان مستخرج الشكر بالعطاء».

ودعي عثمان بن عفان ﷺ إلى قوم على ريبة، فانطلق ليأخذهم، فتفرقوا قبل أن يبلغهم، فأعتق شكرًا لله، ألا يكون جرى على يديه خزي مسلم!!. فكان شكره بالعتق.

٦- **سجود الشكر**: عن أبي بكرة نفيع بن الحارث ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه أمر بشر به خَرَّ ساجدا؛ شاكرا لله[1].

وهذه السجدة لا تشترط لها طهارة، ولا استقبال قبلة.

٧- **تذكر الماضي من جاهلية وضلال وفقر**، وكيف توالت عليك نعم الله، قال تعالى مذكراً نبيه ﷺ بعض نعمه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى].

٨- **فعل الطاعات وترك المعاصي**:

وقد مر بنا قوله ﷺ لعائشة: «**أفلا أكون عبدًا شكورا**»، وكيف أنه كان ﷺ يجعل هذا الشكر متمثلا في الاجتهاد في العبادة، قال محمد بن كعب القرظي- رحمه الله: «الشكر تقوى الله تعالى، والعمل الصالح».

وقال أبو عبد الرحمن الحبلي- رحمه الله: «الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل عمل تعمله لله شكر، وأفضل الشكر الحمد».

وقال مخلد بن الحسين- رحمه الله: «الشكر ترك المعاصي». وفي بعض الآثار الإلهية: «**ابن آدم! خيري إليك نازل، وشرّك إليّ صاعد، أتحبب إليك بالنعم، وتتبغض إليّ بالمعاصي**».

(١) رواه أبو داود (٢٧٧٤) وصححه الألباني.

١٤ـ الإمعة

وضع مجموعة من العلماء خمسة قرود في قفص واحد، ووضعوا في وسط القفص سلما، وفي أعلى السلم وضعوا بعض الموز، وفي كل مرة يتسلق أحد القرود لأخذ الموز، يرش العلماء باقي القرود بماء شديد البرودة.

بعد فترة بسيطة أصبح كل قرد يتسلق لأخذ الموز، يقوم الباقون بمنعه وضربه حتى لا يُرشون بالماء البارد، بعد مدة من الوقت لم يجرؤ أي قرد على صعود السلم لأخذ الموز، على الرغم من كل الإغراءات؛ خوفا من الضرب. بعدها قرر العلماء أن يقوموا بتبديل أحد القرود الخمسة ويضعوا مكانه قردا جديدا، فكان أول ما قام به القرد الجديد أن صعد السلم ليأخذ الموز، ولكن فورا قام الأربعة الباقون بضربه وأجبروه على النزول. بعد عدة مرات من الضرب فهم القرد الجديد بأن عليه أن لا يصعد السلم مع أنه لا يدري ما السبب؟!

قام العلماء أيضا بتبديل أحد القرود القدامى بقرد جديد، وحل به ما حل بالقرد البديل الأول، حتى أن القرد البديل الأول شارك زملاءه بالضرب وهو لا يدري لماذا يضرب!! وهكذا حتى تم تبديل جميع القرود الخمسة الأوائل بقرود جديدة، حتى صار في القفص خمسة قرود لم يرش عليهم ماء بارد أبدا، ومع ذلك يضربون أي قرد تسول له نفسه صعود السلم بدون أن يعرفوا ما السبب؟!

لو فرضاً سألنا القرود: لماذا يضربون القرد الذي يصعد السلم؟

أكيد سيكون الجواب: لا ندري، ولكن وجدنا آباءنا وأجدادنا له ضاربين.

الإمّعة لغة:

قال الجوهريّ: رجل إمّع وإمّعة أيضا للذي يكون لضعف رأيه مع كلّ أحد.

ويقول اللّيث: رجل إمّعة يقول لكلّ أحد: أنا معك، ورجل إمّع وإمّعة للّذي يكون لضعف رأيه مع كلّ أحد، ومنه قول ابن مسعود: لا يكوننّ أحدكم إمّعة، قيل: وما الإمّعة؟ قال: الّذي يقول: أنا مع النّاس. قال ابن برّي: أراد ابن مسعود بالإمّعة الّذي يتبع كلّ أحد على دينه.

والإمّعة: المتردّد في غير ما صنعة، والّذي لا يثبت إخاؤه، ورجال إمّعون، ولا يجمع بالألف والتّاء.

الإمَعة اصطلاحاً:

قال ابن الأثير: الإمّعة الّذي لا رأي له، فهو يتابع كلّ أحد على رأيه، وقيل: هو الّذي يقول لكلّ أحد: أنا معك.

وقيل: الإمعة الذي لا رأي له، مع كل الناس، ومع كل الاتجاهات، أي أنه منافق، ومصلحته فوق كل شيء، يجامل الناس جميعاً، لا ينطوي على مبدأ ولا على قيمة، مع الناس، بل مع مصلحته، يتلون كالحرباء، إن جلس مع أهل الإيمان قال: آمنت معكم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة].

الإمعة من القرآن والسنة:

ذكر القرآن أن صفة الإمعة موجودة في المجتمع منذ عصر النبوة الأولى، فالمشركون في عهد رسول الله ﷺ لم يؤمنوا به ورفضوا اتباعه واتبعوا أقوامهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة]. روي عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أي: ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا خيرًا وأعلم منا، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية(١).

ويخبرنا القرآن عمن اتبعوا رؤساءهم أو مديريهم على ضلالة، وقد غلبهم رؤساؤهم بنفوذهم وسلطانهم فاتبعوهم، فتبرأوا منهم يوم القيامة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة] بل الشيطان نفسه يتبرأ من كل من اتبعه كما أخبرنا القرآن: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥١١) والثعلبي في «تفسيره» (٢/ ٣٩) عن ابن عباس. وفي إسناده محمد بن أبي محمد وهو مجهول.

قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر].

وبين القرآن أن الإمعة من صفات المنافقين؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة].

ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة].

وموسى عليه السلام يوبِّخ قومه لما رآهم إمّعوت؛ قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف].

فالإمعة إنسان شهواني، كاذب، منافق، مصلحته فوق كل شيء، يتلون مئات الألوان، يساير كل الناس، محسنهم ومسيئهم، يشايع كل الناس، مثل هذا الإنسان هو الإمعة الذي وصفه النبي ﷺ: «**يذهب الصالحون الأول فالأول، ويبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله بالة**»(١).

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هذه النوعية من البشر فقال: «**سيأتي على أمتي سنوات خداعات، يكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكاذب، ويؤتمن الخائن ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة**» قيل: وما الرويبضة؟ قال: «**الرجل التافه السفيه يتكلم في أمر العامة**»(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تكونوا إمّعة، تقولون: إن أحسن النّاس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم، إن أحسن النّاس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٤) عن مرداس الأسلمي.
(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٣٦) وصححه الألباني.
(٣) رواه الترمذي (٢٠٠٧) وضعفه الألباني.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النبي ﷺ: «**تَجِدُ مِنْ شَر الناسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ الله ذَا الْوَجْهَيْنِ: الذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ**»[١].

وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينا**»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار**»[٣].

وعن المقداد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**»[٤].

السلف والإمعة:

وردت آثار كثيرة عن السلف في الزجر عن التلون في الدين والتميع في المنهج؛ منها:

عن زيد بن عبد الله بن عمر قال: قال ناس لابن عمر: إنا لَنَدْخُلُ إلى سلطاننا وأمرائنا، فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم. فقال: كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ[٥].

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: «يا كُمَيل، إنّ هذه القلوبَ أوعيَة، فخَيرُها أوعاها، والناسُ ثلاثة: فعالِمٌ ربّانيّ، ومسترشد على سبيلِ نجاة، وهَمَجٌ رَعاع، أتباعُ كلِّ ناعِق،، لم يستضيئوا بنورِ العِلم، ولم يَلجأوا إلى ركنٍ وثيق.

أفٍ لحامل حق لا بصيرة له ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا يدري أين الحق، إن قال أخطأ، وإن أخطأ لم يدر، مشغوف بما لا يدري حقيقته، فهو فتنة لمن افتتن به، وإن الخير كله من عرفه الله دينه وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف دينه».

وعن ابن مسعود ﷺ: «لا يكونن أحدكم إمعة، قالوا: وما الإمعة؟، قال: يجري

---

(١) رواه البخاري (٣٤٩٣) ومسلم (٢٥٢٦).
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٣١٣) وأحمد (٢/ ٢٨٩) وصححه الألباني.
(٣) رواه أبو داود (٤٨٧٣) وصححه الألباني.
(٤) رواه مسلم (٣٠٠٢).
(٥) رواه البخاري (٧١٧٨).

مع كل ريح».

وعنه: «ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن، وإن كفر كفر؛ فإنه لا أسوة في الشر».

وقال الإمام أحمد: «ليوطنن المرء نفسه على أنه إن كفر من في الأرض جميعاً لم يكفر ولا يكونن أحدكم إمعة، قيل: وما الإمعة؟، قال: الذي يقول: أنا مع الناس، إنه لا أُسوة في الشر».

قال القرطبي: «إنما كان ذو الوجهين شر الناس؛ لأن حاله حال المنافق: إذ هو متملق بالباطل والكذب مدخل للفساد بين الناس».

وقال النووي: «هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها، وصنيعه نفاق محض كذب وخداع، وتحيل واطلاع على أسرار الطائفتين، وهي مداهنة محرم».

صفات الإمعة:

من آراء السلف السابقة تظهر ملامح وصفات الإمعة:

١- ليس عنده ثوابت منهجية يرجع إليها وأصول عقدية يعتمد عليها؛ فلا بصيرة عنده ولا علم لديه.

٢- ليس له رأي خاصٍ به؛ لأنه مهزوز الإيمان يعبد الله على حرف.

٣- ليس له موقف خاص به، بل يدور مع المصلحة والنجاة، وإن كان على حساب دينه وسلامة عقيدته.

٤- ليس لديه عزم على اتخاذ موقف مغاير لمن حوله ولو كانوا على ضلالة، بل هو معهم إن أحسنوا أحسن، وإن أخطأوا أخطأ، وإن اهتدوا اهتدى، وإن ضلوا ضل.

٥- يعفي نفسه من المسؤولية ويجيد فن اللوم على الجميع ما عداه.

٦- يتقمص شخصية غيره ويذوب في الآخرين كما يذوب الملح في الماء.

٧- يعمل وفق منظومة الضرر للذات والنفع للجميع أو النفع للذات فقط على ما سنوضحه تالياً.

مضارّ الإمعة :

من مضار أن يكون الإنسان إمعة :

- الإمعة يؤكد ضعف شخصه وعقله ودينه.

- والإمعة يعيش ذليلاً، فهو تابع .

- والإمعة منبوذ من الله، ثم من الناس.

- والإمعة الأتباع بهذه الصفة يصنعون بطلاً من لا شيء: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الزخرف].

- المجتمع الذي فيه صفة الإمعة يصنع إنساناً لا قيمة له إطلاقاً.

- والإمعة قد يقع في مهاوي الضلالة.

- سلوك الإمعة يقوي روح التبعية والرذيلة في المجتمع، فيعيش عالة على المجتمعات.

- ويضعف الإنتاج الفكري والمادي.

واجبات عملية:

١ - الثقة بأن الله هو الرزاق:

فإذا حاولتَ أن تُطيع فلانًا؛ لأنه سيأتي لك بمصلحة ورزق تذكَّر قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الذاريات]، وتذكَّر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[الذاريات]، وتذكر قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح].

٢- الحفاظ على هويتك الإسلامية:

بأن تكون مسلمًا في ملبسك، افخر بكونك مسلمًا دون أن تتعدى على غيرك؛ فمِن صفات الصحابة الأبرار: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، قال الفاروق عمر ﷺ: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن طلبنا العزة بغيره أذلنا الله».

٣- العلم والتعلم:

حتى تكون على بينة من الأمور، ومعرفة بهذا الداء القاتل الفاتك بالمجتمع،

ونتخذ الموقف الصحيح السليم مع المرضى بهذا الداء.

٤- حسن تربية أبنائنا، وزرع الثقة فيهم، وإبراز شخصيتهم، وإعانتهم على بر والديهم:

وذلك بما يقدم لهم في حالة طفولتهم أو المراهقة. وفيما يلي بعض الأمور التي تربي الأطفال تربية سليمة وتبني شخصيتهم المستقلة خصوصا فيما يحصل من الأبوين: (أن يقبلا الميسور منهم- ألا يكلفاهم فوق طاقتهم- ولا يتعباهم بشيء ينفر منهم).

قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله وَالِدًا أَعانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ»(١).

٥- تنمية المواهب والقدرات، ومحاولة الرقي والتجديد والابتكار، والافتخار بالثوابت والقيم، والبعد كل البعد عن التبعية والروتينية والإمعية، أو السير خلف الشائعات والخرافات والشعوذات، أو الظهور بمظهر التلون والتذبذب والتقليد الأعمى، أو بتقمص شخصية الآخرين والذوبان فيهم كما يذوب الملح في الماء، فديننا يدعونا إلى معالي الأمور وأشرافها، ويكره لنا سفسافها ودنيئها.

ولن يأتي هذا- أخي القارئ- إلا إذا أخلص المرء لله، وصدق معه، والتزم بطاعته، واعتز بها، يقول الله -سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء].

٦- مصاحبة الصادقين، الرافضين للتذبذب، الذين لا يستسلمون للواقع السيئ، ولا يحبون الدوران في فلكه، ويسعون دائماً إلى تغيير أنفسهم وإصلاح مجتمعاتهم، ولا يرضخون أبدًا تحت أي ظرف من الظروف إلى بيع ثوابتهم ومبادئهم، فتراهم منعزلين عن أهل القنوط والتثبيط والراكنين إلى الدنيا، اللاهثين خلف كل ناعق، المتبعين لكل جديد ولو كان سيئاً.

يقول الفضيل بن عياض- رحمه الله: «اتبع طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين» ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام].

٧- استخدام أسلوب المصارحة مع المرضى بالإمعة، حتى نساعد في معالجتهم.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٥٤١٥) عن الشعبي مرسلا، وعزاه الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» ص ٦٨١ لأبي الشيخ في كتاب «الثواب» بسند ضعيف.

١٥ـ البركة

روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عَبْد الرَّحْمَنِ ابْن أَبِي بَكْرٍ– رَضِيَ الله عَنْهُمَا– قَالَ: جَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِضَيْفٍ لَهُ أَوْ بِأَضْيَافٍ لَهُ، فَأَمْسَى عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَتْ لَهُ أُمِّي: احْتَبَسْتَ عَنْ ضَيْفِكَ أَوْ عَنْ أَضْيَافِكَ اللَّيْلَةَ. قَالَ: مَا عَشَّيْتِهِمْ؟ فَقَالَتْ: عَرَضْنَا عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهِمْ فَأَبَوْا أَوْ فَأَبَى، فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ فَسَبَّ وَجَدَّعَ وَحَلَفَ لَا يَطْعَمُهُ، فَاخْتَبَأْتُ أَنَا، فَقَالَ: يَا غُنْثَرُ، فَحَلَفَتْ الْمَرْأَةُ لا تَطْعَمُهُ حَتَّى يَطْعَمَهُ، فَحَلَفَ الضَّيْفُ أَوْ الأَضْيَافُ أَنْ لا يَطْعَمَهُ أَوْ يَطْعَمُوهُ حَتَّى يَطْعَمَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: كَأَنَّ هَذِهِ مِنْ الشَّيْطَانِ، فَدَعَا بِالطَّعَامِ فَأَكَلَ وَأَكَلُوا، فَجَعَلُوا لا يَرْفَعُونَ لُقْمَةً إِلا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا، فَقَالَ: يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا؟ فَقَالَتْ: وَقُرَّةِ عَيْنِي إِنَّهَا الآنَ لأَكْثَرُ قَبْلَ أَنْ نَأْكُلَ، فَأَكَلُوا، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّهُ أَكَلَ مِنْهَا[(١)].

إنها البركة التي كست حياة الرعيل الأول، ضحوا بأموالهم في سبيل الله، فصار التراب في أيديهم ذهباً، وأنفقوا أوقاتهم في نشر دين الله، فامتدت أعمارهم إلى يوم الدين.

البركة في اللغة:

أصل البركة: الثبوت واللزوم. قال الراغب الأصفهاني: «برك البعير: ألقى ركبه .واعتبر منه معنى اللزوم فقيل: ابتركوا في الحرب أي: ثبتوا ولازموا موضع الحرب». وقال ابن الأثير في حديث: «**وبارك على محمد وعلى آل محمد**» أي: أثبت له وأدم ما أعطيته من التشريف والكرامة. والبركة: النماء والزيادة. وفي معجم مقاييس اللغة: «قال الخليل: البركة من الزيادة والنماء».

وروى ابن عباس: ومعنى البركة: الكثرة في كل خير.

البركة اصطلاحاً:

الزيادة في الخير والأجر وكل ما يحتاجه العبد في دينه ودنياه بسبب ذات مباركة

(١) رواه البخاري (٦١٤١) ومسلم (٢٠٥٧).

أو زمان مبارك. أو هي: أن تعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيرك في الزمن الكثير.

البركة في القرآن والسنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

فالله تعالى يُقال في حقِّه: تبارك؛ أي: تعالى وارتفع وتقدَّس وتمجَّد، ولا يُقال: تبارك في حقِّ أحدٍ غير الله تعالى، تباركَ في ذاته، وباركَ من شاءَ من خلقه، كما يُقال: تعاظَمَ وتعالى، فهو دليلٌ على عظمته وكثرة خيره ودوامِه واجتماع صفات الكمال فيه، وأن كلَّ نفعٍ في العالَم فمن نفعِه - سبحانه - ومن إحسانه، فهو ذو العظمة والجلال وعلوِّ الشأن.

ولهذا إنما يذكُره غالبًا مُفتتِحًا به كلامَه وعظمتَه وكبرياءَه، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان].

وقد يجعلُ اللهُ بعضَ خلقه مُبارَكًا، فيكثُر خيرُه، ويعظُم أثرُه، وتتصِلُ أسبابُ الخير فيه، وينتفعُ الناسُ منه، كما قال المسيحُ عيسى- عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

ووصف بعض الأماكن بالبركة، قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾[الأعراف: ١٣٧].

وبارك سبحانه في المسجد الأقصى وما حوله فقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء:١]، قال الطبري: «وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يقول تعالى ذكره: الذي جعلنا حوله البركة لسكانه في معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم؛ لأن البركة لا تفارقه جعلنا الله تعالى في بركاته، ونفعنا بشريف آياته».

وبارك سبحانه في أرض الشام، قال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأنبياء]، قال الألوسي: «والمراد بهذه الأرض أرض الشام، وقيل:

أرض مكة، وقيل: مصر، والصحيح الأول، ووصفها بعموم البركة، لأن أكثر الأنبياء- عليهم السلام- بعثوا فيها، وانتشرت في العالم شرائعهم التي هي مبادئ الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية، ولم يقل: التي باركناها للمبالغة بجعلها محيطة بالبركة، وقيل: المراد بالبركات النعم الدنيوية من الخصب وغيره، والأول أظهر وأنسب بحال الأنبياء- عليهم السلام».

وأرض اليمن أرض مباركة بدعاء النبي ﷺ: «**اللهم بارك لنا في يمننا**»(١)، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: «**أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية**»(٢).

كما وصف الله تعالى بعض الأزمنة بالبركة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان].

ووصف المطر الذي ينزل من السماء بالبركة، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ [ق].

ووصف الله تعالى القرآن بأنه كتاب مبارك، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

ووصف الله تعالى شجرة الزيتون بالمباركة قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥].

ووصف الرسول ﷺ الخيل بالبركة، فقال: «**البركة في نواصي الخيل**»(٣).

ووصف النخل بالبركة، فقال ﷺ: «**إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم**»(٤).

وقال ﷺ: «**إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإنه بركة**»(٥).

ثوابت إلهية:

- البركةُ فضلُ الله يأتي للإنسان من حيث لا يُحِسُّ ولا يحتسِب، فكلُّ أمرٍ تُشاهَدُ

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨٨) ومسلم (٥٢).
(٢) رواه البخاري (٧٠٩٤) والترمذي (٣٩٥٣).
(٣) رواه البخاري (٢٨٥١) ومسلم (١٨٧١).
(٤) رواه البخاري (٥٤٤٤).
(٥) رواه الترمذي (٦٥٨) وضعفه الألباني.

فيه زيادةٌ غير محسوسة. يُقال: مُباركٌ، وفيه بركةٌ.

- البركةُ هِبةٌ من الله فوق الأسباب الماديَّة التي يتعاطاها البشرُ، وإذا باركَ الله في العُمر أطالَه على طاعته أو جمع فيه الخيرَ الكثيرَ، وإذا باركَ الله الصحةَ حَفِظَها لصاحِبها، وإذا باركَ في المال نَمّاه وكثَّرَه، وأصلحَه وثمَّره، ووفَّق صاحبَه لصرفه في أمور الخير وأبواب الطاعة، وإذا باركَ الله في الأولاد رُزِق بِرَّهم وهداهم وأصلَحَهم، وإذا باركَ الله في الزوجة أقرَّ بها عينَ زوجها؛ إن نظرَ إليها سرَّتْه، وإن غابَ عنها حفِظَتْه. وإذا باركَ الله في العمل امتدَّ أثرُه، وعظُم نفعُه وبِرُّه، وما باركَ الله الأعمالَ بمثلِ الإخلاصِ لله ومُتابعة النبي ﷺ.

قال ابن القيم - رحمه الله: «وكلُّ شيءٍ لا يكونُ لله فبركتُه منزوعةٌ؛ فإن الله تعالى هو الذي تباركَ وحده، والبركةُ كلُّها منه».

وفي الأثر الإلهي: «**يقول الربُّ - تبارك وتعالى: إني إذا أُطِعتُ رضيتُ، وإذا رضيتُ باركتُ، وليس لبركتي نهاية**»؛ أخرجه الإمام أحمد في (الزهد) بسندٍ صحيحٍ إلى وهب بن مُنبِّه[1].

وكم رأى الناسُ من بركة الله في الأشياء والأوقات، والأقوال والأعمال والأشخاص، فيكثُر القليلُ، ويعمُّ النفعُ، ويتَّصِلُ الخيرُ، وتتمُّ الكفايةُ، ويعلُو الرِّضا، وتطيبُ النفوس.

واجبات عملية لجلب البركة:

١- اطلب البركة بأمور عبادية : منها:

أ- **التقوى**: تقوى الله ومراقبته في السر والعلن سبب رئيس في حصول البركة؛ فلهذا قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف].

يقول العلامة السعدي- رحمه الله: «.. لو أن أهل القرى آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً بترك جميع ما حرَّم الله؛ لفتح عليهم بركات من السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأنبت

---

(١) الزهد لأحمد (١/ ٤٧) (٢٨٩).

لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كدٍّ ولا نصب..» اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ [الطلاق].

يقول ابن كثير- رحمه الله: «أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله».

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ أي: ينجيه من كل كرب الدنيا والآخرة، ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ أي: من حيث لا يرجو ولا يأمل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [الطلاق].

قال الواحدي: أي: يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة.

ولو تأملنا حال السلف الذين مُكِّنوا من البركة، فإن الواحد منهم كان له نصيب من تقوى الله في جميع شؤونه؛ ولننظر إلى نموذج واحد منهم وهو شيخ الإسلام ابن تيمية- عليه رحمة الله- حيث يقول عنه تلميذه ابن القيم: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي» أو كلاماً قريباً من هذا.

وقال لي مرة: «لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر؛ أو كلاماً هذا معناه».

ب - **كثرة الاستغفار**: يقول تعالى إخبارًا عن نوح- عليه السلام: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢﴾ [نوح].

يقول القرطبي- رحمه الله: «في هذه الآية والتي في هود دليلٌ على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار» اهـ.

ويقول ابن كثير- رحمه الله: «أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين: أي: أعطاكم الأموال

والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخلَّلها بالأنهار الجارية بينها» اهـ.

وشكا رجل إلى الحسن البصري الجدب، فقال له: «استغفر الله»، وشكا آخر الفقر، فقال له: «استغفر الله». وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له: «استغفر الله». وشكا إليه رجلٌ جفاف بستانه، فقال له: «استغفر الله». فقالوا له في ذلك: أتاك رجال يشكون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار. فقال: ما قلتُ من عندي شيئاً، إن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

ويقول تعالى عن هود أنه قال لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود].

يقول ابن كثير: «أمر هود عليه السلام قومه بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسَّر الله عليه رزقه، وسهَّل عليه أمره، وحفظ شأنه» اهـ.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود].

جـ - التوكل على الله تعالى: يقول عز وجل: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق]، فمن تعلق قلبه بالله- تعالى- في جلب النفع ودفع الضر، وفوَّض إليه أمره، كفاه الله ما أهمَّه، واندفع عنه ما أغمَّه، ورزقه تعالى من كل ما ضاق على الناس.

ويقول النبي ﷺ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً**»(١).

يقول ابن رجب- رحمه الله: «هذا الحديث أصل في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزق.. قال بعض السلف: توكل تُسَق إليك الأرزاق بلا تعب ولا تكلف».

والتوكل على الله هو إظهار العجز والاعتماد عليه وحده، والعلم يقيناً أن لا

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٤) وصححه الألباني.

فاعل في الوجود إلا الله، وأن كل موجود من خلق ورزق، وعطاء ومنع، وضر ونفع، وفقر وغنى، ومرض وصحة، وموت وحياة، وغير ذلك مما يطلق عليه اسم الموجود- من الله تعالى.

٢- صلة الرحم :

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ سَرَّه أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره؛ فليصل رحمه»**(١).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن أَحب أن يُبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره؛ فليصل رحمه»**(٢).

وعن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: **«مَنْ سرَّه أن يمدَّ له في عمره، ويوسَّع عليه في رزقه، ويدفع عنه ميتة السوء؛ فليتق الله، وليصل رحمه»**(٣).

٣- قراءة القرآن وحفظه وتطبيق أحكامه :

تلاوة وحفظاً وتطبيقاً للأحكام، روى الإمام مسلم في صحيحه عن أَبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **«اقْرَؤوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»**(٤).

٤- الصدق في البيع والشراء:

عن حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ- رَضِيَ الله عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا- أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا- فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»**(٥).

وما دمت صادقا فلا تكثر من الحلف لبيع سلعة، فعن أَبي هُرَيْرَةَ- رَضِيَ الله

---

(١) رواه البخاري (٢٠٦٧).

(٢) رواه البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٨٠٤).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٨٧) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر.

(٤) رواه مسلم (٨٠٤).

(٥) رواه البخاري (٢٠٧٩) ومسلم (١٥٣٢).

عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ**»(١).

وجميع معاملات الناس المرئية والمحسوسة وغير المحسوسة مبنية على جودة ما يتعاملون به ويبيعونه: الطبيب يبيع خبرته في معرفة الدواء، فإن أخلص في ذلك وأدى ما عليه كما ينبغي بورك له في عمله وفي رزقه، وكذلك المهندس والمدرس والمحاسب والمحامي والعامل في مصنعه والفلاح في أرضه، لأن إتقان العمل من أسباب البركة.

٥- عدم التعامل بالربا:

فذلك ينزع البركة من المال ومن التجارة، يقول الله عز وجل: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة]، يمحقه، أي: ينقصه ويذهب بركته، ويربي، أي: ينمي ويزيد ويبارك ويضاعف في ثوابها، فعدم مراعاة منهج الله في الاستثمارات يذهب ببركتها، واتباع منهج الله فيها ينميها ويربيها ويبارك فيها.

٦- تطبيق منهج الله في الأمور اليومية، مثال ذلك:

- **الأكل مما يليك**: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ- رَضِيَ الله عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْبَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسَطَ الطَّعَامِ، فَكُلُوا مِنْ حَافَّتَيْهِ، وَلاَ تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِهِ**»(٢).

- **عدم الأكل منفردا**: روى أبو داود بإسناد حسن عن وَحْشِيِّ بْن حَرْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ. قَالَ: «**فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ؟**» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «**فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ**»(٣).

وعَنْ جَابِرٍ- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا، فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى وَلْيَأْكُلْهَا، وَلا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، وَلا يَمْسَحْ يَدَهُ بِالْمِنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٢٠٨٧) ومسلم (١٦٠٦).

(٢) رواه الترمذي (١٨٠٥) وصححه الألباني.

(٣) رواه أبو داود (٣٧٦٤) وابن ماجه (٣٢٨٦) وحسنه الألباني.

(٤) رواه مسلم (٢٠٣٣).

وعنْ أَنَسٍ- رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا أَكَلَ طَعَاماً لَعِقَ أَصَابِعَهُ الثَّلاثَ، قَالَ: وقَالَ: «**إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُمِطْ عَنْهَا الأَذَىٰ، وَلْيَأْكُلْهَا، وَلا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ**» وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقَصْعَةَ، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ الْبَرَكَةُ**»(١).

وعن أبي أُمامةَ- رضي الله عنه- أن النبيَّ ﷺ كان إذا رَفَعَ مائدته قال: «**الحمدُ لله كثيراً طيِّباً مُباركاً فيه، غير مَكفِيّ ولا مُودَّع ولا مُستَغنىً عنه ربّنا**»(٢).

٧- الزواج وتيسير أسبابه وعدم المغالاة في المهور:

فقد قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور]، وكان عمر بن الخطاب يقول: «عجباً لمن لم يلتمس الغنى في النكاح، والله يقول: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾!!».

روى البيهقي بإسناد حسن عن عَائِشَةَ- رَضِي الله عَنْهَا- أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مِنْ يُمْنِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَتَيَسَّرَ خِطْبَتُهَا، وَأَنْ يَتَيَسَّرَ صَدَاقُهَا، وَأَنْ يَتَيَسَّرَ رَحِمُهَا**»(٣).

٨- البكور في كل أمر:

عن علي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**»(٤).

وعن صخر الغامدي- رضي الله عنه- عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**اللهمَّ بارِكْ لأمَّتِي في بكورهم**» قال: فكان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية بعثها أوّل النهار، وكان صخر رجلاً تاجراً، وكان لا يبعث غلمانه إلا من أوّل النهار، فكثر ماله حتى كان لا يدري أين يضع ماله(٥).

٩- الإفطار على التمر:

عن سلمان بن عامر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أفطر أحدكم**

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٤).
(٢) رواه البخاري (٥٤٥٨).
(٣) رواه البيهقي (٧/ ٣٨٥).
(٤) رواه الترمذي (١/ ١٥٣) وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.
(٥) رواه الترمذي (١٢١٢) وابن ماجه (٢٢٣٦) وصححه الألباني.

فليفطر على تمر، فإنه بركة، فإن لم يجد فليفطر على ماء، فإنه طهور»[١].

١٠- السلام على الأهل:

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم، يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك**»[٢].

١١- الإنفاق في سبيل الله تعالى:

قال ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفا**»[٣].

١٢- الإحسان إلى الضعفاء:

عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ابغوني في ضعفائكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**»[٤].

---

(١) رواه الترمذي (٦٥٨) وضعفه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٩٨) وقال: حسن غريب.

(٣) رواه البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠).

(٤) رواه الترمذي (١٧٠٢) وصححه الألباني.

١٦ ـ الغش

ذات ليلة خرج عمر بن الخطاب ﷺ مع خادمه أسلم ليتفقد أحوال المسلمين في جوف الليل، وفى أحد الطرقات استراح من التجوال بجانب جدار، فإذا به يسمع امرأة تقول :

قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه (اخلطيه) بالماء .

فقالت الابنة: يا أُمَّتَاه، وما علمتِ ما كان من عَزْمَة (أمر) أمير المؤمنين اليوم؟!

قالت الأم: وما كان من عزمته (أمره)؟

قالت: إنه أمر مناديًا فنادى: لا يُشَابُ (أي: لا يُخلط) اللبن بالماء.

فقالت الأم: يا بنتاه، قومي إلى اللبن فامْذقيه بالماء، فإنك في موضع لا يراك عمر، ولا منادى عمر .

فقالت الصبيّة: والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء، إن كان عمر لا يرانا، فرب أمير المؤمنين يرانا.

فلما سمع عمر بن الخطاب ذلك، أعجب بالفتاة لورعها ومراقبتها لله رب العالمين. وقال:

يا أسلم، علِّم الباب (أي: ضع عليه علامة)، واعرف الموضع. ثم مضى. فلما أصبح قال: يا أسلم، امضِ إلى الموضع فانظر من القائلة؟ ومن المقول لها؟ وهل لهما من بعل (زوج)؟

فذهب أسلم إلى المكان، فوجد امرأة عجوزًا، وابنتها أم عمارة، وعلم أنْ ليس لهما رجل، ثم عاد فأخبر عمر. فدعا عمر أولاده، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوّجه، ولو كان بأبيكم حَركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية .

فقال عبد الله بن عمر: لى زوجة. وقال أخوه عبد الرحمن: لى زوجة. وقال ثالثهما عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوِّجني .

فبعث إلى الجارية فزوّجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتًا، وولدت هذه البنت ابنة صارت أمًّا لعمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الخامس ﷺ .

إنها أم عمارة بنت سفيان بن عبد الله بن ربيعة الثقفي.

إنه الخوف من الله الذي صنع هذه المرأة، وحصنها من هذه الآفة (الغش) التي تأكل المجتمعات، وتحرمها بركة الأرض والسموات.

الغشَ لغة :

غشّ صدره: انطوى على الحقد والضغينة، وغشّ صاحبه: زيّن له غير المصلحة، وأظهر له غير ما يضمر.

الغش اصطلاحاً:

قال المناوي: الغش ما يخلط من الرديء بالجيد.

قال الكفوي: الغش سواد القلب، وعبوس الوجه، ولذا يطلق الغش على الغل والحقد.

الغش في القرآن والسنة:

لقد ذمَّ الله ﷻ الغش وأهله وتوعدهم بالويل، قال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين].

فهذا وعيد شديد للذين يبخسون- ينقصون- المكيال والميزان، فكيف بحال من يسرقها ويختلسها ويبخس الناس أشياءهم؟! إنه أولى بالوعيد من مطففي المكيال والميزان .

وقد حذر نبي الله شعيب- عليه السلام- قومه من بخس الناس أشياءهم والتطفيف في المكيال والميزان، قال تعالى:﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧﴾ [الأنفال].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ [يوسف].

وقال الله تعالى أيضا في كتابه العزيز: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ

﴿ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٩﴾ [المائدة].

وكذلك حذر النبي ﷺ من الغش وتوعد فاعله، فعن أبي هريرة ﵁: أَنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ على صُبْرةِ طعامٍ فأدْخَل يدَه فيها فنَالَتْ أصابعُه بلَلا، فقَال: «**ما هَذا يا صَاحِبَ الطَّعَام؟**» قال: أَصَابتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله، قال: «**أفَلا جعلْتَهُ فوْقَ الطَّعامِ كي يرَاهُ النَّاس، مَنْ غشَّ فليْسَ منّي**»(١).

وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا**»(٢).

صور الغش:

١- الغش للنفس :

إن أعظم أنواع الغش أن يغش الإنسان نفسه فلا يصدق لها في النصيحة، ولا يقيمها على الدين، ولا يهذبها بالشرع، ولا يزكيها بالهدى، وقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس]؛ فالذي غش نفسه مصيره الخيبة، وعاقبته الخسران: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران].

٢- الغش في النصيحة:

وذلك بعكس الصدق في النصح والإخلاص في التوجيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ﷺ : «**الدين النصيحة**» قالوا: لمن؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»(٣).

ومن النصح للمسلم أن تحب له، وتنصح له بما تحب لنفسك، قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه- أو قال لجاره- ما يحب لنفسه**»(٤).

ولقد أمر جرير بن عبد الله البجلي ﵁ مولاه أن يشتري له فرساً، فاشترى له فرساً بثلاثمائة درهم، وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن، فقال جرير لصاحب

---

(١) رواه مسلم (١٠٢).
(٢) رواه مسلم (١٠١/ ١٦٤).
(٣) رواه مسلم (٥٥/ ٩٥).
(٤) رواه مسلم (٤٥/ ٧١).

الفرس- وانظر إلى النصيحة: فرسك خير من ثلاثمائة درهم، أتبيعه بأربعمائة درهم؟ قال: ذلك إليك يا أبا عبد الله. فقال: فرسك خير من ذلك أتبيعه بخمسمائة درهم؟ ثم لم يزل يزيده مائة فمائة، وصاحبه يرضى وجرير يقول: فرسك خير إلى أن بلغ ثمانمائة فاشتراه بها. فقيل له في ذلك فقال: إني بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم(١).

٣- الغش في البيوع والمعاملات:

إنَّ الغِشَّ كبيرةٌ من الكبائر، ومُحَرَّمٌ أشدَّ التحريم، مُوجِبٌ لِمَقْتِ الله، جالب لسخطه، سبب في عقوبته؛ إنه أكل للمال بالباطل، وإنباتٌ للجسم من الحرام والسحت، وأيما جسم نبت من حرام فالنار أولى به.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾ [النساء].

ويقول ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، ولا يحل لمسلم باع من أخيه بيعا فيه عيب إلا بينه له**»(٢)، ويقول ﷺ: «**مَن غَشَّنَا فليس منا، والمكر والخداع في النار**»(٣).

ويبين ﷺ أن كتم العيب في السلعة والكذب في البيع مَحْقٌ للبركة، قد يربح المرء، ولكنه ربح منزوع البركة، قليل الثمرة، كبير الإثم، فيقول: «**البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإنْ صدق البيِّعان وبيَّنا بورك لهما في بيعهما؛ وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا، ويمحقا بركة بيعهما**»(٤).

ومر ﷺ على رجل وبين يديه صبرة طعام يبيعها وقد حسَّنَها، فأدخل ﷺ يده فيها فنالت أصابعه بللا؛ فقال: «**ما هذا يا صاحب الطعام؟**» قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «**أفلا جعلتَه فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني**»(٥).

ومن صور الغش في البيوع: بخس الكيل والميزان. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين]. عن ابن

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٣٩٥).
(٢) رواه ابن ماجه (٢٢٤٦) وصححه الألباني.
(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٠٢٣٤) وابن حبان في صحيحه (٤٩٠٣).
(٤) رواه البخاري (٢٠٧٩) ومسلم (١٥٣٢/ ٤٧).
(٥) رواه مسلم (١٠٢).

عباس -رضي الله عنهما- قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا- يعني: أهل المدينة- فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ فأحسَنوا المكيال بعد ذلك(١).

ومن صور الغش في البيوع: إنفاق السلعة بالحلف الكاذب، قال ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، فذكر منهم: رجلا باع رجلا سلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدَّقه وهو على غير ذلك**»(٢).

قال الإمام الشعبي -رحمه الله: إن رجلا أقام سلعته أول النهار، فلما كان آخره جاء رجل يساومه فحلف: لقد منعها أول النهار من كذا وكذا، ولولا المساء ما باعها منه، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٧﴾ [آل عمران].

ما أكثر ما تسمع اليوم: والله لقد جاني فيها كذا وكذا! والله لو غيرك ما يأخذها بهذا المبلغ! والله ما أعطيتك بهذا السعر إلا استفتاح الصباح! إلى غير ذلك من أنواع الحلف الكاذب، والغش الفاضح.

ومن صور الغش في البيوع: التناجش، وهو نوع من أنواع المكر والختل والخديعة، وهو بمعنى: أن يزيد الزجل في ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها، ولكن ليسمعه غيره فيزيد بزيادته، وقد نهى ﷺ عن النجش وقال: «**لا تناجشوا**»(٣)؛ فهو حرام وخداع، وتغرير بالمشتري، وأي مال أو ربح حصل عن طريقه فهو مال حرام، وكسب باطل.

أرسل عمر بن عبد العزيز ﷺ عاملا له يبيع له بيعا،فلما باعه وعاد قال: لولا أني كنت أزيد فأنفقه لكان كاسدا. فقال له عمر: هذا بخس لا يحل. فبعث مناديا ينادي: إن البيع مردود، وإن البيع لا يحل.

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٢٣) وحسنه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٢٦٧٢، ٧٢١٢) ومسلم (١٠٨/ ١٧٣).
(٣) رواه مسلم (١٤١٣/ ٥٢).

إن أمة يشيع فيها الغش، ويكثر فيها الخداع، ويظهر فيها الكذب، لهي أمة معرضة للسخط، بعيدة عن التوفيق، محرومة من النجاح، تُعاقَب في الدنيا قبل الآخرة، تحل بها الكوارث، وتنزل بها المصائب، ويسلط عليها الأعداء.

يقول ﷺ: «خمس خصال إذا ابتليتم بهن- وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط فيعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا» - وتأمل اليوم: الزهري والسيلان والإيدز والسرطان وتليف الكبد وغيرها- «ولم ينقصوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان؛ ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا؛ ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»(١).

٤- الغش في الوظيفة:

وذلك يكون من الموظف بالتقصير في وظيفته، وعدم القيام بحقها، وعدم الصدق والنصح لمن وضعه فيها، وأقامه عليها؛ ويكون الغش باختيار الموظف أيضا، وذلك بعدم النصح في اختياره، وإسناد الأمر إليه وهو ليس أهلا له، ولا مستحقا إياه. وصور الغش في الوظائف كثيرة: الغش في عدم العدل بين الموظفين، الغش في الترقيات، الغش في الترشيحات، الغش في النقولات، الغش في المسابقات، الغش في التقارير.

٥- الغش في المدارس:

وذلك بإعطاء الطالب ما لا يستحق، وتقديمه على من هو أفضل منه، أو إخباره بالأسئلة، والذي يفعل ذلك يغش نفسه، ويغش المدرسة، ويغش الطالب، ويغش الدولة، ويغش الأمة؛ ويكون كذلك من الطالب الذي يغش في الامتحان، فكلها من الغش المحرم، ومَن غشنا فليس منا.

٦- الغش للرعية:

وهذا من أعظم أنواع الغش، ومن أشدها عقوبة، وأكثرها حرمة، وأكبرها

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩) وحسنه الألباني.

خطرا؛ يقول ﷺ: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**»[1]؛ وهي تشمل كل راع: الوالي في ولايته، والرئيس في رئاسته، والمدير في إدارته، والرجل في بيته ومع أهله وأبنائه، والمرأة في بيتها ومع زوجها وأبنائها.

والغش للرعية من كبائر الذنوب، وغش الرعية يكون بعدم حكمهم بما أنزل الله، وترك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وعدم إعطاء كل ذي حق حقه، وعدم النصح لهم، وعدم إحسان تربيتهم، وإقامة العدل فيهم، و«**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال].

إن الغش يجمع أسوأ الصفات، وأقبح المعاصي، فهو يجمع الكذب والبهتان، والزور، والخداع، والمكر، والاحتيال، والنَّصْب، وخيانة الأمة، والتغرير، وأكل المال بالباطل، وعدم الرضا بقدر الله وما قسم من الرزق، إلى غير ذلك، من ذميم الأخلاق، وسيئ الخصال، فهو ظلمات بعضها فوق بعض- أجارنا الله وإياكم منه، وحفظنا بألا تكون من أربابه.

مضار الغش:

ولقد حرم الإسلام الغش لما له من مضار كثيرة، منها:

١- أن الغش طريق موصل إلى النار .

٢- أنه دليل على دناءة النفس وخبثها، فلا يفعله إلا كل دنيء نفسٍ هانت عليه، فأوردها مورد الهلاك والعطب .

٣- البعد عن الله وعن الناس .

٤- أنه طريق لحرمان إجابة الدعاء .

٥- أنه طريق لحرمان البركة في المال والعمر .

٦- أنه دليل على نقص الإيمان .

(١) رواه البخاري (٦٧١١) ومسلم (١٤٢/ ٢٢٧).

(٢) سبق تخريجه.

٧- أنه سبب في تسلط الظلمة والكفار.

قال ابن حجر الهيثمي: «ولهذه القبائح- أي: الغش- التي ارتكبها التجار والمتسببون وأرباب الحرف والبضائع سلط الله عليهم الظلمة فأخذوا أموالهم، وهتكوا حريمهم، بل وسلط عليهم الكفار فأسروهم واستعبدوهم، وأذاقوهم العذاب والهوان ألواناً. وكثرة تسلط الكفار على المسلمين بالأسر والنهب، وأخذ الأموال والحريم إنما حدث في هذه الأزمنة المتأخرة لـمّا أن أحدث التجار وغيرهم قبائح ذلك الغش الكثيرة والمتنوعة، وعظائم تلك الجنايات والمخادعات والتحايلات الباطلة على أخذ أموال الناس بأي طريق قدروا عليها، لا يرقبون الله المطلع عليهم»[1].

واجبات عملية:

١- مراقبة الله ﷻ: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد]. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر]. وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٣٥﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ۝٥٢﴾ [الأحزاب].

في حديث جبريل: «**قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.... فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[2].

يقول الحافظ ابن القيم- رحمه الله- في نونيته: وهو الرقيب على الخواطر واللواحظ كيف بالأفعال والأركان يعلم خطرات النفوس ولحظ العيون كيف بالحركات والأفعال الظاهرة.

٢- اعلم أن الدنيا فانية، وأن الحساب واقع، وأن العمل الصالح ينفع الذرية، والعمل السيئ يُؤثّر فيها:

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء].

---

(١) الغش لزاهر الشهري.

(٢) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٨/ ١).

٣- أن تقول إذا خفت من الغش: «لا خلابة»:

فقد كان أحد الصحابة-رضي الله عن الصحابة أجمعين- يُخدَع في البيوع، فاشتكى إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «**إِذَا بايعْتَ فقُلْ: لا خِلابَة**»(١)، والخِلابة: هي الخديعة.

٤- الوقوف على أجر الصدق والصادقين:

فعَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِى سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «**التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ**»(٢).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما: «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة»(٣).

وعن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ قال: «**أطيب الكسب كسب التجار، الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يندموا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم يعسروا**»(٤).

وعن رفاعة بن رافع قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المصلى فوجد الناس يتبايعون، فقال: «**يا معشر التجار**»، فاستجابوا لرسول الله ورفعوا أعناقهم وأبصارهم، فقال: «**إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا، إلا من اتقى الله، وبرَّ، وصدق**»(٥).

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يحب سَمْح البيع، سَمْح الشراء، سَمْح القضاء**»(٦).

وعن رافع بن خديج ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، أي الكسب أطيب؟ قال:

(١) رواه البخاري (٢١١٧) ومسلم (١٥٣٣/ ٤٨).
(٢) رواه الترمذي (١٢٠٩) وضعفه الألباني.
(٣) رواه ابن ماجه (٢١٣٩) وضعفه الألباني.
(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٥١٣).
(٥) رواه الترمذي (١٢١٠) وضعفه الألباني.
(٦) رواه الترمذي (١٣١٩) وصححه الألباني.

«كسب الرجل بيده، وكل بيع مبرور»[١].

٥- إتقان العمل والعلم بأصول ولوائح المهنة:

حتى لا تقع في الغش دون أن تدرى، فعَنْ عَائِشَةَ- رَضِيَ الله عَنْهَا- قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الله تَعَالى يُحِبّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ**»[٢].

وقال ﷺ: «**يؤمهم أقرؤهم لكتاب الله ..**»[٣]. فلتكن إماما في مهنتك.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٤١) وقال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٤٩٢٥).

(٣) رواه البخاري معلقا فوق حديث (٦٩٢).

١٧ـ النصيحة

عن إبراهيم بن جرير البجليِّ عن أبيه، قال: غَدا أبو عبدالله- أيْ: جرير- إلى الكناسة؛ لِيَبتاع منها دابَّة، وغدا مولًى له، فوقف في ناحية السُّوق، فجعلت الدوابُّ تمرُّ عليه، فمرَّ به فرسٌ، فأعجبه، فقال لمولاه: انطلق فاشترِ ذلك الفرس، فانطلقَ مولاه، فأعطى صاحبه به ثلاثمائة درهم، فأبى صاحبُه أن يبيعه، فقال: هل لك أن تنطلق إلى صاحبٍ لنا ناحيةَ السُّوق؟ قال: لا أُبالي، فانطلقا إليه، فقال له مولاه: إنِّي أَعطيتُ هذا بفرسه ثلاثمائة درهم، فأبى، وذكر أنه خيرٌ من ذلك، قال صاحب الفرس: صدَق، أصلحك الله، فترى ذلك ثمنًا؟ قال: لا، فَرَسُك خير من ذلك، تبيعه بخمسمائة؟ حتى بلغ سبعمائة درهم، أو ثمانمائة، فلما أن ذهب الرجل أقبل على مولاه، فقال له: ويحك! انطلَقْت لتبتاع لي دابَّة، فأعجبتني دابَّةُ رجل، فأرسلتُك تشتريها، فجئتَ برجلٍ من المسلمين تقوده، وهو يقول: ما ترى؟ ما ترى؟ وقد بايعتُ رسولَ الله ﷺ على النُّصح لكلِّ مسلم(١).

إنها النصيحة.. أخذ النبيّ ﷺ البيعةَ عليها من جرير بن عبد الله- رضي الله عنه- قَالَ: «بَايَعْتُ رسولَ الله ﷺ عَلَى إقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»(٢).

إنها النصيحة.. الخلق الرائع التي لا يمكن لأي إنسان أن يستغني عنها في جميع مواقعه ومواقفه، فيحتاج إليها الحاكم في سياسته وإدارة شؤون أمته، ويحتاج إليها رب الأسرة في إدارة أسرته، ويحتاج إليها المعلم والمربي في تعليمه وتربيته، ويحتاج إليها الداعية في تبليغ دعوته.

النصيحة لغة:

هي تخليص الشيء من شوائبه، فيقال: نصح العسل إذا صفَّاه من شمعه، أو سد الخلل، ونصح الرجل ثوبه: إذا خاطه وسد خلله.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٣٣٤) (٢٣٩٥).

(٢) رواه البخاري (٥٧) ومسلم (٥٦/ ٩٧).

النصيحة اصطلاحا:

قال أبو عمرو بن الصلاح: إنها كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وعملاً. وقال الخطابي: النَّصِيحَة: كلمة جامعة معناها: حيازة الحظ للمنصوح له. وقال الجرجاني: النصح: إخلاص العمل عن شوائب الفساد. والنَّصِيحَة: هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد.

النصيحة في القرآن والسنة:

أخبر القرآن الكريم أن النصيحة وظيفةٌ من وظائف الأنبياء؛ قال تعالى على لسان نوحٍ قولَه لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف]، وقال سبحانه على لسان هود: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف]، وقال سبحانه على لسان صالِح: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾[الأعراف: ٧٩]، وقال سبحانه على لسان شعيبٍ: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾[الأعراف: ٩٣].

وأخبر القرآن الكريم أن النصيحة دليلٌ على الخيريَّة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقد روي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: «لا خيرَ في قومٍ ليسوا بناصحين، ولا خير في قوم لا يحبُّون الناصحين»، فالنصيحة دليلٌ على خيريَّة القائمين بها، وعلى خيرية المستجيبين لها.

وأخبر الرسول ﷺ أن النصيحة دليل الإيمان، وحب المسلم لأخيه؛ فعن أنس- رضي الله عنه- عن النَّبيّ ﷺ، قَالَ: «**لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١)، وقال الحارث المحاسبيُّ- رحمه الله: «اعلم أنَّ مَن نصحك فقد أحبَّك، ومن داهنك فقد غشَّك، ومن لم يَقبل نصيحتك فليس بأخٍ لك».

وأن القائمين بالنصيحة خُلَفاء الله في أرضه؛ قال الحَسَنُ البصريُّ- رحمه الله: «ما زال لله ناسٌ يَنصحون لله في عباده، ويَنصحون لعباد الله في حقِّ الله عليهم، ويَعملون له في الأرض بالنَّصيحة، أولئك خُلفاء الله في الأرض».

---

(١) رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

النصيحة لمن تكون؟

عن أَبي رُقَيَّةَ تَمِيم بن أوس الداريِّ- رضي الله عنه: أَنَّ النَّبيّ ﷺ قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحةُ**» قلنا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لله، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[١].

الصِّنف الأول: (لله): وكيف تكون النَّصيحة لله؟ تكون: بالإيمان به حقَّ الإيمان، وأنَّ له الأسماءَ الحسنى، والصفاتِ العُلى، ونفي جميع العيوبِ والنَّقائص عنه، والقيام بأداء فرائضه، واجتناب مَحارمه، والاعتراف بنِعَمِه، والقيام بِشُكرها.

الصنف الثانِي: (لكتابه): وذلك بالإيمان بأنَّه كلامُ الله، وأنه محفوظٌ من التَّبديل والتغيير إلى قيام الساعة، وأنه ناسخٌ لِجميع الكتب المتقدِّمة، وتحكيمه في كلِّ صغيرة وكبيرة، وتعلمه وتعليمه، وتحكيمه، وحفظ حدوده وحروفه.

الصنف الثالث: (لرسوله): وذلك بالتصديق برسالتِه، وأنَّه أفضلُ الأنبياء والمُرسَلين، وخاتَمُ النبيِّين، وطاعته- عليه الصَّلاة والسَّلام- في أمره ونَهْيه، ونُصرته حيًّا وميتًا، ومُعاداة مَن عاداه، ومُوالاة من والاه، وإحياء سُنَّتِه، وبَثِّ دعوته، ونشر شريعته، ونفي التُّهمة عنه، ومَحبَّة أهل بيته وصحابته، ومُجانبة مَن ابتدع في دينه.

الصنف الرابع: (لأئمَّة المسلمين): والمقصود بأئمة المسلمين هنا طائفتان:

الأولى: وُلاة أمر المسلمين الحُكَّام العدول: وتكون النَّصيحة لهم بإعانتهم على الحقِّ، وطاعتهم في طاعة الله، ودفع الظُّلم عنهم، وجمع الكلمة عليهم ما داموا قائمين بأمر الله.

الثانية: العلماء: وتكون النَّصيحة لهم بِنَشر علمهم، وإحسان الظنِّ بِهم، وتقديرهم واحترامهم، وإعطائهم حقوقَهم، والدِّفاعِ عنهم، وغير ذلك.

الصنف الخامس: (عامَّتِهم): وذلك بِتَعْبيدهم لِخالقهم، وتعليمهم ما يَنفعهم، وتَحذيرهم مِمَّا يضرُّهم، وكفِّ الأذى عنهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، والدِّفاع عن أموالِهم، وأعراضهم، وحُبِّك لهم ما تُحِبُّ لنفسك، وما أشبه ذلك.

ما ينبغي أن يفعله المسلم قبل إسداء النصيحة:

إذا أردتَ أن تكون نصيحتُك مقبولةً ونافعة، وتؤتي ثِمارَها، فعليك بالتأدُّب

---

(١) سبق تخريجه.

بآدابها، ومن أهمِّها ما يأتي:

أوَّلاً: التأدُّب بآداب النصيحة التي سبق ذِكْرُها.

ثانيًا: التثبُّت والتأكُّد من أن الشخص المرادَ نُصْحُه قد وقع منه الخطأ والزَّلل فعلاً.

ثالثًا: القُدوة الحسنة: وذلك بأن يكون الناصح عاملاً بِما يأمر الناسَ به، وتاركًا لِما يَنهى الناسَ عنه. قال أبو بكر الآجُرِّي- رحمه الله: «ولا يكون ناصحًا لله ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامتهم إلاَّ مَن بدأ بالنصيحة لنفسه، واجتهدَ في طلب العلم والفقه؛ لِيَعرف به ما يجب عليه، ويَعلم عداوة الشَّيطان له، وكيف الحذَرُ منه، ويعلم قبيحَ ما تَميل إليه النَّفسُ؛ حتَّى يُخالفها بعِلم».

رابعًا: إشعار المنصوح بالشَّفقة والمحبَّة، فذلك هَدْيُ الأنبياء- عليهم السَّلام- فقد كانوا يقولون لأقوامهم: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، ويدخل في ذلك: الابتسامةُ الصَّادقة في وجه المنصوح قبل نصيحته، والكلمةُ الطيبة، والثَّناءُ عليه، وتعديدُ مَحامِدِه، أو الهديَّة.

خامسًا: إنزال الناس منازِلَهم، وذلك باتِّخاذ الأسلوب المناسب معهم، فكما هو معلومٌ أنَّ الناس ليسوا على درجةٍ واحدة، بل هم درجاتٌ متفاوتة، فيتَّخِذ مع كلِّ واحد أسلوبًا يناسبه؛ فإمام المسلمين يسلك في نصحه أسلوبًا مناسِبًا لمقامه، والعالِمُ يَسلك في نصحه أسلوبًا يناسبه، والأب والأم يتَّخذ معهما أسلوبًا يناسبهما ويليق بِهما، والجاهل يتخذ معه أسلوبًا يفيده، والمعانِد يتخذ معه أسلوبًا يليق به... وهكذا.

سادسًا: المصداقيَّة في النصيحة؛ قال تعالى حاكيًا عن فرعون أنَّه قال لقومه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر]، فظاهِرُ قوله أنَّه صادقٌ في نصح قومه، وأنَّه يرشِدُهم إلى ما فيه نفعُهم! ولكنَّه في الحقيقة كاذبٌ دجَّال؛ حالُه كحال إبليس اللَّعين حينما قال لأبينا آدمَ وأُمِّنا حوَّاء: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف]، وهو أكذب الكاذبين!

نماذج رائعة من نصائح السلف :

لقد سطر لنا تاريخُنا الإسلامي الزاهر نماذِجَ رائعةً في أخذ السَّلف بالأسلوب المؤثِّر في قبول النَّصيحة، والاستجابة لَها، وإليك بعضًا من تلك النَّماذج الفريدة:

* يُروى أن الحسنَ والحسين- رضي الله عنهما - رأَيا رجلاً كبيرًا في السنِّ يتوضَّأ، وكان لا يُحْسِن الوضوء، فأرادا تعليمَه، فذهبا إليه، فادَّعيا أنَّهما قد اختلفا: أيُّهما حسَنُ الوضوء أكثر مِن أخيه؟ وأرادا مِنه أن يَحكم بينهما، فأمر أحدَهما بالوضوء، ثم أمر الآخر، ثم قال لهما: أنا الذي لا أعرف الوضوء، فعَلِّماني إيَّاه!

* وعن أبي جحيفة، قال: آخى النَّبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أمَّ الدرداء متبذِّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا فقال: كلْ، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم. فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم. فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن. فصليا، فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فأتى النَّبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النَّبي ﷺ: «**صدق سلمان**»[١].

- وعن علقمة قال: كنَّا جلوسًا مع ابن مسعود، فجاء خبَّاب فقال: يا أبا عبد الرحمن، أيستطيع هؤلاء الشباب أن يقرؤوا كما تقرأ؟ قال: أمَّا إنك لو شئت أمرت بعضهم يقرأ عليك. قال: أجل. قال: اقرأ يا علقمة، فقال زيد بن حدير أخو زياد بن حدير: أتأمر علقمة أن يقرأ وليس بأقرئنا؟! قال: أما إنَّك إن شئت أخبرتك بما قال النَّبي ﷺ في قومك وقومه، فقرأت خمسين آية من سورة مريم، فقال عبد الله: كيف ترى؟ قال: قد أحسن، قال عبد الله: ما أقرأ شيئًا إلا وهو يقرؤه، ثم التفت إلى خبَّاب وعليه خاتم من ذهب فقال: ألم يأن لهذا الخاتم أن يلقى؟ قال: أما إنك لن تراه عليَّ بعد اليوم فألقاه.

واجبات عملية:

١ - الإخلاص لله تعالى:

وذلك بأن يَقصد النَّاصِحُ بنصحه وجْهَ الله- عزَّ وجلَّ - لقوله الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ [البينة].

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٨).

٢ - الرفق واللِّين:

ينبغي للناصح أن يتحلَّى بالرفق واللِّين؛ كما يقول النبيُّ ﷺ: «**ما كان الرِّفقُ في شيء إلاَّ زانه، وما نزع من شيء إلاَّ شانه**»(١).

وقد نفى الله عن نبيِّه الغلظةَ والشِّدة، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩].

ورفق ولين الرسول ﷺ بالشابِّ الذي جاءه يَستأذنه في الزِّنى، فما كان منه- عليه الصَّلاة والسَّلام- إلاَّ أن قام بِنُصحه بالرِّفق واللِّين؛ فعن أبي أمامة- رضي الله عنه- أنَّ غلامًا شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا نَبِيَّ الله، تأذن لي في الزِّنى؟ فصاح الناسُ به، فقال النبيُّ ﷺ: «**قرِّبوه، ادْنُ**»، فدنا حتَّى جلس بين يديه، فقال النبيُّ ﷺ: «**أتحبُّه لأمِّك؟!**» فقال: لا، جعلني الله فداك! قال: «**كذلك الناس لا يحبُّونه لأمَّهاتهم، أتحبُّه لابنتك؟**» قال: لا، جعلني الله فداك! قال: «**كذلك الناس لا يحبُّونه لبناتِهم، أتحبه لأختك؟**» قال: لا، جعلني الله فداك! قال: «**كذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم**»، فوضع رسولُ الله ﷺ يده على صدره، وقال: «**اللهم طهِّر قلبه، واغفر ذنبه، وحصِّن فَرْجَه**»، فلم يكن شيءٌ أبغض إليه منه»(٢).

٣- أن تكون النصيحة سرًّا:

لأنَّ النُّصح أمام الناس يولِّد ردودَ أفعال، ورُبَّما لا تقبل النَّصيحة، بل يزداد الأمر سوءًا؛ ولذلك فقد كان سلَفُنا الصالح- رضوان الله عليهم- يَحرصون على النُّصح سرًّا؛ قال بعضهم: «من وعَظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومَن وعظه على رؤوس الناس فإنَّما وبَّخَه».

قال رجل لعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أمام الناس: يا أمير المؤمنين، إنك أخطأت في كذا وكذا، وأنصحك بكذا وبكذا، فقال له علي- رضي الله عنه: «إذا نصحتني فانصحني بيني وبينك، فإني لا آمن عليكم ولا على نفسي حين تنصحني علناً بين الناس».

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٥٦) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات.

وقال الفُضيل بن عياض- رحمه الله: المؤمن يَستر ويَنصح، والفاجر يهتك ويُعيِّر.

وقال الشافعي- رحمه الله: «من وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وزانَه، ومن وعظه علانيةً فقد فضحه وشانه» .

وقال ابنُ حزم: «وإذا نصحْتَ فانصح سرًّا لا جهرًا، وبتعريضٍ لا تصريح، إلاَّ أنْ لا يَفهمَ المنصوحُ تعريضَك، فلا بدَّ من التصريح».

٤ - اختيارُ الأحوال والأزمنة المُناسِبة:

فعلى النَّاصح أن يكون فَطِنًا لبيبًا في اختيار الأحوال والأزمنة المُناسبة، وعليه أن يتقمَّص الفُرَص السَّانحة، فاختيار الحال والزَّمان المناسب من أكبر الأسباب لقبول النَّصيحة، قال ابن مسعودٍ- رضي الله عنه: «إنَّ للقلوب شهوة وإقبالاً، وفترةً وإدبارًا، فخُذوها عند شهوتِها وإقبالِها، وذَرُوها عند فترتها وإدبارها».

١٨ـ الإنصاف

عن أنس قال: إن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- فقال: يا أمير المؤمنين، عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذاً، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه، فقدم، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضربه فجعل يضرب بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين، قال أنس: فضرب والله، لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال للمصري: ضع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني، وقد استفيت منه، فقال عمر لعمرو: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم، ولم يأتني.

هذا هو الإنصاف الذي نَدَرَ في زماننا كما قال الإمام مالكٌ- رحمه الله: «ما في زماننا شيءٌ أقلُّ من الإنصاف»، قال القرطبِيُّ- رحمه الله- وهو من أبناء القرن السَّادس، معلِّقًا على كلام الإمام مالك: «هذا في زمن مالكٍ، فكيف في زماننا اليوم، الذي عمَّ فيه الفساد، وكثُر فيه الطَّغام؟».

وما أكثرَ ما كان الإمام الذهبِيُّ- وهو من أبناء القرن الثامن- يُكرِّر في كتابه «سِيَر أعلام النُّبلاءِ» قولَه: «ولكنَّ الإنصاف عزيزٌ».

ونحن نقول: إذا كان هذا في زمان مالكٍ، وفي زمان القرطبِيِّ، وفي زمان الذهبيِّ، فكيف بزماننا نحن اليوم؟

والإنصاف من أجلِّ نعم الله على العبد، كما قال ابنُ حزم- رحمه الله: «وجدْتُ أفضل نِعَم الله تعالى على المرء، أن يطبعه على العدلِ وحُبِّه، وعلى الحقِّ وإيثاره».

الإنصاف لغة :

الإنصاف والنَّصَفُ والنَّصَفة: إعطاء الرَّجلِ الحقَّ، وأنصف الرجلُ؛ أيْ: عدل.

الإنصاف اصطلاحا:

هو: أن تُعْطي غيْرَك من الحقِّ مثْلَ الذي تُحبُّ أن تأخذه منه لو كنْتَ مكانَه،

ويكون ذلك بالأقوال والأفعال، في الرضا والغضب، مع من تحب ومع من تكره.

قال المناويّ: الإنصاف: هو العدل في المعاملة بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلّا ما يعطيه، ولا ينيله من المضارّ إلّا كما ينيله.

الإنصاف في القرآن والسنة:

الإنصاف هو رأس الأخلاق والقيم، وهو إحدى صفات المؤمنين، ومبدأ أساس من مبادئ الشريعة الإسلامية، ليس فيه استثناء ولا تهاون، أمر الله به في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل].

قال الحسن البصري معلقاً على هذه الآية: «إنّ الله- عزّ وجلّ- جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة. فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه».

قال سفيان بن عيينة: «سئل علي- رضي الله عنه- عن قول الله- عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾، قال: العدل الإنصاف، والإحسان التفضل.

وقال الأحنف بن قيس: الإنصاف يثبت المودة، ومع كرم العشرة تطول الصحبة، وكان يقول: ثلاثُ خِلال تجلب بهن المحبة: الإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدة والانطواء على المودة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء] .

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة] .

وعن أنس عن النّبيّ ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**»(١).

---

(١) رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

قال عمار بن ياسر- رضي الله عنهما: ثلاث من جمعهنّ فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار(١).

وعن المعرور قال: لقيت أبا ذرّ بالرّبذة وعليه حلّة، وعلى غلامه حلّة، فسألته عن ذلك فقال: إنّي ساببت رجلا فعيّرته بأمّه، فقال لي النّبيّ ﷺ: **«يا أبا ذرّ، أعيّرته بأمّه؟ إنّك امرؤ فيك جاهليّة. إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل، وليلبسه ممّا يلبس، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلّفتموهم فأعينوهم»**(٢).

والمسلم مأمور بالإنصاف في التعامل مع زوجته؛ قال النبي ﷺ: **«لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»**(٣).

ومأمور بالإنصاف بين أبنائه؛ يقول النبي ﷺ: **«اتَّقوا الله، واعدِلوا بين أولادِكم»**(٤).

ومأمور بالإنصاف في المكيال والميزان، وإلا فهو دخولٌ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين].

ومن الإنصاف ألا يؤخذ أحدٌ بجَرِيرة غيره، فعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ **«أن نملة قرصت نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملةٌ أهلكت أمة من الأمم تسبح»**(٥).

الإنصاف خلق النبي ﷺ:

الرسول ﷺ، على الرغم من أنّ العاص بن الربيع، وهو زوج ابنته، لم يؤمن به وكفر بما جاء به، ومع ذلك يقول النبي ﷺ عنه: **«لكنا ما ذممناه صهراً»**.

صور وأمثلة من إنصاف الصحابة ـ رضي الله عنهم:

من ذلك ما فعله سيدنا عمر- رضي الله عنه- مع جبلة بن الأيهم الأمير

---

(١) رواه البخاري معلقا فوق حديث (٢٨).

(٢) رواه البخاري (٣٠).

(٣) رواه مسلم (١٤٦٩).

(٤) رواه البخاري (٢٥٨٧).

(٥) رواه مسلم (٢٢٤١).

الغساني الذي جاء مسلماً بأهله وجنده، لكنه وهو يطوف في البيت داس أحد الحجاج من الأعراب على إزاره فسقط وبدت عورته، فأخذت جبلة عزة الجاهلية، وغضب على ذلك الرجل فهشم أنفه، فما كان من الرجل إلا أن تقدم بشكواه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- طالباً إنصافه من جبلة بن الأيهم.

وهنا يظهر العدل والإنصاف جلياً في حكم سيدنا عمر- رضي الله عنه- فلا محاباة عنده، ولا أنصاف حلول، لذا ما كان منه إلا أن خير جبلة بن الأيهم بين الاعتذار من الرجل وإرضائه أو القود، ولكن جبلة لم يرض بهذا ولا بذاك، وأخذه الكبر والعجب، وطلب مهلة ليفكر في الأمر، ثم تسلل في جوف الليل وذهب إلى الروم متنصراً.

فمن عجيب القصص التي سارت بها الركبان أنَّ عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- اشترى فرسًا من رجل من الأعراب، ودفع له ثمنه، ثم ركب فرسه ومضى به، لكنه ما كاد يبتعد طويلاً حتى ظهر فيه عطب عاقه عن مواصلة الجري، فانثنى به عائدًا من حيث انطلق، وقال للرجل: خذ فرسك، فإنه معطوب، فقال الرجل: لا آخذه يا أمير المؤمنين وقد بعته لك سليمًا صحيحًا، فقال عمر: اجعل بيني وبينك حَكَمًا، فقال الرجل: يحكم بيننا شريح الكندي، فقال عمر: رضيت، فلما سمع شريح مقالة الأعرابي، التفت إلى عمر، وقال: هل أخذت الفرس سليمًا يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: نعم، فقال شريح: احتفظ بما اشتريتَ، أو رُدَّ كما أخذت. فقال عمر: «قول فصل، وحكم عدل».

ووَرَدَ أن عليا- كرم الله وجهه- وقد كان أميرا للمؤمنين رأى درعه بيد يهودي يبيعها في السوق، فعرفها- رضي الله عنه- وطلبها من اليهودي، إلا أن اليهودي أنكر وأبى أن يردها، فترافعا إلى القاضي شريح. فقال القاضي لعلي- كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين ألك بينة؟ شهادة اثنين؟ قال نعم: ابني الحسن وغلامي قنبر. قال القاضي: أما قنبر فنعم، وأما الحسن فلا نقبل شهادة الابن لأبيه، ولك يمين اليهودي. فلما انصرفوا دفع اليهودي الدرع لسيدنا علي وقال: هي لك أخذتها منك بعد انصرافك من معركة الجمل. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وما هذه الأحكام إلا أحكام الأنبياء. فأهداها له علي مع فرس بعد إسلامه.

مجالات الإنصاف:

أ - الإنصاف مع النفس:

إنَّ أول ما يبدأ به المنصفُ الحقيقيُّ أن يُنْصِف نفسه من نفسه، يقول ابن القيِّم- رَحِمه الله: «ويَدْخل في الإنصافِ: إنصافُ المرء نفْسَه من نفْسِه، بألا يدَّعي لها ما ليس لها، ولا يُخْبِثها بتدنيسه لَهَا، وتصغيره إيَّاها وتحقيرها بِمعاصي الله- عزَّ وجلَّ- بل ينمِّيها ويُكْبِرها، ويرفَعُها بطاعة الله وتوحيده، وحُبِّه، وخوفه ورجائه».

كيف ننصف أنفسَنا من أنفسِنا؟

والجواب: إن إنصاف النفس من النفس يكون بأمور عديدة:

أولاً: معرفة قدر أنفسِنا، فلا نعطي أنفسَنا فوق حجمها، ولا نرفعها أكثر مما تستحق، لا ننسب لَهَا فوق ما تستحقُّه؛ عُجبًا ورياءً، قال ﷺ: «**الْمُتشبِّع بِما لَم يُعْطَ كلابس ثوبَيْ زور**»(١)، ويقول ﷺ: «**إنَّ مِن أفْرَى الفِرَى- أشَدِّ الكَذِب- أن يُرِيَ عيْنَه ما لم تَر**»(٢).

ثانياً: أن نؤثر مرضاة الله- سبحانه وتعالى- على مرضاة أنفسنا وشهواتنا، وأن نقدم مراد الله على مرادنا، وطاعته على طاعة نفوسنا الأمارة بالسوء، فإن لم نفعل ذلك فإننا لم ننصف أنفسنا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ثالثاً: أن نتمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وأن نقتدي بهما، ونؤثر شرعهما على كل فكر وذوق، وأن نقدم منهجهما على أهواء أنفسنا، فعن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ- رَضِيَ الله عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»(٣)، وأن نحب الله ورسوله أكثر مما نحب أنفسنا التي بين جوانحنا، هذه هي قمة الإنصاف من النفس، فعن أنس قال: قال ﷺ: «**لا يُؤمِنُ أحَدُكُم حَتّى أكونَ أحَبَّ إلَيهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ وَالنّاسِ أجْمَعينَ**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٥٢١٩) ومسلم (٢١٢٩).

(٢) رواه البخاري (٧٠٤٣) ومسلم (٢١٢٩).

(٣) قال النووي في الأربعين النووية حديث (٤١): حسن صحيح.

(٤) رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤).

رابعاً: أن نجمل النفس بالطاعة، ونزينها بالعمل الصالح، ونلبسها لباس التقوى، ونبعدها كل البعد عن دنس المعاصي وموبقات الآثام.

خامساً: إنَّ من أعظم الإنصاف أن يعترفَ المرء بخطئه، وأن يمنع نفسه من الجحود والتكبُّر، فقد ذكر ابن عبد البر بسنده عن محمد بن كعب القرظي قال: سأل رجل عليًّا- رضي الله عنه- عن مسألة، فقال فيها، فقال الرجل: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا، فقال علي- رضي الله عنه: «أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذي علم عليم».

إنصاف الغير:

قال عليٌّ بن أبي طالب- رضي الله عنه: «اجْعلْ نفْسك ميزانًا فيما بَيْنك وبيْن غيْرك، فأحْبِبْ لغيْرك ما تحبُّ لنفْسك، واكْرهْ له ما تكْره لَها، ولا تَظْلمْ كما لا تحب أنْ تُظْلَم، وأحْسنْ كما تحب أنْ يُحْسَن إليْك، واستقبح من نفسك ما تسْتقبِح من غيرك، وارْضَ من الناس بِما ترْضاه لَهُمْ منْ نَفْسك، ولا تقلْ ما لا تَعْلم، وقل ما تعلم، ولا تقلْ ما لا تحبُّ أن يُقال لك».

وقال ابن القيم- رحمه الله: أن تؤدي حقوقهم وألاّ تطالبهم بما ليس لك، وألاّ تحمّلهم فوق وسعهم، ولأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، وأن تعفيهم ممّا تحبّ أن يعفوك منه، وأن تحكم لهم أو عليهم بما تحكم به لنفسك أو عليها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]: نهى الله أن يحمل المؤمنين بغضهم على أن لا يعدلوا، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع أو متأوّل من أهل الإيمان؟ فهو أولى أن يجب عليه ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالما له. [الاستقامة ١/ ٣٨].

وقال سفيان الثوري- رحمه الله: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، ومن لم يحفظ من أخبارهم إلا ما بدر من بعضهم في بعض على الحسد والهفوات والتعصّب والشهوات دون أن يعي بفضائلهم، حرم التوفيق ودخل في الغيبة وحاد عن الطريق.

الإنصاف مع المخالف:

إنّ من سمات المسلم الصادق لزوم الإنصاف مع القريب والبعيد والصديق والعدو؛ وذلك لأن الله أمر بذلك وحثَّ عليه فقال: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾، وقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣] وليس للإنسان إلا البلاغ والدعوة بالتي هي أحسن قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل].

ومن الآداب التي ينبغي أن تراعى مع المخالفين ما يلي:

أولاً: التجرد وتحرّي القصد الحسن والإنصاف عند الكلام على المخالفين، ولا يكون قصده حب الظهور، وقصد التشفي والانتقام، وقصد الانتصار للنفس أو للطائفة التي ينتمي إليها، وإنما عليه أن يقصد الحق أينما كان.

ثانياً: التبيّن والتثبت قبل إصدار الأحكام، ولا ينبغي للمسلم أن يستعجل الحكم على الآخرين بمجرد كلام يسمعه من هذا أو ذاك من الناس الغوغاء وما أكثرهم، بل الواجب هو الوقوف والتريث حتى يتبين الأمر على حقيقته كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾[الحجرات].

ثالثاً: حمل الكلام على أحسن الوجوه، وإحسان الظن بالمسلمين، قال تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾[الحجرات:١٢]، وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إيّاكم والظن؛ فإن الظنّ أكذب الحديث**»(١).

رابعاً: ألا ينشر سيئات المخالف ويدفن حسناته، لما أراد عمر- رضي الله عنه- أن يضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة في قصة الفتح، حيث كتب إلى قريش كتابا يخبرهم بمسير الرسول ﷺ، وهذه تعتبر في نظر القوم خيانة كما قال عمر: دعني أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله وقد نافق، ولكنها كانت من حاطب زلة وقد بيّن عذره وسبب فعلته، فعذره النبي ﷺ؛ لأنّ الرجل كانت له سابقة حسنة كما قال النبي ﷺ: «**إنّه قد شهد بدرا، وما يدريك يا عمر لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدر**

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٣) ومسلم (٢٥٦٣).

فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[١].

خامساً: النقد يكون للرأي وليس لصاحب الرأي، فلا خير في قوم لا يتناصحون، ولا خير في قوم لا يقبلون النصيحة، لأن الدين النصيحة، فعن تميم الدارمي أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[٢].

سادساً: حمل كلام المخالف على ظاهره، وعدم التعرض للنوايا والبواطن، فالأصل في التعامل بين الناس بما ظهر لنا من حالهم، وليس لنا أن نخوض في نواياهم، إلا إذا أفصحوا هم عن نياتهم، وقد علّمنا ذلك النبي ﷺ كما في قصة أسامة بن زيد حينما قتل الرجل بعد أن نطق بالشهادة، فأنكر عليه ذلك النبي ﷺ فقال أسامة: إنما قالها متعوذا، فقال النبي ﷺ: «**هلاّ شققت عن قلبه**»[٣].

وتوجد ثلاثة مواطن إذا عدل فيها الإنسان يصل إلى قمة الإنصاف والعدل، وهي:

١ - أن تعدل مع عدوك.

٢ - أن تعدل مع من هو أضعف منك، امرأة كانت أو إنساناً ضعيفاً.

٣- أن تعدل مع منافسك وقرينك.

لو تحلى الإنسان بالعدل والإنصاف في هذه المواطن الثلاثة، فهو سيكون عادلاً في باقي الأمور؛ لأنّها ستكون أسهل بكثير.

ثمار الإنصاف:

بالإنصاف يشعر الفرد والأسرة والمجتمع بالأمان والرضا والقناعة؛ إذ لا أضر عليهم في حياتهم ومعاشهم وشئونهم كلها من الظلم والجور.. واتباع الهوى بالإنصاف يوثق بالعالِم، ويطمئن إلى القاضي، ويؤخذ من الصحفي، ويركن إلى المسئول، ولا يعد أحد من هؤلاء منصفًا إذا كان لسان حاله يقول:

يومٌ يمانيٌّ إذا لقيت ذا يمن وإنْ لقِيت معديا فعَدْنان

(١) رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) رواه مسلم (٥٥).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٨/ ٢٢٦).

واجبات عملية:

١- اختر آية أو حديثاً أو قولاً مأثوراً من داخل الموضوع، أو متعلقاً بخلق العدل والإنصاف، يكون قد أثر فيك، واجعله شعارك هذا الأسبوع.

٢- جرب بنفسك: ابحث بين أصدقائك أو معارفك أو أسرتك، وكن عادلاً معهم، كن عادلاً مع أولادك في القسمة، وكن عادلاً ومنصفاً مع زوجتك.

٣- **شجع غيرك على خلق العدل والإنصاف**، لتضمن انتشار هذا الخلق بين الناس، وليعم الخير الجميع. وعندما تشجع غيرك يزداد بداخلك الدافع على التطبيق.

٤- **لا تعمم**: إياك والتعميم، فلا يوجد شيء يجعل الإنسان يبتعد عن العدل والإنصاف غير التعميم؛ لأنّ التعميم يجعلك تعمى عن رؤية الناس بحسناتهم وسيِّئاتهم، ولا ترى غير السيِّئات.

٥- **الدعاء**: ادعُ ربك بصدق وإخلاص أن يجعلك عادلاً، ويعينك على الإنصاف مع الناس ومع أهلك ومع نفسك.

وأخيراً، أكثر من دعاء النبي ﷺ: «**واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»(١).

---

(١) رواه مسلم (٧٧١) وأبو داود (٧٦٠) والترمذي (٣٤٢١).

١٩ـ الإسراف

آخَى رسول الله ﷺ بين سلمان وبين أبي الدرداء، فجاءه سلمان يزوره، فإذا أمُّ الدرداء متبذِّلة – تاركة التزين وعلى هيئة غير حسنة–، فقال: ما شأنك يا أمَّ الدرداء؟ قالت: إنَّ أخاك أبا الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار، وليس له في شيء من الدنيا حاجة، فجاء أبو الدرداء، فرحَّب به وقرَّب إليه طعامًا، فقال له سلمان: اطْعَم، قال: إني صائم، قال: أقْسَمت عليك لتفطرنَّ، ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل معه ثم بات عنده، فلمَّا كان من الليل، أراد أبو الدرداء أن يقومَ، فمنَعه سلمان، وقال له: يا أبا الدرداء، إن لجسدك عليك حقًّا، ولربِّك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، صُمْ وأفْطِر، وصلِّ، وائتِ أهلَك، وأعْطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلمَّا كان في وجه الصُّبح، قال: قمِ الآن إن شئتَ، قال: فقاما فتوضَّآ، ثم ركعا، ثم خرجا إلى الصلاة، فدنا أبو الدرداء ليُخبر رسول الله ﷺ بالذي أمرَه سلمان، فقال له رسول الله ﷺ: **«يا أبا الدرداء، إنَّ لجسدك عليك حقًّا مثل ما قال سلمان»**[١]، وفي رواية: **«صدَق سلمان»**.

الإسراف داء قتَّال ينبت أخلاقاً سيئة، ويهدم بيوتاً عامرة، الجبن والظلم من آثاره، وقلَّة الأمانة من نتائجه، والإمساك عن البذل في وجوه الخير من صنائعه.

الإسراف لغة:

قال ابن منظور: السَّرَف والإسراف: مجاوزة القصد، وأسرَف في ماله: عجل من غير قصدٍ، وأمَّا السَّرَف الذي نَهى الله عنه، فهو ما أُنْفِق في غير طاعة الله؛ قليلاً كان أو كثيرًا، والإسراف في النفقة: التبذير...، وقيل: هو مجاوزة القصد في الأكل مما أحلَّه الله.

الإسراف اصطلاحاً:

قال ابن حجر هو: مجاوزة الحد في كل فِعل أو قولٍ، وهو في الإنفاق أشهر.

وقال الإمام القرطبي الإسراف هو: الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد.

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٨) والترمذي (٢٤١٣).

أو هو: مجاوزة حد الاعتدال في الطعام، والشراب، واللباس، والسكنى، ونحو ذلك من الغرائز الكامنة في النفس البشرية.

الإسراف القرآن والسنة:

مدح الله سبحانه وتعالى المحافظين على الوسطية والتوازن وعدهم من عباد الرحمن، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

قال ابن كثير: أي: ليسوا بمبذِّرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بُخلاء على أهليهم، فيقصِّرون في حقِّهم، فلا يكفونهم؛ بل عدلاً خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا.

ونهى الله ﷻ عباده عن الإسراف في النفقة فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف].

وعن عَمْرِو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ**»(١).

وَجَاءَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاجَهْ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا، مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَةٌ**»(٢)، وَزَادَ أَحْمَدُ فِي رِوَايَتِهِ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُرَى نِعْمَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ**»(٣).

وعَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِن بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»(٤).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «كُلْ مَا شِئْتَ، وَاشْرَبْ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ: سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ»(٥).

وقال عطاء بن أبي رباح: نُهوا عن الإسراف في كلِّ شيءٍ.

---

(١) رواه البخاري معلقا فوق حديث (٥٧٨٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٦٠٥) وحسنه الألباني.

(٣) رواه أحمد (٢/ ١٨٢) وحسنه الأرناؤوط.

(٤) رواه الترمذي (٢٣٨٠) وصححه الألباني.

(٥) رواه البخاري معلقا فوق حديث (٥٧٨٣).

وقال ابن كثير: أيْ: ولا تسرفوا في الأكل؛ لما فيه من مضرَّة العقل والبَدَن.

وقد حكي أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال ذات يوم لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان. فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهي قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، وجمع نبينا ﷺ الطب في قوله: «**المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدن ما عودته**»، فقال الطبيب: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا.

وأخبر الله- تعالى- أنه لا يحب المسرفين فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾[الأنعام].

نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس بن شماس الذي قطف ثمار خمسمائة نخلة في يوم واحد، ووزعها على الفقراء والمساكين ولم يترك لأهله شيئاً، فنزلت الآية. وفي ذلك، يقول السدي: معناه: لا تعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء. وقال الزجاج: فعلى هذا لو أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف.

ويقول ابن كثير في تفسيره للآية: معناه: لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف، وقد اختار ابن جرير قول عطاء أنه نهى عن الإسراف في كل شيء.

وحذر الله الأوصياء من الإسراف في أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم في حال فقرهم، قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾[النساء].

يقول الإمام الزمخشري: معنى ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾: لا تفرطوا ولا تسرفوا في إنفاق أموال اليتامى، وتقولوا: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا.

وأمر الله ﷻ بالتوسط والاعتدال وعدم الإسراف في كل شيء، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء]، وهذا هو التوسُّط المأمور به: لا بخل، ولا إمساك، ولا إسراف، ولا تبذير، لكن بين ذلك.

قال ابن كثير: يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيْش، ذامًّا للبخل، ناهيًا عن الإسراف: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي: لا تكن بخيلاً مَنُوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا، ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتُخرج أكثرَ من دَخْلِكَ ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ أي: فتقعد إن بخلت ملومًا؛ يلومك الناس، ويذمُّونك، ويستغنون عنك، ومتى بسطتَ يدك فوق طاقتك، قعدتَ بلا شيءٍ تنفقه؛ فتكون كالحسير، وهي الدابَّة التي عجزت عن السَّيْر.

قال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: ما أنفقت على نفسكَ وأهلِ بيتكَ، في غير سَرفٍ ولا تبذير، وما تصدَّقتَ به، فهو لك، وما أنفقت رياءً وسمعةً، فذلك حظُّ الشيطان.

وقال ابنُ الجَوْزي: «العاقل يدبِّر بعقله معيشته في الدنيا، فإن كان فقيرًا اجتهد في كسبٍ وصناعةٍ تَكُفُّه عن الذُّلِّ للخَلْق، وقلَّل العلائقَ، واستعملَ القَناعة؛ فعاش سليمًا من مِنَن الناس، عزيزًا بينهم، وإن كان غنيًّا، فينبغي له أن يدبِّر في نَفَقَتِه؛ خوفَ أن يفتقر، فيحتاج إلى الذُّلِّ للخَلْق...» إلى آخر ما قال.

وعرض لنا القرآن قصص أقوام أسرفوا وكيف كان حالهم، ومصيرهم الذي صاروا إليه، ومن هؤلاء:

قوم لوط: وهؤلاء أسرفوا على أنفسهم في معصية دنيئة وهي اللواط؛ حيث بين الله قبح أخلاقهم من خلال قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأعراف].

فرعون وملؤه: هذا النوع من الإسراف قد تجاوز كل الحدود؛ لأن الذي حمل لواءه هذا الطاغية الذي ألَّه نفسه وأمر الناس بعبادته، فاستخف قومه فأطاعوه، فطغى وتجبر وأسرف في المعاصي وتكبر، وقد صور المولى سبحانه إسرافه وتعنته في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]. يقول الإمام الخازن في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ يعني: من المجاوزين الحد؛ لأنه كان عبدًا فادعى الربوبية، وكان كثير القتل والتعذيب لبني إسرائيل.

بنو إسرائيل: وصف الله بني إسرائيل بأقبح الصفات وأخسها، وفي مقدمة هذه

الصفات قتل الأنبياء، وقتلهم لبعضهم البعض وقتلهم لغيرهم، وقد وصف الله- سبحانه وتعالى- إسرافهم بقوله: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) ﴾ [المائدة].

يقول الإمام القرطبي: أخبر الله عن بني إسرائيل أنهم جاءتهم الرسل بالبينات، وأن أكثرهم مجاوزون الحد، وتاركو أمر الله.

ويقول سيد قطب: تجاوز بنو إسرائيل حدود شريعتهم- بعد ما جاءتهم الرسل بالبينات الواضحة- وكانوا على عهد رسول الله ﷺ وما يزالون يكثر فيهم المسرفون المتجاوزون لحدود شريعتهم. والقرآن يسجل عليهم هذا الإسراف والتجاوز والاعتداء؛ بغير عذر.

وبين القرآن عقوبة المسرفين في الدنيا والآخرة والتي منها:

- **عدم هدايتهم وإضلالهم:** قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) ﴾ [غافر].

- **ضنك عيشهم :** ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾ [طه].

ويقول الأستاذ سيد قطب: ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه، أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر، وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له، فلم يبصر من آيات الله شيئاً، فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ويحشر يوم القيامة أعمى.

- **تزيين أعمالهم لهم:** ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس].

يقول الإمام النسفي في معنى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ يقول : من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات.

المسرفون هم أصحاب النار: قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر].

المسرفون فئة لا يحبها الله: قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام].

السلف والإسراف:

لم يكنْ مِن هَدْي السلف الصالح الإسرافُ وتضييع الأموال، بل كانوا مقتصدين ينفقون أموالَهم في الحقِّ، ويحفظونها عن الإنفاق فيما لا فائدة فيه؛ قال الحسن- رحمه الله تعالى: كانوا في الرِّحال مخاصيب، وفي الأثاث والثياب مجاديب.

قال الزبيدي: أي: ما كانوا يعتنون بالتوْسعة في أثاث البيت؛ من فُرش ووسائد وغيرها، وفي ثياب اللبس وما يجري مجراها، كما يتوسَّعون في الإنْفاقِ على الأهل.

لقد كانوا- رحمهم الله- مع زُهْدهم وورَعِهم- يعتنون بقليل المال، ولا يحتقرون منه شيئًا، مع اقتصادٍ في المعيشة والنفقة؛ ولذا كانَ القليلُ من المال يكفيهم.

وقد أبصرتْ أمُّ المؤمنين ميمونة- رضي الله عنها- حبَّةَ رُمَّانٍ في الأرض، فأخذتْها وقالتْ: إنَّ الله لا يحبُّ الفسادَ.

وقال أحمد بن محمد البراثي: «قال لي بشرُ بن الحارث- لما بلغه ما أُنفق من تَرِكَة أبينا: قد غمَّني ما أُنفِق عليكم من هذا المال؛ ألا فعليكم بالرِّفْق والاقتصاد في النفقة؛ فلأن تبيتوا جياعًا ولكم مالٌ، أعجبُ إليّ من أنْ تبيتوا شباعًا وليس لكم مالٌ»، ثم قالَ له: «أقْرِئ على والدتك السلامَ، وقُلْ لها: عليكِ بالرِّفْق والاقتصاد في النفقة».

والْتَقَطَ أبو الدرداء ﷺ حبًّا مَنْثُورًا في غرْفةٍ له، وقال: إن مِن فِقْه الرجلِ رِفْقَه في معيشته.

وقال عمر ﷺ: «الخرقُ في المعيشة أخوفُ عندي عليكم من العوزِ، لا يقلّ شيءٌ مع الإصلاح، ولا يبقى شيءٌ مع الفساد»، وأخبارهم في ذلك كثيرة.

صور الإسراف ومظاهره:

لا شكَّ أنَّ الإسراف تتعدَّد صوره ومظاهره، وهو يقع في أمور كثيرة كالمأكل، والمشرب، والملبس، والمركب، والمسكن، وغيرها، ومن هذه الصور:

١- الإسراف على الأنفس بالمعاصي والآثام:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر].

قال القاسمي: ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ «أي: جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والكفر... لا تيأسوا من مغفرته بفعل سبب يمحو أثر الإسراف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي: لمن تاب وآمن. فإنَّ الإسلام يجبُّ ما قبله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: توبوا إليه ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: استسلموا وانقادوا له، وذلك بعبادته وحده وطاعته وحده، بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه».

٢- الإسراف في الأكل، والشبع المفرط:

قال القرطبي: «من الإسراف الأكل بعد الشبع، وكلُّ ذلك محظور. وقال لقمان لابنه: يا بني، لا تأكل شبعًا فوق شبع، فإنك أن تنبذه للكلب خير من أن تأكله».

وقال عمر لابنه عاصم- رضي الله عنهما: «كل في نصف بطنك، ولا تطرح ثوباً حتى تستخلفه، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم».

وقال بعض السلف: «كلُّ العيش قد جرَّبناه، فوجدناه يكفي منه أدناه». ومن كلام الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله: «الدنيا قليلها يجزي، وكثيرها لا يجزي».

٣- الإسراف في الوضوء:

عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ مر بسعد، وهو يتوضأ، فقال: «**ما هذا الإسراف؟!**» فقال: أفي الوضوء إسراف؟، قال: «**نعم، وإن كنت على نهر جارٍ**»(١).

قال ابن القيم: «وكان- أي النبي ﷺ - من أيسر الناس صبًّا لماء الوضوء، وكان يحذِّر أمته من الإسراف فيه، وأخبر أنَّه يكون في أمته من يعتدي في الطهور».

٤- الإسراف في تكاليف الزواج وفي حفلات الزواج:

وذلك بالتوسع في إعداد الولائم، والمغالاة في المهور، والمبالغة في شراء الأقمشة والكماليات الأخرى، عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**كُلُوا**

---

(١) رواه ابن ماجه (٧٠٦٥) وضعفه الألباني.

واشرَبُوا والبِسُوا في غيرِ إسرافٍ وَلا مَخْيلَة»[١].

٥- الإسراف في المرافق العامة:

الإسراف في المرافق العامة مذموم أيضًا كالإسراف في الماء والكهرباء، ويعتبر من إضاعة المال، قال ﷺ: «**إنَّ الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»[٢].

قال المناوي: «إضاعة المال: هو صرفه في غير وجوهه الشرعية، وتعريضه للتلف، وسبب النهي: أنَّه إفساد، والله لا يحب المفسدين، ولأنه إذا أضاع ماله؛ تعرَّض لما في أيدي الناس».

آثار تطبيق خلق الاعتدال وعدم الإسراف على الفرد والمجتمع:

لو طبق كل مسلم وكل أسرة وكل مسئول خلق الاعتدال وابتعد عن الإسراف، لأدى ذلك إلى آثار طيبة منها :

١- الفوز برضا الله في الدنيا والآخرة.

٢- توفير على الأقل ٥٠٪ من النفقات ونفعه ذلك وقت الأزمات.

٣- تجنب وقوع الأسرة في حمل ثقل الديون وحمايتها من مصايد الشيطان والكسب الحرام.

٤- التوفير على ميزانية الدولة الكثير من النفقات لتوجيهها لما هو صالح للبلاد والعباد.

وأخيرًا نذكر أنفسنا جميعاً بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه].

واجبات عملية:

١- دوام النظر في سنة النبي ﷺ:

تحكي أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها - لابن أختها عروة بن الزبير: إنا كنا

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٨٢) وحسنه الأرناؤوط.

(٢) رواه البخاري (١٤٧٧) ومسلم (١٧١٥).

لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، ما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار. قال عروة: فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء[(١)]!

كان فراش رسول الله ﷺ من أُدم، وحشوه من ليف. وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا**»[(٢)].

٢- دوام النظر في سيرة سلف هذه الأمة من الصحابة والمجاهدين:

دخل عمر بن الخطاب على ابنه عبدالله- رضي الله عنهما- فرأى عنده لحماً، فقال له: ما هذا اللحم؟ قال: اشتهيته. قال: أو كلما اشتهيت شيئاً أكلته؟! كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهاه.

وأتى سلمان أبا بكر- رضي الله عنهما- في مرض موته، فقال: أوصني. قال أبو بكر: إن الله فاتح عليكم الدنيا، فلا يأخذن منها أحد إلا بلاغاً.

وكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- وهو على الكوفة يستأذن في بناء بيت يسكنه، فوقّع: ابْنِ ما يسترك من الشمس، ويكنّك من الغيث، فإن الدار دار بلغة.

وحكى ميمون أن رجلاً من بني عبدالله بن عمر استكساه إزارًا قائلاً: قد تخرق إزاري، فقال له عبدالله: اقطع إزارك ثم اكتسه، فكره الفتى ذلك، فقال له: ويحك، اتق الله، لا تكونن من القوم الذين يجعلون ما رزقهم الله تعالى في بطونهم وعلى ظهورهم.

٣- تربية أولادنا على التوسط والاعتدال في كل شيء.

٤- مداومة المحاسبة والمراقبة الذاتية قبل وأثناء الإنفاق والاستهلاك:

إذ يجب أولاً التفكر والتدبر في النتائج المترتبة على الإسراف والتبذير والترف والمظهرية، قال رسول الله ﷺ: «**إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان خيرًا فأمضه، وإن كان غياً فانته عنه**».

٥- تجنب مصاحبة المسرفين والمترفين وتقليدهم التقليد الأعمى المخالف لشرع

(١) رواه البخاري (٢٥٦٧) ومسلم (٢٩٧٢).
(٢) رواه مسلم (١٠٥٥).

الله ﷻ، وملازمة الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، قال رسول الله ﷺ: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[١]، وقال ﷺ: «**لا تصاحب إلاّ مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي**»[٢].

٦- **الالتزام بفقه الأولويات عند الإنفاق وهى**: الضروريات، فالحاجيات، وتجنب الإنفاق على الكماليات قبل استيفاء الضروريات، ولا يجوز الاقتراض إلاّ لضرورة معتبرة شرعاً.

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨) وحسنه الألباني.
(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٢) والترمذي (٢٣٩٥) وحسنه الألباني.

٢٠ ـ الإيجابية

هذا الصحابي الجليل البراء بن مالك عندما رأى استبداد جيش مسيلمة وتحصُّنهم بالحديقة، لم يتردَّد في اتخاذ القرار الذي يراه مناسبًا، حتى وإن كانت حياته هي الثمن لتنفيذ هذه الخطة التي رآها هي الحل الأوحد للتعجيل بانتصار المسلمين؛ فعندما دخل مسيلمة والآلاف المؤلفة معه إلى الحديقة، وأغلقوها عليهم وجعلوا يمطرون المسلمين بنبالهم من داخلها متساقطةً عليهم كتساقط المطر؛ عند ذلك تقدم مغوار المسلمين الباسل البراء بن مالك، وقال: «يا قوم، صفوني على تُرس، وارفعوا الترس على الرماح، ثم اقذفوني إلى الحديقة قريبًا من بابها، فإما أن أُستشهد، وإما أن أفتح لكم الباب. وفي لمح البصر جلس البراء بن مالك على ترس ورفعته عشرات الرماح فألقته في حديقة الموت، فنزل عليهم نزول الصاعقة، وما زال يجالدهم أمام باب الحديقة حتى قتل منهم عشرات الرجال وفتح الباب».

الإيجابية هبة إلهية، ونعمة ربانية، من اتصف بها ارتقى في مدارج الفلاح، ومن سُلبت منه عاش على هامش الحياة، وخمل ذكره، واندثر أمره، وانمحت محاسنه.

الإيجابية لغة:

الإيجابية مصدر صناعي جيء به للدلالة على سرعة التفاعل مع الحدث وحضور البديهة عند اشتجار الأمور وتشابكها، وهي مأخوذة من مادة الفعل «وجب» وفعلها أجاب يجيب إجابة، بمعنى: لبى وأطاع في سرعة وبلا تردد، ومصدر الفعل أجاب: إجابة ومجاوبة.

الإيجابية اصطلاحاً:

الإيجابية عند العرب هي: رؤية الأمور بجانب مشرق وقلب الموازين لصالحك حتى في أحلك الظروف.

وقيل فيها: الإيجابية: أن تتفاعل مع كل ما يدور حولك وتنظر له من زوايا متعددة وتؤثر فيه.

وقيل: الإيجابية: هي أن تبتسم في وسط المشكلة!..

وقيل: الإيجابية أن تتقبل المحيطين بك بعلاتهم، ثم تجد طريقة للتأثير عليهم لتعديل العلات.

الإيجابية: هي أن تنظر لنصف الكأس الممتلئ، وتترك النصف الفارغ!

الإيجابية في القرآن والسنة:

إذا تأملنا القرآن في قصصه وأحداثه، نجده يعرض مجموعة من القصص (قصة حشرة، وقصة طائر، وقصة إنسان)، وكلها تتحدث عن الإيجابية. قصة نملة، وقصة هدهد، وقصة مؤمن.

قصة النملة: النملة فوردت قصتها في سورة النمل، وقد سميت السورة باسمها، يقول جل وعلا: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٧-١٩].

قصة الهدهد: هدهد سليمان- عليه السلام- مثلاً رائعاً في الإيجابية، ذاك الطائر الصغير في حجمه الكبير في همه، العظيم في تفكيره، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ [النمل: ٢٠-٢٤].

قصة المؤمن:

١- مؤمن آل يس، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس].

٢- مؤمن آل فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة].

قال القرطبي: جعلها الله فرقاً بين المؤمنين والمنافقين وهي بإيجابيتهم.

قال الإمام الغزالي: أفهمت الآية أن الذي لا يأمر بالإيجابية وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد خرج من المؤمنين.

أما في السنة ، فقد: أخبر النبي ﷺ أن الإيجابية سبب نجاة المجتمع، قال رسول الله ﷺ: «**مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم. فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا و لم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا**»(١).

وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش: أنه دخل عليها الرسول ﷺ فزعا يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل**» وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٣).

وأخبر النبي ﷺ أن من أسباب هلاك الأمم وأقوى معاول الهدم فيها تعطيل واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو صميم الإيجابية، فقال ﷺ: «**إن من كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل فيهم العامل الخطيئة فنهاه الناهي تعذيرا، فإذا كان من الغد جالسه، وآكله، وشاربه، كأنه لم يره على خطيئته بالأمس، فلما رأى الله تعالى ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض، على لسان داود وعيسى ابن**

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٦).

(٣) رواه مسلم (٤٩/ ٧٨).

مريم، ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون، والذي، نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على أيدي المسيء، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ويلعنكم كما لعنهم»(١).

مواقف إيجابية للرسول ﷺ:

إن الناظر في سيرة الرسول ﷺ يرى الإيجابية واضحة في كل معانيها، من يوم أن كان غلاماً يتيماً إلى حين وفاته- عليه الصلاة والسلام- وربَّى أصحابه على معاني الإيجابية الفاعلة. لقد كان يقول لهم: «**بادروا بالأعمال**». ويقول: «**اغتنم خمساً قبل خمس**». ويقول: «**استعن بالله ولا تعجز**».

وكان يكره أن يرى الرجل بلا عمل، وإذا اشتكى إليه الرجل القوي قلة المال، قال له: «**اذهب فاحتطب**». وكان يشجع عبد الله بن عمر ويقول: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم الليل**».

بل كان يشجع الأعمال الصغيرة ويثيب عليها، حتى تلك التي زهد فيها الناس اليوم ويرونها عملاً قليلاً، كتنظيف المسجد مثلاً، فحينما ماتت تلك المرأة التي كانت تَقُمُّ المسجد وتطيبه بالبخور سأل عنها فأخبر بموتها وغضب لما لم يخبر، فذهب وصلى عليها بعد أن دفنت.

وكان النبي- عليه الصلاة والسلام- يستعمل إيجابية كل صحابي بما هو قادر عليه وبما هو أهل له، حتى صار كل صحابي أمة وحده.

ففي الجانب العسكري استفاد من فكر سلمان الفارسي ﷺ وخلفيته الحضارية فاقترح الخندق، والحباب بن المنذر يقترح الوقوف على الماء يوم بدر، وآخر ينصب المنجنيق في غزوة الطائف، وأبو بصير يخطط لحرب عصابات بعيدًا عن بنود صلح الحديبية.

وأما الجانب الاقتصادي فنرى ذلك الصحابي الذي يؤرقه كثرة أبناء المهاجرين والأنصار، فينقل زراعة القمح إلى الحجاز، وعبد الرحمن بن عوف يصفق بالسوق حتى لا يكون عالة على غيره.

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٣٦، ٤٣٣٧).

وكان النبي ﷺ يحب العمل الإيجابي من كل أحد، فكثيراً ما كان يوجه كلامه إلى الأفراد: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده»، «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**»، «**بلغوا عني ولو آية**، **تبسمك في وجه أخيك صدقة**»، «**سلم على من عرفت ومن لم تعرف**».

الإيجابية في حياة الصحابة والصحابيات:

١ - السيدة خديجة- رضي الله عنها:

فإن أول موقف إيجابي من النساء في حياة النبي حينما ذهبت إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل لتسأله عن هذا الحدث الذي ألم برسول الله ﷺ عندما نزل عليه الوحي ورجع إليها وهو يرتعد ويقول: «دثروني»، فهدَّأت من روعه، وهي تقول له: والله لن يخذيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتكرم الضيف، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر. فلما قصت ذلك المشهد على ورقة بشرها بنبوته ﷺ. كما جاء في البخاري[1].

٢ - موقف الصديق أبي بكر ﷺ:

* كان أول من سارع لطلب الصحبة من الرسول ﷺ، وكان أول من صدق النبي ﷺ في الإسراء والمعراج أمام التشكيك والفتنة التي أحدثتها قريش في الإسراء والمعراج، ويقف موقفا صلبا: إن كان قال فقد صدق.

* وفي هذا الموقف العصيب الذي أذهل العقلاء حتى وإن كان أحد العقلاء الفاروق عمر فعند وفاة النبي ﷺ يقف بسيفه ويقول: من يزعم أن محمدا رسول الله ﷺ قد مات ضربت عنقه بسيفي هذا. موقف حير الحكماء. وقد وقع هذا الحدث على قلوب الصحابة أجمعين كالصاعقة. فيقول الصديق في ثبات: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

* وقبل هذا الموقف موقفه في غزوة أحد عندما شاع مقتل النبي ﷺ كان جوابه رضي الله عنه: قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله.

(١) برقم (٣، ٤٩٥٣).

٣- الفاروق عمر بن الخطاب:

لا يقل عن أبي بكر إيجابية ومسارعة في فعل الخيرات في إسلامه، وفي هجرته وجهره بالدعوة، وفي تحديه لقريش، وفي عبقريته السياسية.

٤- سلمان الفارسي:

يبادر ويشير على النبي ﷺ بحفر الخندق الذي كان سبباً في نصر المسلمين وإعزاز الإسلام.

٥- الحباب بن المنذر:

في مكان الجيش في غزوة بدر قام النبي ﷺ بالجيش عند أدنى ماء من بدر، فقام الحباب وقال: يا رسول الله، أهذا المنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**» فقال: إن هذا ليس بمنزل، فانهض بنا حتى نأتي أقرب ماء من القوم ونغور ما وراءنا، فنشرب ولا يشربون، فيكون ذلك سبباً في هزيمتهم. فكان نعم الرأي.

أهم ما يميز المسلم الإيجابي:

أولاً: أنه يتعامل مع الأحداث والمواقف بحذر، فهو لا يتعجل الأحكام ولا يقدم رأيه إلا بعد تأنٍّ، ولا يصدر عن رأي العلماء، بل يزن الأمور بميزان الشرع، فما وافقها أخذ وما خالفها ترك.

ثانياً: أنه في زمن الفتن، يمسك زمام نفسه ويلجم لسانه عن الإشاعة ويتحرَّى الصدق، يتأمل حكمة الله فيما قدره وكتبه على عباده من الفتن المزلزلة، التي قدرها لحكمة وكتبها لعلم يعلمه سبحانه.

ثالثاً: في المصائب التي منها الموت والمرض والهموم والغموم، يكل المسلم الأمر إلى الله ويحوقل ويسترجع، ولا تقعده المصيبة عن العمل، ولا تقعده الهموم عن بذل الجهد، لعلمه ويقينه أنها قدرت عليه قبل خلق السموات والأرض، ومادام الله تعالى قد كتبها وقدرها فهي حبيبة لنفسه؛ لأن الله هو الذي كتبها عليه .

رابعاً: أهم ما يميز المسلم الإيجابي أنه ذو همة عالية، يرمق أعلى الجنة وهو يعمل، ويتطلع إلى موافقة النبي ﷺ فيما أمر ونهى، ويطمع فوق ذلك كله إلى ذلك اليوم الذي يرى فيه وجه الخالق جل جلاله، حين يكشف الستر عن عباده، (نسأل الله أن

نكون منهم).

واجبات عملية:

قد يقول قائل: إذا كانت الإيجابية بهذه الأهمية، فكيف يكون الطريق إليها؟؟ فأقول له:

١ - النية السليمة الخالصة والعمل الصالح.

٢- الانشغال بتقوية الإيمان من ذكر وصلاة وتلاوة وصدقة وتذكر للآخرين وقيام ليل وصيام نهار.

٣- العلم، وهو علم الدين، وإذا أضيف له علم الدنيا كان خيرًا على خير، خاصة ونحن في عصر القوة العلمية والتقنية.

٤- فرديَّة التكليف؛ وذلك بأن يَستشعِر مسؤوليَّته كفرْد عمَّا أمَر الله ونهَى، وأنه يُحاسَب فردًا، وأنه ومَن حوله مسؤولون مثله، إلا أن القاعدة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء].

إن هذا الإحساس بالمسؤولية يجعل المسلم يقوم بواجبِه نحو ما أمرَه الله به، وإن كان مِن ضمْن واجبات المسلم التزام الجماعة ودعوة الغير، ولكن تَقصير الغير لا يعدُّ مُبرِّرًا لأن يُقصِّر.

٥- الحفاظ على الهمة، بأن يحتفظ المسلم بهمته ولا يضيعها. قال الجنيد رحمه الله: «عليك بحفظ الهمة، فإن الهمة مقدمة الأشياء»، وقال بعضهم: «إذا فتح لأحدكم باب خير فليسرع إليه، فإنه لا يدري متى يغلق عنه».

٦- عدم استِصغار العمل أو النظر إليه على أنه قليل؛ فرُبَّ أمرٍ تراه صغيرًا وهو عند الله كبير وعظيم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**لا تحقرنَّ مِن المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاكَ بوجه طَلْقٍ**»[1]، والقرآن الكريم يُعمِّق ذلك في نفس المؤمن؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة]، فقد كان السلف يرون الأمور على غير ما يَرى الكثير؛ فعن أنس ﷺ قال: «إنكم

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦/ ١٤٤).

لتعمَلون أعمالاً، هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنَّا نعدُّها على عهد رسول الله ﷺ مِن الموبِقات»(١)، فلا تَستصغِر أمرًا مهما كان صغيرًا؛ فقد يكون عند الله كبيرًا.

٧- النظر إلى النتائج والأجْر الكبير؛ فإن الـمُدقِّق في قول الرسول ﷺ: «**فوالله لأنْ يَهديَ الله بكَ رجلاً واحدًا خيرٌ لك مِن حُمر النَّعَم**»(٢)، وقوله ﷺ: «**مَن سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً، فله أَجرُها وأجْر مَن عمل بها مِن بعده، مِن غير أن يَنقُص مِن أجورهم شيء**»(٣)، يَعلم أهمية الإيجابية، فإذا أدرك المسلم أن أداء واجبِه نحو الدِّين يُحقِّق له هذا الأجر العظيم، وجب عليه أن يُسارع.

٨- ألا يُكلِّف النفس ما لا تُطيق؛ فإنَّ تكليف النفس ما لا تُطيق يؤدِّي إلى الفُتور واليأس عند الإنسان؛ قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ ولهذا فعلى المسلم أن يعمل ولا يُحمِّل نفسَه النتائج التي هي بيد الله وحده.

٩- يظل شعور المسلم بالعجز وافتقاره إلى الله تعالى وعونه وتسديده هو العامل المحرك لكل أسباب هذه الإيجابية، فبقدر إظهار ذلك لربه تعالى واستمداد العون منه، بقدر ما ينال التوفيق والإعانة، حتى أنه ربما سن سنناً في الخير لم يسبقه إليها أحد. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾[فاطر] .

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٢).

(٢) رواه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦/ ٣٤).

(٣) رواه مسلم (١٠١٧/ ٦٩).

٢١ـ الاعتذار

عن أبي الدّرداء ﷺ قال: كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه مغضبا، فاتّبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل؛ حتّى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ . فقال أبو الدّرداء- ونحن عنده: قال رسول الله ﷺ: «**أمّا صاحبكم فقد غامر**»، وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتّى سلّم وجلس إلى النّبيّ ﷺ وقصّ على رسول الله ﷺ الخبر. قال أبو الدّرداء: وغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم. فقال رسول الله ﷺ: «**هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إنّي قلت: يا أيّها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعا. فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت**»[(١)].

إن الاعتذار كلمة، لكن لها مفعول السحر على النفوس، تلين بها القلوب الغليظة، ويمحى بها الخطأُ نحو الناس مهما كان، فكم من كلمة أَوقدت حربًا ونارًا، وكم من كلمة اعتذار قصيرة أطفأَت نار حقد وخصام، ولذا فثقافة الاعتذار حاجة ملحة للفرد والمجتمع والأمم، إذا كانت تبغي عيشًا سليمًا، يقوم على الحب والوئام، ويفسد عَلَى الشيطان غرس بذور الشقاق والخصام.

الاعتذار لغة:

هي كلمة تدل على مَعَانٍ كثيرة وَمنها: الْعذر، وهو محاولة الإنسان إصْلاح ما أنكره عليه الآخرون بكلام أو بفعل أو بإشارة.

الاعتذار اصطلاحًا:

هو أن يظْهر الإنسان الندم وأن يتحرى شيئا ما يمحو به أَثر ذنبه.

قال الجرجانيّ: الاعتذار: محو أثر الذّنب.

وقال الكفويّ: الاعتذار: إظهار ندم على ذنب تقرّ بأنّ لك فى إتيانه عذرا.

وقال المناويّ: الاعتذار: تحرّي الإنسان ما يمحو أثر ذنبه.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦١).

الاعتذار في القرآن والسنة:

١- مدح الله آدم؛ لأنه اعتذر عن خطئه، فتاب عليه؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف] في الوقت الذي ذمَّ فيه إبليس لأنه رفض الاعتذار.

لقد ظهر خلق الاعتذار على لسان نوح- عليه السلام- حين قال لربه: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٧٤] فقبل الله عذره وسلم من كل سوء.

وهل التوبة إلى الله والرجوع إليه إلا خلق الاعتذار إلى الله تعالى ليتعلم الناس الاعتذار بعضهم لبعض؟

وجميل أن يعتذر موسى للخضر مرتين ويقول له: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف]، وفي الثانية يقول له: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف].

وفي سورة يوسف: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف] فيه خلق الاعتذار من امرأة العزيز والاعتراف بنزاهته وبراءته، وكذلك حينما اعتذر إخوة يوسف له وقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾[يوسف] وأعادوا الاعتذار لأبيه مرة ثانية فنالوا الاستغفار من أبيهم وأخيهم.

الحوار بين فرعون وموسى- عليه السلام- في سورة الشعراء ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء]. قال ابن عباس والضحاك وغيرهما: ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: من الجاهلين.

موقف النبي ﷺ من عبد الله ابن أم مكتوم، الذي نزلت فيه سورة عبس، قال الثوري: فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول: «**مرحبا بمن عاتبني فيه ربي، هل من حاجة؟**» واستخلفه على المدينة في غزوتين غزاهما.

ويدعونا الله إلى الاعتذار حال وقوع الخطأ: يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ**»(١).

وفي الحديث الصحيح من سنن النسائي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَسْلَمَ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشِّرْكِ، ثُمَّ تَنَدَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ: سَلُوا لِي رَسُولَ الله ﷺ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ فُلانًا قَدْ نَدِمَ، وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَأَسْلَمَ(٢).

ويقول ﷺ: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»(٣).

عَنِ الْمُغِيرَةِ ﷺ قال: قال سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ الله، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ المُبَشِّرِينَ وَالمُنْذِرِينَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ الله، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الجَنَّةَ**»(٤).

الاعتذار خلق النبي ﷺ:

الصحابي سواد يوم بدر:

أما موقف الصحابي سواد الذي لم يكن مستويا في الصف والرسول ﷺ يرص الصفوف صفًا كأنه بنيان مرصوص في أول وأعظم معركة في تاريخ الإسلام

---

(١) رواه الديلمي (١/ ٤٣١) (١٧٥٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٨٤٩).
(٢) رواه النسائي (٤٠٦٨) وصححه الألباني.
(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٥١) وحسنه الألباني.
(٤) رواه البخاري (٧٤١٦) ومسلم (١٤٩٩).

والمسلمين مع الشرك وأهله يوم غزوة بدر، ولما أمره النبي ﷺ بالمحاذاة بالصف، فتململ، فضربه النبي ﷺ على بطنه العارية، فاعترض سواد قائلًا أوجعتني يا رسول الله، فكشف له النبي ﷺ عن بطنه الشريفة قائلا له: «**اقتص مني يا سواد**»، فالتزمه سواد وقبله وبكى(١).

الاعتذار وتشريعات الإسلام:

شرع الإسلام عدة تشريعات؛ هي في حقيقتها اعتذارات، ليغرس بذلك في نفس المسلم خلق وثقافة الاعتذار، فالعبادات مثلًا نجد فيها أمورًا من هذا الباب، فإذا صلى المسلم في صلاته، وسها فيها لانشغاله بعرض من أعراض الدنيا ألهاه، وفقد خشوعه وتركيزه في الصلاة بين يدي ربه، فنسي ركوعا، أو سجودًا، أو ما يكون من شأن الإنسان من نسيان في الصلاة، سَنَّ الإسلام علاجًا لهذا الخلل والخطأ، فشرع (سجود السهو)، وهو اعتذار لله ﷻ من المسلم الذي بدر منه تقصير بنسيان، بزيادة أو نقص، أو تقديم أو تأخير .

والناس في تعاملهم في الحياة العامة كثيرا ما يخطئون، أو يضطرهم أسلوب الحياة الذي أصبح مصبوغا بأسلوب التجارة، وانعدام الثقة بين الناس، فانتشر بين الناس: الإكثار من القسم بالله، رغم نهي الله- عز وجل- عن الإكثار من القسم فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة].

ومن ألوان الاعتذار التي في التشريع الإسلامي: دية القتل الخطأ، فحينما يقوم إنسان بارتكاب حادث طريق مثلا ينتج عنه موت إنسان، فعليه تقديم اعتذار لأهل المتوفَّى، وهو اعتذار في صورة تعويض مادي، اعتذارا منه عن خطئه، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء].

---

(١) راجع كتب السيرة: ابن هشام – البوطي – المباركفوري وغيرها.

الاعتذار خلق الصحابة:

عن أبي الدرداء- رضي الله عنه – قال: كنت جالسا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر». فسلم، وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي، فأبى علي، فأقبلت إليك، فقال ﷺ: «**يغفر الله لك يا أبا بكر**» ثلاثا، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثم أبوبكر؟ فقالوا: لا، فأتي إلى النبي ﷺ فسلم[1]. هذا حديث يدل على أن أبا بكر ذهب إلى عمر معتذرًا، وكذلك فعل عمر- رضي الله عنهما- إنه خلق عظيم لا يتخلق به إلا الكبار.

اجتمع الصحابة في مجلس.. لم يكن معهم الرسول- عليه الصلاة والسلام- فجلس خالد بن الوليد.. وجلس ابن عوف.. وجلس بلال.. وجلس أبو ذر .. وكان أبو ذر فيه حدة وحرارة.

فتكلم الناس في موضوع ما.. فتكلم أبو ذر بكلمة اقتراح: أنا أقترح في الجيش أن يفعل به كذا وكذا.، قال بلال: لا.. هذا الاقتراح خطأ. فقال أبو ذر: حتى أنت يا ابن السوداء تخطئني!!!

فقام بلال غضبانًا أسفًا.. وقال: والله لأرفعنك لرسول الله ﷺ.. واندفع ماضياً إلى رسول الله ﷺ.. وصل للرسول- عليه الصلاة والسلام- وقال: يا رسول الله، أما سمعت أبا ذر ماذا يقول في؟

قال عليه الصلاة والسلام: «**ماذا يقول فيك؟**».

قال بلال: يقول وأخبره بما حدث.. فتغير وجه الرسول ﷺ.. وأتى أبو ذر وقد سمع الخبر.. فاندفع مسرعًا إلى المسجد.. فقال: يا رسول الله.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. قال عليه الصلاة والسلام: «**يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية**» فبكى أبو ذر .. وأتى الرسول ﷺ وجلس .. وقال: يا رسول الله استغفر لي .. سل الله لي المغفرة.. ثم خرج باكيًا من المسجد.. وأقبل بلال ماشيًا.. فطرح أبو ذر رأسه في طريق بلال ووضع خده على التراب.. وقال: والله يا بلال لا

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦١).

أرفع خدي عن التراب حتى تطأه برجلك.. أنت الكريم وأنا المهان..!! فأخذ بلال يبكي.. واقترب وقَبَلَ ذلك الخد، ثم قاما وتعانقا وتباكيا(١).

ولقد ضرب أبو بكر الصديق ﷺ مثلًا رفيعًا في سرعة الفيئة، حين علم أن مسطح بن أثاثة الذي يأكل من نفقة أبي بكر كان قد شارك في اتهام ابنته السيدة عائشة بحديث الإفك، فأقسم أبو بكر ألا ينفق عليه، ونزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور]، فما أن سمع أبو بكر خاتمة الآية حتى صاح: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا(٢).

ثمرات الاعتذار:

* رضا الله ﷻ، فالله- سبحانه- يرضى عن عبده الذي يقف بين يديه معتذرا معترفا بخطئه، وتقصيره في جنب الله، بل يفرح الله لتوبته وأوبته.

* إنهاء الخصومات التي تحدث بين الناس، فكثيرا ما يدخل الشيطان بين الناس بخطأ شخص منهم، أو طرف في حق الطرف الآخر، وبالاعتذار من الطرف المخطئ تنتهي الخصومة، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت].

* إشاعة روح الإخاء، فالمسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يسلمه، و«**مثل المسلمين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، وتآلفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(٣).

قبول الاعتذار:

فالرسول ﷺ حذرنا من عدم قبول اعتذار من اعتذر، فعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اعتذر إلى أخيه فلم يعذر، أو لم يقبل عذره، كان عليه**

(١) رواه البخاري مختصرا (٣٠).
(٢) رواه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠).
(٣) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

مثل خطيئة صاحب مكس»[١].

وقال ابن عمر قال: «تعافوا تسقط الضغائن بينكم».

واجبات عملية:

إن الاعتذار عن الخطأ أمر عسير على النفس، إلا النفس القوية المؤمنة التي تحصنت بقوة إيمانها، ومراقبتها لربها- سبحانه وتعالى. ومما يعين المسلم على أن يكون إنسانًا شجاعًا قويًا على مواجهة أخطائه، والاعتذار عما بدر منه، عدة واجبات عليه أن يقوم بها، ليقويها حتى تكسبه مناعة وقوة ذاتية تجعله قادرًا على أن يبادر بالاعتذار عن خطئه عند وقوعه، منها:

١- معرفة أجر الاعتذار، فربما منع البعض عن الاعتذار عن الخطأ، عدم معرفته بأجر المعتذر، وأن الله يَجُبُ عن المعتذر الذي أخطأ في حق الله ما كان من ذنب، يقول تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان].

٢- إشاعة ثقافة الاعتذار، في زمن عزَّ على الناس أن يقفوا مع أنفسهم وقفة حساب طويلة، وذلك يكون بذكر قصص الأنبياء والمرسلين في اعتذاراتهم، وفي مواقف الصحابة واعتذار بعضهم لبعض، ومواقف الكبار من السلف الصالح، وقبل ذلك كله، بإشاعة نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة التي تحث على الاعتذار، وتبين أجره، وفضله .

٣- مراقبة الله- سبحانه وتعالى- فلو استشعر المسلم أن الله مطلع عليه، وعارف ببواطن أموره وظواهرها، لخاف الله، واستحضر عظمته في قلبه، وعلم أن الله المطلع عليه لا يقبل بأن يتمادى في الخطأ سواء في حق ربه الذي خلقه فسواه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة أو في حق غيره من عباد الله.

٤- ممارسة هذه الخلق في بيوتنا مع الزوج والأولاد والأهل والجيران.

٥- إحياء خلق النصيحة بيننا.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٧١٨) وضعفه الألباني.

٢٢ - البشاشة

عن سعد بن أبي وقّاص- رضي الله عنه- قال: استأذن عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه- على رسول الله ﷺ، وعنده نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه، عالية أصواتهنّ على صوت النّبيّ ﷺ، فلمّا استأذن عمر تبادرن الحجاب، فأذن له النّبيّ ﷺ فدخل والنّبيّ ﷺ يضحك، فقال: أضحك الله سنّك يا رسول الله، بأبي أنت وأمّي. فقال: «**عجبت من هؤلاء اللّاتي كنّ عندي، لمّا سمعن صوتك تبادرن الحجاب**». فقال: أنت أحقّ أن يهبن يا رسول الله. ثمّ أقبل عليهنّ فقال: يا عدوّات أنفسهنّ، أتهبنني ولم تهبن رسول الله ﷺ ؟ فقلن: إنّك أفظّ وأغلظ من رسول الله ﷺ . قال رسول الله ﷺ: «**إيه يا ابن الخطّاب، والّذي نفسي بيده ما لقيك الشّيطان سالكا فجّا إلّا سلك فجّا غير فجّك**»(١).

البشاشة لغة :

هي: طلاقة الوجه، وقد بَشِشْت به، أَبَشُّ بَشَاشَةً، ورجل هَشٌّ بَشٌّ، أي: طَلْق الوجه طيب. ومن معاني البَشّ: اللُّطف في المسألة، والإقبال على الرجل، وقيل: هو أن يضحك له، ويلقاه لقاء جميلاً. تقول: بَشِشْت به بَشًّا وبَشَاشَةً. والبَشِيش: الوجه. يقال: رجل مضيء البَشِيش، أي: مضيء الوجه.

البَشَاشَة اصطلاحا :

هي: سرور يظهر في الوجه يدلّ به على ما في القلب من حبّ اللّقاء والفرح بالمقابلة.

البَشَاشَة في القرآن والسنة:

جعل الله- سبحانه وتعالى- البَشَاشَة وطلاقة الوجه صفة أهل الجنَّة، وهيئتهم التي يكونون عليها في أفضل أحوالهم، فدلَّ دلالة واضحة على أنَّ هذا الوصف ممدوح، وأنَّ هذه الهيئة محمودة.

قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة].

(١) رواه البخاري (٣٢٩٤) ومسلم (٢٣٩٦).

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ من النَّضارة، أي: حسنة بَهِيَّة مشرقة مسرورة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تراه عياناً».

وقال الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس]: «أي: يكون النَّاس هنالك فريقين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي: مستنيرة، ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: مسرورة فرحة، من سرور قلوبهم، قد ظهر البِشْر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنَّة».

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية].

وقال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين].

وقال تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق].

وعن أَنَسٍ قال: قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: رَآنِي رَسُولُ الله ﷺ وَعَلَيَّ بَشَاشَةُ الْعُرْسِ، فَقُلْتُ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «**كَمْ أَصْدَقْتَهَا؟**» فَقُلْتُ: نَوَاةً. وَفِي حَدِيثِ إِسْحَقَ: مِنْ ذَهَبٍ(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، إِلَّا تَبَشْبَشَ الله لَهُ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ**»(٢).

وعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: «**بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ**»، فَلَمَّا جَلَسَ، تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ الله، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ، قُلْتَ لَهُ: كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ، وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؟ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**»(٣).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٥١٦٧) ومسلم (١٤٢٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٨٠٠) وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٦٠٣٢) ومسلم (٢٥٩١).

(٤) رواه الترمذي (١٩٧٠) وصححه الألباني.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»(١).

وفي رواية: «**لا يحقرنَّ أحدكم شيئاً من المعروف، وإن لم يجد، فليَلْق أخاه بوجه طَلِيق، وإن اشتريت لحماً، أو طبخت قدراً، فأكثر مرقته، واغرف لجارك منه**»(٢).

وفي رواية: «**لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً، فإن لم تجد، فلاين النَّاس ووجهك إليهم منبسط**»(٣).

وقال في (دليل الفالحين): «أي بوجه ضاحك مستبشر، وذلك لما فيه من إيناس الأخ المؤمن، ودفع الإيحاش عنه، وجبر خاطره، وبذلك يحصل التَّأليف المطلوب بين المؤمنين».

وقال أيضاً: «أي: متهلِّل بالبِشْر والابتسام؛ لأنَّ الظَّاهر عنوان الباطن، فلُقْيَاه بذلك يُشعر لمحبَّتك له، وفرحك بلُقْيَاه، والمطلوب من المؤمنين التوادُّ والتحابُّ».

أما طلاقة الوجه: فتعني إشراقه حين مقابلة الخلق، وهو ضدُّ العبوس.

البشاشة خلق رسول الله ﷺ:

قالَ عبدُ الله بنُ الحارثِ بن حَزْمٍ- رضي الله عنْهُ: مَا رأيتُ أَحَدَاً أكثرَ تَبَسُّماً مِنْ رسولِ الله ﷺ(٤).

وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ معروف صدقة، وإنَّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك**»(٥).

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرَّجل في أرض الضَّلال لك صدقة، وبصرك للرَّجل الرَّديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشَّوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك**

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦).
(٢) رواه الترمذي (١٨٣٣) وصححه الألباني.
(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٢١٤).
(٤) رواه الترمذي (٣٦٤١) وصححه الألباني.
(٥) رواه الترمذي (١٩٧٠) وصححه الألباني.

صدقة»(١).

قال المناوي: «تبسُّمك في وجه أخيك، أي: في الإسلام. لك صدقة، يعني: إظهارك له البَشَاشَة والبِشْر إذا لقيته، تؤجر عليه كما تؤجر على الصَّدقة. قال بعض العارفين: التبسُّم والبِشْر من آثار أنوار القلب ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس]».

وعَنْ أَنَسٍ- رَضِي الله عَنْه: أَنَّ رَجُلًا جاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ يَخْطُبُ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ: قَحطَ الْمطَرُ فَاسْتَسْقِ رَبَّكَ، فَنظَرَ إِلَى السَّماءِ وَمَا نَرى مِنْ سَحَابٍ فَاسْتَسْقَى، فَنَشَأَ السَّحَابُ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ مُطِرُوا، حَتَّى سَالَتْ مَثَاعِبُ الْمَدِينَةِ، فَمَا زَالَتْ إِلَى الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ مَا تُقْلِعُ، ثُمَّ قَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوْ غَيْرُهُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ: غَرِقْنَا فَادْعُ رَبَّكَ يَحْبِسْهَا عَنَّا، فَضَحِكَ، ثُمَّ قَالَ: «**اللهمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَعَلَ السَّحَابُ يَتَصَدَّعُ عَنِ الْمَدِينَةِ يَمِينًا وَشِمَالًا، يُمْطَرُ مَا حَوَالَيْنَا وَلَا يُمْطِرُ مِنْهَا شَيْءٌ، يُرِيهِمُ الله كَرَامَةَ نَبِيِّهِ ﷺ وَإِجَابَةَ دَعْوَتِه(٢).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ، غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ الله ﷺ، قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ(٣).

وعن أبي طلحة الأنصاريّ- رضي الله عنه- أنّه قال: جاء النّبيّ ﷺ يوما وهو يرى البشر في وجهه، فقيل: يا رسول الله، إنّا نرى في وجهك بشرًا لم نكن نراه؟ قال: «**أجل، إنّ ملكا أتاني فقال لي: يا محمّد إنّ ربّك يقول لك: أما يرضيك أن لا يصلّي عليك أحد من أمّتك إلّا صلّيت عليه عشرًا، ولا يسلّم عليك إلّا سلّمت عليه عشرًا .. قال: قلت: بلى**»(٤).

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٦) وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٩٣٣) ومسلم (٨٩٧).

(٣) رواه البخاري (٥٨٠٩) ومسلم (١٠٥٧).

(٤) رواه النسائي (١٢٨٣) وحسنه الألباني.

أقوال السَّلف والعلماء عن البشاشة وطلاقة الوجه:

قال معاذ بن جبل- رضي الله عنه: إن المسلمَين إذا التقيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده، تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشجر.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه قال: مكتوب في الحكمة: ليكن وجهك بسطاً، وكلمتك طيبة، تكن أحبَّ إلى النَّاس من الذي يعطيهم العطاء.

وقال عبد الله بن المبارك: حسن الخلق طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكفُّ الأذى.

وقال ابن القيِّم: طلاقة الوجه والبِشْر المحمود وسط بين التَّعبيس والتَّقطيب، وتصعير الخدِّ، وطيِّ البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال مع كل أحد بحيث يذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أنَّ الانحراف الأوَّل يوقع الوحشة، والبغضة، والنُّفرة في قلوب الخَلْق، وصاحب الخُلُق الوسط: مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه. وفي صفة نبيِّنا: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه عشرة أحبَّه.

وقال ابن عيينة: والبَشَاشَة مصيدة المودَّة، والبِرُّ شيء هيِّن، وجه طليق، وكلام ليِّن. وفيه رَدٌّ على العالم الذي يصَعِّر خدَّه للناس، كأنَّه معرض عنهم، وعلى العابد الذي يعبِّس وجهه ويقطِّب جبينه، كأنَّه منزَّهٌ عن النَّاس، مستقذر لهم، أو غضبان عليهم.

وقال الغزَّالي: ولا يعلم المسكين أنَّ الورع ليس في الجبهة حتى يُقَطَّب، ولا في الوجه حتى يُعَفَّر، ولا في الخدِّ حتى يُصَعَّر، ولا في الظَّهر حتى ينحني، ولا في الذَّيل حتى يُضَمَّ، إنَّما الورع في القلب.

وقال بعض الحكماء: الْقَ صاحب الحاجة بالبِشْر، فإنْ عدمت شكره، لم تعدم عذره.

وقيل للأوزاعي- رضي الله عنه: ما كرامة الضَّيف؟ قال: طلاقة الوجه، وطيب الحديث.

وقال ابن حبان: البَشَاشَة إدام العلماء، وسجيَّة الحكماء؛ لأنَّ البِشْر يطفئ نار المعاندة، ويحرق هيجان المباغضة. وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي.

وقال أبو جعفر المنصور: إنْ أحببت أنْ يكثر الثَّناء الجميل عليك من النَّاس بغير نائل، فالْقَهُمْ بِبِشْر حسن.

ثمار البشاشة:

١- تبعث هذه المهارة روح التجديد والنشاط.

٢- تقضي على التوتر والضغط النفسي.

٣- ينجذب إليك الناس.

٤- تذيب السلوكيات غير المرغوبة: (الكبر - الحسد - الحقد - العناد).

٥- تضفي روح التواضع.

٦- تعيد روح الود وتبث روح المداعبة.

٧- محبَّة الله- عزَّ وجلَّ- لقوله عليه السَّلام: «**إنَّ الله يحبُّ الطَّلْق الوجه، ولا يحبُّ العبوس**».

٨- الهَشَاشَة وطلاقة الوجه تثمر المحبَّة بين المسلمين، والتآلف بينهم.

٩- وإجمالاً البشاشة: تبهج النفوس، وتسر القلوب، وتشرح الصدور، وتزيل الهم، وتجلو الغم، وتدعو إلى الفرح والمرح، والائتلاف والانسجام، فالإنسان البشوش ترتاح إليه النفوس، وتطمئن إليه القلوب، وتسكن إليه الجوارح، وترى صداقته كسباً ومغنما، وعداوته خسراناً ومغرما.

واجبات عملية:

١- استشعار الأجر الذي رتَّبه الشرع على البَشَاشَة وحسن ملاقاة المسلمين.

٢- اتِّباع هدي النَّبي ﷺ، والذي كانت البَشَاشَة خلقه، وعلمها لأمته بقوله عليه الصَّلاة والسلام.

٣- حُبُّ النَّاس يجعلك تَبَشُّ في وجوههم.

٤- التَّخلُّص من الصِّفات الذَّميمة كالحسد والحقد، التي تجعل المرء يمقت من حوله ويكره لهم الخير، ويلاقيهم بجهامة ووجه عبوس.

التعوُّد على رسم الابتسامة على الوجه، ومحاولة أن تكون سمة دائمة للشَّخص.

٢٣ - الفوز العظيم

عَنْ أَنَسٍ- رضي الله عنه - قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْوَاماً مِنْ بَنِي سُلَيْم إِلَى بَنِي عَامِرٍ فِي سَبْعِينَ؛ فَلَمَّا قَدِمُوا قَالَ لَهُمْ خَالِي: أَتقَدَّمُكُمْ؛ فَإِنْ أَمَّنُونِي حَتَّى أُبَلِّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَإِلَّا كُنْتُمْ مِنِّي قَرِيباً. فَتَقَدَّمَ فَأَمَّنُوهُ؛ فَبَيْنَمَا يُحَدِّثُهُمْ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَوْمَؤُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ فَطَعَنَهُ فَأَنْفَذَهُ، فَقَالَ: الله أَكْبَرُ فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ!. قال القاتل: ما الفوز الَّذي فازه؟ قيل له: الشهادة، فكانت هذه الكلمة سبباً في إسلامه(١).

الفوز لغة:

الظَّفَرُ بالخير، مع حصول السلامة والنجاة من كل مكروه أو هلاك.

الفوز اصطلاحا:

حصول الربح ونفي الخسارة.

فالفوز العظيم الكبير المبين: هو النجاة من النار، ودخول الجنة.

الفوز في القرآن والسنة:

وردت كلمة (فوز) ومشتقاتها في القرآن في تسعة وعشرين موضعاً: فوز، مفازًا، مفازة، مفازتهم: في موضع واحد، وفاز: في موضعين، وفوزاً: في ثلاثة مواضع، والفائزون: في أربعة مواضع، والفوز: في ستة عشر موضعاً.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

ووَصَفَ هذا الفوز العظيم بالفوز الكبير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(١) رواه البخاري (٢٨٠١) ومسلم (٦٧٧).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج]، ووصفه تعالى بالفوز المبين في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام]. وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ [الجاثية].

فالفوز العظيم الكبير المبين: هو النجاة من النار، ودخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران].

صور الفوز العظيم في القرآن الكريم:

الأولى: الزحزحة عن النار ودخول الجنة:

قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ٥٨١]. أي: فمن نُحِّي عن النار فأبعد منها وأدخل الجنة فقد نجا وظفر بعظيم الكرامة. وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَـمَوضِعُ سَوْط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها**» قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**»[1].

فالأول: رعاية حقوق الله، والثاني: محافظة على حقوق العباد.

الثانية: رضوان من الله:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة].

قال السعدي في تفسيره: «﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: يحله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّلها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرِضا رب الأرض والسماوات أكبر من نعيم الجنات».

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

كما جاء في صحيح البخاري- رحمه الله- في كلام الله مع أهل الجنة: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ! فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً**»(١).

الثالثة: التشويق إلى الفوز العظيم:

قال تعالى على لسان أصحاب الجنة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الصافات] المقام مقام لذة وسرور، فدلَّ ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يُسرون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال، ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

فمدح الله- سبحانه- النعيم وشوَّق إليه العاملين، وحثَّهم على العمل فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الصافات]، حيث حلَّ عليهم رضا رب الأرض والسماوات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته، وسرّوا برؤيته، وطربوا لكلامه: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات].

فهو أحق ما أُنفِقَت فيه نفائس الأنفاس، وأَوْلى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذي يقرب لهذه الدار، فهؤلاء ينعمون بسمر هادئ، يتذاكرون فيه الماضي والحاضر؛ وذلك في مقابل التخاصم والتلاحي الذي يقع بين المجرمين.

الفوز العظيم في فهم المنافق:

قال الله- تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء]، أي: بأن يُضْرَبَ لي بسهم معهم

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩).

فأحصل عليه، وهو أكبر قصده وغاية مراده.

أي: يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك- من جهاد وقتال - كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين! ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية. إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب.

الواجبات العملية:

١- الإيمان والعمل الصالح :

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ [الجاثية]. فالإيمان والعمل الصالح قاعدتا الثواب والجزاء في القرآن، والإيمان هو: التصديق الجازم بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح، والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، ويشمل كل عمل يبدأ ببسم الله وعلى منهج رسول الله.

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء.

وقد ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في ستة وخمسين موضعاً، وأخبر الله تبارك وتعالى أنه لم يدخل المؤمنين الجنة بالإيمان وحده، بل أدخلهم الجنة برحمته إياهم، وبما وفقهم له من الإيمان به، والعمل الصالح، فقد رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً.

٢- الصبر على الإيذاء والاستهزاء:

قال تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون].

أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين من النار.

٣- طاعة الله والرسول وقول السداد :

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

ويشمل القولُ السديد:

- ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء.

- وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء، فقراءة القرآن على الناس من القول السديد، ورواية حديث الرسول ﷺ من القول السديد. وفي الحديث: «**نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»(١).

- نشر أقوال الصحابة والحكماء وأئمة الفقه.

- تمجيد الله والثناء عليه مثل التسبيح.

- الأذان والإقامةُ، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- تقوى الله والنظر فيما قدمت النفس لغد:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر].

والفوز العظيم: ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ الْحَقِّ، وَالتَّقْوَى الْعَامَّةُ فِي حُقُوقِ الله وَحُقُوقِ الْخَلْقِ.

قال سيد قطب- رحمه الله: «والتقوى حالة تجعل القلب يقظاً حساساً شاعراً بالله في كل حالة؛ خائفاً متحرجاً مستحيياً أن يطلع عليه الله في حالة يكرهها، وعين الله على كل قلب في كل لحظة، فمتى يأمن أن لا يراه؟!

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ فهو معنى يفتح أمامه صفحة أعماله، بل صفحة حياته، ويمد ببصره في سطورها كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته، لينظر ماذا قدم لغده في هذه الصفحة.. وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد. فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلاً، ونصيبه من البر ضئيلاً؟ إنها

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٨) وابن ماجه (٢٣٠) وصححه الألباني.

لمسة لا ينام بعدها القلب أبداً، ولا يكف عن النظر والتقليب».

٥- الصدق :

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة].

والمراد بِـ(الصادقين) الذين كان الصدق شعارهم لم يعدلوا عنه.

ومن أوّل مراتب الصدق: صدق الاعتقاد بأن لا يعتقدوا ما هو مخالف لما في نفس الأمر ممّا قامَ عليه الدليل العقلي أو الشرعي. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة].

ومعنى نفع الصدق صاحبه في ذلك اليوم أنّ ذلك اليوم يوم الحقّ، فالصادق ينتفع فيه بصدقه، لأنّ الصدق حسن، فلا يكون له في الحقّ إلا الأثر الحسن، بخلاف الحال في عالم الدنيا.. عالم حصول الحقّ والباطل، فإنّ الحقّ قد يجرّ ضراً لصاحبه بتحريف الناس للحقائق، أو بمؤاخذته على ما أخبر به بحيث لو لم يخبر به لما اطّلع عليه أحد. وأمّا ما يترتّب عليه من الثواب في الآخرة فذلك من النفع الحاصل في يوم القيامة. وقد ابتلي كعب بن مالك- رضي الله عنه- في الصدق ثم رأى حُسن مغبَّته في الدنيا.

٦- خشية الله وتقواه:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور].

﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾: أي: يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ بترك المحظور، لأن التقوى- عند الإطلاق- يدخل فيها فعل المأمور وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة- كما في هذا الموضع- تفسر بتوقي عذاب الله، بترك معاصيه، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه، ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.

«والتقوى أعم من الخشية، فهي مراقبة الله والشعور به عند الصغيرة والكبيرة؛ والتحرج من إتيان ما يكره توقيراً لذاته سبحانه، وإجلالاً له، وحياء منه، إلى جانب الخوف والخشية. وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج، وإغفال المغريات التي تهتف بهم على جانبيه، فلا ينحرفون ولا يلتفتون».

٧- الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [التوبة]. أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

اعلم أنه- تعالى- لما بَيَّن أن الموصوفين بالإيمان والهجرة أعظم درجة عند الله، بين- تعالى- أنهم هم الفائزون، وهذا للحصر، والمعنى: أنهم هم الفائزون بالدرجة العالية الشريفة المقدسة التي وقعت الإشارة إليها بقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهي درجة العندية، وذلك لأن من آمن بالله وعرفه فقلَّ أن يبقى قلبه ملتفتاً إلى الدنيا، ثم عند هذا يحتال إلى إزالة هذه العقدة عن جوهر الروح، وإزالة حب الدنيا لا يتم له إلا بالتفريق بين النفس وبين لذات الدنيا، فإذا دام ذلك التفريق وانتقص تعلقه بحب الدنيا، فهذا التفريق والنقص يحصلان بالهجرة. ثم إنه بعده لا بد من استحقار الدنيا والوقوف على معايبها وصيرورتها في عين العاقل؛ بحيث يوجب على نفسه تركها ورفضها، وذلك إنما يتم بالجهاد؛ لأنه تعريض النفس والمال للهلاك والبوار، ولولا أنه استحقر الدنيا وإلا لما فعل ذلك».

٨- الولاية بين المؤمنين :

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة].

لما ذكر أن المنافقين بعضهم أولياء بعض، ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ أي: ذكورهم

وإناثهم ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ في المحبة والموالاة، والانتماء والنصرة.

﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو: اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة.

﴿ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة.. طبيعة الوحدة، وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر، وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون. ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفاً واحداً، لا تدخل بينها عوامل الفرقة. وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولا بد عنصر غريب عن طبيعتها، وعن عقيدتها، هو الذي يدخل بالفرقة.. ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها؛ السمة التي يقررها العليم الخبير!

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾، يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلة التي تربطهم بالله، ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الفريضة التي تربط بين الجماعة المسلمة، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله، ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله.. وبذلك يوحدون نهجهم، ويوحدون هدفهم، ويوحدون طريقتهم، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها، إنما تكون في هذه الأرض أولاً، ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح. رحمة الله في اطمئنان القلب، وفي الاتصال بالله، وفي الرعاية والحماية من

الفتن والأحداث. ورحمة الله في صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد لرضا الله.

إن هذه الصفات الأربع في المؤمنين: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لتقابل من صفات المنافقين: الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، ونسيان الله، وقبض الأيدي.

٩- الوفاء بالبيعة مع الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

قال الحسن البصري وقتادة- رحمها الله: بايعهم والله فأغلى ثمنهم. وقال شَمِر بن عطية- رحمه الله: ما من مسلم إلا ولله- عز وجل- في عُنُقه بيعة، وفَّى بها أو مات عليها. فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات.

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري، مَنْ هو؟ هو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رُقِّم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

٢٤ ـ العدل

سرقت امرأة من بني خزيمة أثناء فتح مكة، وأراد الرسول ﷺ أن يقيم عليها الحدَّ ويقطع يدها، فذهب أهلها إلى أسامة بن زيد، وطلبوا منه أن يشفع لها عند رسول الله ﷺ حتى لا يقطع يدها، وكان الرسول ﷺ يحب أسامة حبًّا شديدًا. فلما تشفع أسامة لتلك المرأة تغير وجه الرسول ﷺ، وقال له: «**أتشفع في حد من حدود الله؟**» ثم قام النبي ﷺ فخطب في الناس، وقال: «**فإنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها**»(١).

العدل هو القيمة العليا في النظام الإسلامي الذي يتخلل جميع نواحي الحياة في المجتمع المسلم، ابتداء من عدل الإنسان مع نفسه وأهله، وعدله فيمن يتولى أمرهم، وصفة لازمة في الحكم الإسلامي؛ حيث يطبق مع المسلم وغير المسلم، بل مع المحارب والعدو.

العدل لغة:

قال ابن منظور: العدل هو: الحكم بالحق، يقال: هو يقضى بالحق، ويعدل، وهو حكم عادل: ذو معدلة في حكمه، والعدل من الناس: المرضي قوله وحكمه. والعدل لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. والعَدالَةُ والعُدُولَةُ، والمَعْدِلَةُ والمَعْدَلَةُ كله: العدل.

العدل اصطلاحاً:

عرفه الجرجاني بقوله: هو عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط.

ويقول في موضع آخر: والعدل مصدر بمعنى العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة على طريق الحق، بالاجتناب عما هو محظور ديناً.

العدل في القرآن والسنة:

وردت مادة (عدل) في القرآن الكريم في حوالي (٢٧) مرة في معرض المدح

---

(١) رواه البخاري (٤٣٠٤) ومسلم (١٦٨٨).

والترغيب في هذه الصفة الكريمة.

وبضد ذلك وردت مادة (ظلم) في القرآن الكريم، منهياً عنها في أكثر من مائة وثمانين مرة في معرض الذم لهذه الصفة القبيحة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[النحل] .

يقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية: روي عن عثمان بن مظعون أنه قال: «لما نزلت هذه الآية قرأتها على علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- فتعجب فقال: يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فوا الله إن الله أرسله لأمركم بمكارم الأخلاق».

ويقول سيد قطب في هذه الآية: جاء العدل الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب والغنى والفقر، والقوة والضعف. إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع، وإلى جوار العدل الإحسان يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب، وشفاء لغل الصدور».

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾[النساء].

وقد قال سيد قطب في هذه الآية: «فأما الحكم بالعدل بين الناس، فالنص يطلقه هكذا عدلاً شاملاً بين الناس جميعاً، لا عدلاً بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، وإنما هو حق لكل إنسان بوصف إنساناً.. فهذه الصفة- صفة الإنسانية- هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني. والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل.. هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط- في هذه الصورة- إلا على يد الإسلام. وذلك هو أساس الحكم في الإسلام».

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

قال ابن كثير- رحمه الله تعالى : «أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل مع كل أحد، صديقاً كان أو عدوا».

ويقول القرطبي- رحمه الله تعالى : «دلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه» .

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل].

في هذه الآية الكريمة أشار الله- سبحانه وتعالى- إلى أن من يحكم بالعدل ويتوخاه فإنه على صراط مستقيم، ومن يسكت عن إعلان الحق فهو أبكم لا يقدر على شيء ولا يستفاد منه شيء.

وقد بين الرسول ﷺ أن العدل له أجر كبير يوم القيامة، فعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن- عز وجل- وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»**(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»**(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: **«إنما الإمام جنة، يقاتل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله- عز وجل- وعدل كان له بذلك أجر، وإن يأمر بغيره كان عليه منه»**(٣).

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٢) رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

(٣) رواه مسلم (١٨٤١).

وعن النعمان بن بشير قال: تصدق عليَّ أبي ببعض ماله، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ، فانطلق أبي إلى النبي ﷺ ليشهده على صدقتي، فقال له رسول الله ﷺ: «**أفعلت هذا بولدك كلهم؟**» قال: لا، قال: «**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**». فرجع أبى فرد تلك الصدقة(١).

وعن على بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيا، فقلت: يا رسول الله ترسلني وأنا حديث السن ولا علم لي بالقضاء، فقال: «**إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول؛ فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء**»، قال: فما زلت قاضيا أو ما شككت في قضاء بعد(٢).

أقوال السلف الصالح في العدل:

* يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى : وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم**»(٣).

* ويقول ابن القيم: الشريعة الإسلامية مبناها وأساسها على مصالح العباد في الدنيا والآخرة، وهى عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن دخلت فيها بالتأويل.

* وقال ابن حزم- رحمه الله تعالى: أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل، وحبه على الحق وإيثاره.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٧) ومسلم (١٦٢٣).

(٢) رواه أبو داود (٣٥٨٢) وحسنه الألباني.

(٣) رواه الترمذي (٢٥١١) وابن ماجه (٤٢١١) وصححه الألباني.

* وقال ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس- لما سأله عن ما جاء بهم: إن الله ابتعثنا لنخرج من يشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه، حتى نفيء إلى موعد الله. قال: وما موعد الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقى.

عدل رسول الله ﷺ:

لقد التزم رسول الله ﷺ بالعدل والقسط منهجًا له طيلة حياته، وامتلأت كتب السيرة بمواقف نبويَّة نتعجَّب لها من قوَّة رسول الله ﷺ في تمسُّكه بالعدل والقضاء الحقِّ على نفسه وأهل بيته، وعلى المحيطين به، سواء كان هذا العدل في حدٍّ من حدود الله، أو في الأمور السلميَّة أو الحربيَّة، وغيرها من الأحوال العامَّة، وقد أراد أحد المنافقين أن ينتقص من عدل رسول الله ﷺ، فردَّ عليه ﷺ: «**وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ**»(١).

* **عدله مع أزواجه**: فعن أنس قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: «**غارت أمكم**» ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت(٢).

* **عدله ﷺ حتى مع المشركين**: فقبل وفاة الرسول ﷺ بعامين أرسل أسامة بن زيد- رضي الله عنه- للقاء بعض المشركين الذين يناوئون الإسلام والمسلمين، وكانت تلك أول إمارة يتولاها أسامة، فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلا من المسلمين قصد غفلته- قال: وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد- فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله،

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤).

(٢) رواه البخاري (٥٢٢٥).

فجاء البشير إلى النبي ﷺ فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: «لم قتلته؟» قال: يا رسول الله أوجع في المسلمين وقتل فلانا وفلانا- وسمى له نفرا- وإني حملت عليه، فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «أقتلته؟» قال: نعم. قال: **«فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟»** قال: يا رسول الله استغفر لي. قال: **«وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»** قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: **«كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»**(١).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ؛ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»**(٢).

وقال الأشعث بن قيس: كان بيني وبين رجل من اليهود أرضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: **«أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟»** قلتُ: لا. فقال لليهوديِّ: **«احْلِفْ»**. قال: قلتُ: يا رسول الله، إذًا يَحْلف ويذهب بمالي. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧]، إلى آخر الآية(٣).

* ومن مواقف عدله ﷺ **أنه يقدم نفسه للقصاص**، فعن الحسن قال: حدثني سواد بن عمرو قال: أتيت النبي ﷺ وأنا متخلق بخلوق، فلما رآني قال لي: **«يا سواد ابن عمرو خلوق ورس، أَوَ لَمْ أنهَ عن الخلوق»** ونخسني بقضيب في يده في بطني فأوجعني، فقلت: يا رسول الله القصاص. قال: **«القصاص»** فكشف لي عن بطنه فجعلت أقبله، ثم قلت: يا رسول الله أدعه شفاعة لي يوم القيامة(٤).

عدل السلف الصالح:

* تظهر المساواة والعدل عندما جاء رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وقال له: يا أمير المؤمنين، لقد تسابقتُ مع ابن عمرو ابن العاص والي مصر، فسبقتُه فضربني بسوطه، وقال لي: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر بن

---

(١) رواه مسلم (٩٧/ ١٦٠).
(٢) رواه البخاري (٢٣٥٦) ومسلم (١٣٨/ ٢٢٠).
(٣) رواه البخاري (٢٦٦٧).
(٤) رواه البيهقي في الكبرى (٨/ ٤٨) (١٥٧٩٩).

الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فلتحضر إليَّ ومعك ابنك، فلما حضرا أعطى عمر بن الخطاب السوط للرجل المصري ليضرب ابن عمرو قائلا له: «دونك الدرة فاضرب ابن الأكرمين».

* وهذا حادث جبلة بن الأيهم الغساني الذي داس على إزار أعرابي يدعى الفزاري وهو يطوف حول الكعبة، فانحل الإزار، فكَبُرَ ذلك عليه وهو أمير في قومه، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزاري، فشكا الأعرابي إلى الخليفة عمر ابن الخطاب، فقضى له بلطم الأمير على الملأ، فعظم ذلك عليه قال: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك؟ قال: إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشيء إلا بالتقي، فهرب وتنصر ثانية.

* اشترى عمر- رضي الله عنه- فرسا من رجل من الأعراب وأعطاه ثمنه، وعندما ركب عمر صهوة الفرس ومشى به إذا بالفرس لا يستطيع أن يسير لوجود عيب فيه، فرجع عمر إلى الرجل وقال له: خذ فرسك؛ فإنه معطوب (أي فيه عيب). قال الرجل يا أمير المؤمنين لا آخذه؛ لأنني بعته لك وهو سليم. فقال عمر: اجعل بيني وبينك حكما. فالتفت الرجل وقال: يحكم بيننا شريح بن حارث الكندي. فقال عمر: رضيت به. فذهب عمر مع صاحب الفرس إلى شريح، ولما سمع شريح مقالة الأعرابي التفت إلى عمر، وقال له: هل أخذت الفرس سليما يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: نعم. فقال شريح: احتفظ بما اشتريت أو رد كما أخذت. وبعد أن سمع عمر هذا الكلام نسي قضية الفرس، وقال متعجبا: وهل القضاء إلا هكذا، قول فصل وحكم عدل، أي كلام موجز فاصل يحكم بالعدل. ثم قال: سر إلى الكوفة، فقد وليتك قضاءها.

* قدم على عمر بن الخطاب رجل من أهل العراق فقال: لقد جئتك بأمر ما له رأس ولا ذنب، فقال عمر بن الخطاب: ما هو؟ قال: شهادات الزور ظهرت بأرضنا. فقال عمر: أو قد كان ذلك؟ قال: نعم. قال عمر: والله لا يؤمر رجل في الإسلام بغير العدول.

* وذات يوم، اختلف الإمام علي رضي الله عنه مع يهودي في درع- يُلبس كالرداء على الصدر في الحروب- فذهبا إلى القاضي، وقال الإمام علي: إن هذا اليهودي أخذ

درْعِي، وأنكر اليهودي ذلك، فقال القاضي للإمام علي: هل معك من شهود؟ فقال الإمام علي: نعم، وأحضر ولده الحسين، فشهد الحسين بأن هذا الدرع هو درع أبيه. لكن القاضي قال للإمام علي: هل معك شاهد آخر؟ فقال الإمام علي: لا.

فحكم القاضي بأن الدرع لليهودي؛ لأن الإمام عليا لم يكن معه من الشهود غير ولده. فقال اليهودي: أمير المؤمنين جاء معي إلى قاضي المسلمين، فقضى على أمير المؤمنين ورضي. صدقتَ والله يا أمير المؤمنين.. إنها لدرعك سقطتْ عن جمل لك التقطتُها؛ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فأعطاه الإمام على الدرع فرحًا بإسلامه.

* وقد روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- أنه قال: أفاء الله خيبر على رسول الله ﷺ، فأقرَّهم رسول الله ﷺ كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم؛ فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم، ثم قال لهم: «يا معشر اليهود، أنتم أبغض الخَلْقِ إليَّ، قتلتم أنبياء الله، وَكَذَبْتُمْ على الله، وليس يحملني بغضي إيَّاكم على أن أحيف عليكم؛ قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فَلِي». فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، قد أخذنا[1].

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٦٧) شعيب الأرناؤوط : إسناده قوي على شرط مسلم.

٢٥ ـ ثمار ومجالات العدل

روى ابن عباس- رضي الله عنهما- قَالَ: قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله فَجَعَلَ يَقُولُ: إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ. وَقَدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ. فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَفِي يَدِ رَسُولِ الله ﷺ قِطْعَةُ جَرِيدٍ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «**لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ الله فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ، وَإِنِّي لأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيكَ مَا رَأَيْتُ**».

فَأَخْبَرَنِي أبو هريرة أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا، فَأُوحِيَ إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ: أَنِ انْفُخْهُمَا، فَنَفَخْتُهُمَا، فَطَارَا، فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي**». فَكَانَ أَحَدُهُمَا العنسي، وَالآخَرُ مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة[(١)].

وهذه- والله- قصة عجيبة..!!

فرسول الله ﷺ يرى إنسانًا يرفض مبايعته على الإسلام إلا بشرط، وقد بايع قومه أجمعون، ثم إن رسول الله ﷺ كان قد رأى رؤيا- ورؤيا الأنبياء حق- أن هذا الرجل سيدَّعِي النبوة من بعده، وهو يعلم ﷺ خطورة هذا الأمر، ومدى الفتنة التي من الممكن أن تحدث من جرَّاء انتشار دعوته، وذيوع صيته، وبرغم كل هذه الأحداث الخطيرة، وبرغم قوة الرسول ﷺ والمسلمين في ذلك الوقت، وضعف بني حنيفة والعرب بصفة عامة.. برغم كل هذه الملابسات إلا أن رسول الله ﷺ لم يتَّخذ ضده أي إجراء عقابي أو ردعيّ، ولم يقيِّد حريته، ولم يحدّ من حركته.

فتعالوا نستعرض ثمار تطبيق العدل في أنفسنا وحياتنا، ومجالات تطبيقه في الحياة.

أولاً: ثمار العدل:

١- بالعدل تحفظ البلاد:

قال ابن تيمية- رحمه الله تعالى: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة،

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٠، ٣٦٢١).

وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة».

وفي حلية الأولياء: كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لها مالا يُرُمُّها به فعل. فكتب إليه عمر: «أما بعد، فقد فَهِمتُ كتابك وما ذكرت أن مدينتكم قد خُرِّبت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل، ونقِّ طُرُقَها من الظلم، فإنه مرمَّتُها، والسلام».

٢- استجابة الدعاء:

لحديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم»**(١).

٣- الإمام العدل يدعو له النبي ﷺ:

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: **«اللهمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»**(٢).

٤- بالعدل يأمن الناس:

فإنَّ النبيَّ ﷺ لما رأى الأذى يشتد بأصحابه، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة وقال: **«فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد»**(٣).

٥- العدل أمن من ثورة الشعوب:

قال النووي- رحمه الله: «قال إمام الحرمين: وإذا جار والي الوقت، وظهر ظلمه وغشمه، ولم ينزجر حين زجر عن سوء صنيعه بالقول، فلأهل الحل والعقد التواطؤ على خلعه ولو بشهر الأسلحة ونصب الحروب. هذا كلام إمام الحرمين. وهذا الذي ذكره من خلعه غريب، ومع هذا فهو محمول على ما إذا لم يخف منه إثارة مفسدة أعظم منه»(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٢٦) وصححه الألباني.
(٢) رواه مسلم (١٨٢٨).
(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٥٩).
(٤) شرح مسلم للنووي (٢/ ٢٥).

٦- العدل أمن من عذاب الله:

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه إلا العدل، أو يوبقه الجور**»(١).

وعن سعد بن عبادة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه من ذلك الغل إلا العدل**»(٢).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ: «**ما من رجل ولي عشرة إلا أتي به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه حتى يقضى بينه وبينهم**»(٣).

وعن عوف بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة**»، قال عوف: فناديت بأعلى صوتي ثلاث مرات: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة، إلا من عدل، وكيف يعدل مع قرابته؟**»(٤).

٧- العدل أمن من الشقاء في الدارين:

فعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم الغنائم بالجِعْرانة، إذ قال له رجل: اعدل. فقال: «**لقد شَقِيتُ إن لم أعدل**»(٥).

٨- معية الله:

لحديث ابن أبي أوفى- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان**»(٦).

وعن سعيد بن المسيب- رحمه الله: «أن مسلما ويهوديا اختصما إلى عمر- رضي الله عنه- فرأى الحق لليهودي، فقضى له عمر به، فقال له اليهودي: والله لقد قضيت

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٣١) وقال شعيب الأرناؤوط : إسناده قوي.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٨٥) وصححه الأرناؤوط.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٣٥) (١٢٦٨٩) وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٠٦): رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجاله ثقات.

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٧/ ٢٩٦) (٧١٨٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٠٠): رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط باختصار ورجال الكبير رجال الصحيح.

(٥) سبق تخريجه .

(٦) رواه الترمذي (١٣٣٠) وحسنه الألباني.

بالحق، فضربه عمر بالدرة وقال: وما يدريك؟ فقال اليهودي: والله إنا نجد في التوراة: ليس قاض يقضي بالحق إلا كان عن يمينه ملك وعن شماله ملك يسددانه ويوفقانه للحق ما دام مع الحق، فإذا ترك الحق عرجا وتركاه.

٩- محبة الله:

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا: إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسا: إمام جائر**»[١].

١٠- الإمام العادل في ظل الله:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**»[٢].

١١- منابر النور للمقسطين:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن- وكلتا يديه يمين- الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولوا**»[٣].

١٢- دخول الجنة:

عن عياض بن حمار- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال**»[٤].

وعن أبي بريدة عن أبيه- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «**القضاة ثلاثة:**

---

(١) رواه الترمذي (١٣٢٩) وضعفه الألباني.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥).

واحد في الجنة واثنان في النار. فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»(١).

ثانياً: مجالات العدل:

١- أن يحقق المسلم العدل مع الزوجة وبين الزوجات:

أمرنا الله- تعالى- بالعدل مع الزوجة وعدم ظلمها وغبنها، كما أمرنا الله تعالى بالعدل بين الزوجات، والله عزَّ وجل يقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء].

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أنها أتت بطعام في صحفة (أي إناء واسع لها) إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متزرة بكساء ومعها فهر (أي حجر) ففلقت به الصحفة، فجمع النبي ﷺ بين فلقتي الصحفة وقال: «**كلوا غارت أمكم**» مرتين، ثم أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة فبعث بها إلى أم سلمة وأعطى صحفة أم سلمة عائشة(٢).

وفي سنن أبي داود، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه-عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ**»(٣).

وأما العدل المنفي في الآية: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء]، فالمراد به أمران لا يؤاخذ الإنسان بهما: الحب والجماع.

تقول عَائِشَةُ- رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: «**اللهمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ**»(٤).

٢- العدل بين الأولاد:

والعدل مع الابن يكون في اختيار أمه وتسميته اسما حسنا والإحسان إليه، كما

(١) رواه أبو داود (٣٥٧٣) والترمذي (١٣٢٢) وصححه الألباني.
(٢) سبق تخريجه .
(٣) رواه أبو داود (٢١٣٣) وصححه الألباني .
(٤) رواه أبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) وضعفه الألباني.

أشار الفاروق عمر للأعرابي وقال له: عققت ولدك قبل أن يعقك.

وعن النعمان بن بشير قال : تصدق عليّ أبي ببعض ماله، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ. فانطلق أبي إلى النبي ﷺ ليشهد على صدقتي، فقال له رسول الله ﷺ: «**أفعلت هذا بولدك كلهم؟**» قال: لا، قال: «**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**» فرجع أبي فرد تلك الصدقة(١).

٣- العدل مع النفس :

وذلك بكفها عن الظلم وعن المعاصي، وأن تعطها حقها في الراحة، والبعد عن الخطأ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

عن أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ- رضي الله عنه- قَالَ: آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ. قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ. قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ. قَالَ: فَأَكَلَ. فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ. ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ: فَقَالَ نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ، فَصَلَّيَا. فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ سَلْمَانُ**»(٢).

إنَّ من العدلِ مع النفس أن تسلك بها سبيلَ نجاتها، ففي الصحيحين، عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود- رضي الله عنه- قَالَ: لما نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لَيْسَ: «**كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِالله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**»(٣).

وظلم الإنسان لنفسه بأمرين: بترك الفرائض، وإتيان المحرمات. فإذا كان هذا ظلماً كان حملها على طاعة الله عدلاً.

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه البخاري (١٩٦٨).

(٣) رواه البخاري (٦٩٣٧).

٤- العدل في الكلمة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فليس في القول من عدل إلا الحق. يعززه تعبير ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾. فالقول هنا هو بمثابة الإدلاء بالحق ولو كان على ذوي القربى.

٥- العدل في الشهادة:

والشهادة في الإسلام حق واجب الأداء.. فكل مسلم أو مسلمة مطالب بأداء الشهادة وعدم كتمها، لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾[البقرة].

٦- العدل مع المجتمع:

وهو العدل بين أطراف المجتمع، منهم الأقارب والجيران والضيوف والخصوم، وأنت تعطي كل ذي حق حقه. أورد ابن الأثير في جامع الأصول الواقعة التالية: «عن سعيد بن المسيب- يرحمه الله: أن مسلماً ويهودياً اختصما إلى عمر، فرأى الحق لليهودي، فقضى له عمر به، فقال له اليهودي: والله لقد قضيت بالحق، فضربه عمر بالدرة، وقال: وما يدريك؟ فقال اليهودي: والله إنا نجد في التوراة أنه ليس من قاضٍ يقضي بالحق إلا كان عن يمينه ملك وعن شماله ملك يسددانه ويوفقانه للحق ما دام مع الحق، فإذا ترك الحق عرجا وتركاه[(١)].

٧- العدل بين الرعية:

وهو أساس الملك؛ حيث لا يأمن الإنسان ولا يطمئن ولا يهدأ إلا إذا عاش في مجتمع أساسه العدل. وتخيل نفسك في مجتمع جائر ظالم، فماذا يكون حال البلاد والعباد.

وقد أوجب رسول الله ﷺ على القاضي حين يقضي أن يكون حاضر الذهن هادئ البال، غير منفعل ولا غضبان، حتى يأمن الخطأ في قضائه، فقال ﷺ: «**لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان**»[(٢)].

وشرع رسول الله مبدأ البينة على إقامة الحق والعدل، فقال: «**البيّنة على المدعي**

---

(١) جامع الأصول (١٠/ ١٧٠).

(٢) رواه البخاري (٧١٥٨).

واليمين على المدعى عليه»(١).

٨- العدل في القضاء:

وهو مناط العدل الرئيسي عند الحكم بين الأطراف المتنازعة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء].

٩- العدل مع الأعداء:

فعن أمِّ المؤمنين عائشة- رَضِيَ الله عَنْهَا- قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: عَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَقَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**»(٢).

وقال ﷺ: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣).

١٠- العدل مع المخالف:

لقد ابتُلي الناس في هذا الزمان بفئة ظالمة، لا همَّ لها سوى تتبع الزلات، وتصيُّد العثرات، فمن خالف في مسألة يسوغ الخلاف فيها صار مبتدعاً، فاسقاً، حزبياً، بغيضاً، ضالاً، سرورياً، قطبياً، بغيضاً، والله يقول: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف]، فهل أعددنا للسؤال جواباً؟

ولا ريب أن رافع هذا اللواء سينال الحُظوة عند مشايخه الذين سلك دربهم ورمى بقوسهم، ولكني أذكره بآية في كتاب الله ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم]. وعندها يكلمنا الله بدون حجاب ولا ترجمان، والله المستعان.

قال ابن رجب- رحمه الله: ويأبى الله العصمة لكتاب غير كتابه، والمنصف من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير من صوابه.

---

(١) رواه الترمذي (١٣٤١) وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٦٢٥٦) ومسلم (٢١٦٥).

(٣) رواه أبو داود (٣٠٥٢) وصححه الألباني.

وقال ابن عبد البر- رحمه الله: «عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول: ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله، كما أن من غلب عليه نقصانه ذهب فضله. وقال غيرُه: لا يسلم العالم من الخطأ، فمن أخطأ قليلاً وأصاب كثيراً فهو عالم، ومن أصاب قليلاً وأخطأ كثيرا فهو جاهل».

ومما يحمل على العدل مع الغير قول النبي ﷺ: «**فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأت منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه**»(١).

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

٢٦ـ سلامة الصدر

عن أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «**يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ مِن هذا الفجّ** رجل **مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»، قَالَ: فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنْ الأنصار تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ قَدْ عَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فسلَّم، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبعَهُ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ الله يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنْ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ الله- عَزَّ وَجَلَّ- وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ، قَالَ عَبْدُالله: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ، وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ: يَا عَبْدَ الله، إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ، وَلَا هَجْرٌ ثَمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: «**يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»، فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ الله إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ الله: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيق»(١).

سلامة الصدر عبادة ثمينة وسلوك قلبي عميق ومشاعر إنسانية رقيقة، صفاء ونقاء، رحمة وحب، راحة وطمأنينة، خير في الدنيا وربح في الآخرة، عمل يسير وأجر عظيم.

قال سفيان بن دينار لأبي بشر- أحد السلف الصالحين: أخبرني عن أعمال من

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (١٠٦٣٣)، وأحمد (٣/ ١٦٦) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

كان قبلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيراً ويؤجرون كثيراً. قال سفيان: ولم ذاك؟ قال أبو بشر: لسلامة صدورهم.

سَلامة الصَّدر لغةً:

إذا أردنا أن نعرف (سَلَامة الصَّدر) في اللُّغة، فلا بدَّ أن نعرف كلَّ مُفْرَدة من مُفْرَدات الجملة على حِدَة:

السَّلَامة: أن يَسْلَم الإنسان من العاهة والأذى. قال ابن الأعرابي: السَّلَامة العافية.

الصَّدر: وصَدْرُ الإنسانِ: الجزء الممتدُّ من أسفل العنق إلى فضاء الجوف، وجمعُه: صُدورٌ، ولا يُكَسَّر على غير ذلك، وسمِّي القلب صَدْراً لحلوله به، وفي التَّنزيل العزيز: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩].

سَلامة الصَّدر اصطلاحاً :

قال الإمام الشَّوكاني: «وأما سَلَامة الصَّدر، فالمراد به: عدم الحقد والغل والبغضاء. فسليم القلب والصَّدر هو من سَلِم وعُوفِي فؤاده من جميع أمراض القلوب وأَدْوَائها، ومن كلِّ آفة تبعده عن الله- تبارك وتعالى».

وقال ابن القيم- رحمه الله: «الفرق بين سلامة الصدر والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعمل به، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه».

والكمال أن يكون عارفاً بتفاصيل الشر سليماً من إرادته. قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه: «لستُ بخبٍّ ولا يخدعني الخب» وكان عمر أعقل من أن يُخدع وأروع من أن يَخدَع.

سلامة الصدر في القرآن والسنة:

قال الله وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

قال ابن رجب: «أفضل الأعمال سَلَامة الصَّدر من أنواع الشَّحْناء كلِّها،

وأفضلها السَّلَامة من شحناء أهل الأهواء والبدع، التي تقتضي الطَّعن على سلف الأمَّة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم أو تبديعهم وتضليلهم، ثمَّ يلي ذلك سَلَامة القلب من الشَّحْناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم، ونصيحتهم، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه، وقد وصف الله تعالى المؤمنين عموماً بأنَّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن عطية: هذا إخبار من الله- عزَّ وجلَّ- أنَّه ينقِّي قلوب ساكني الجنَّة من الغلِّ والحقد، وذلك أنَّ صاحب الغلِّ متعذِّب به، ولا عذاب في الجنَّة.

وقال القشيري: طهَّرنا قلوبهم من كلِّ غش، واستخلصنا أسرارهم عن كلِّ آفة، وطهَّر قلوب العارفين من كلِّ حظٍ وعلاقة، كما طهَّر قلوب الزَّاهدين عن كلِّ رغبة ومُنية، وطهَّر قلوب العابدين عن كلِّ تهمة وشهوة، وطهَّر قلوب المحبِّين عن محبَّة كلِّ مخلوق، وعن غلِّ الصَّدر- كلٌّ واحد على قدر رتبته.

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يُبَلِّغُني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئاً، فإنِّي أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سَلِيم الصَّدر**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن غِرٌّ كريم، والفاجر خبٌّ لئيم**»(٢).

قال المناوي: (المؤمن غِرٌّ) أي: يغُرُّه كلُّ أحد، ويغُرُّه كلُّ شيء، ولا يعرف الشَّرَّ، وليس بذي مَكْر ولا فطنة للشَّرِّ، فهو يَنْخَدع لسَلَامة صَدْره، وحسن ظنِّه، وينخَدع لانقياده ولينه. (كريم) أي: شريف الأخلاق. (والفاجر) أي: الفاسق. (خبٌّ لئيم) أي: جريء، فيسعى في الأرض بالفساد، فالمؤمن المحمود: من كان طبعه الغَرَارة، وقلَّة الفِطْنة للشَّرِّ، وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلاً، والفاجر من عادته

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٦٠) والترمذي (٣٨٩٦) وضعفه الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٩٠) والترمذي (١٩٦٤) وحسنه الألباني.

الخُبث والدَّهاء والتَّوغل في معرفة الشَّرِّ، وليس هذا منه عقلاً.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ**»، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ، قَالَ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**»(١).

سلامة الصدر في حياة النبي ﷺ:

من أعظم المواقف قوله ﷺ حين استأذنه ملك الجبال أن يطبق الأخشبين - وهما جبلان عظيمان- يحيطان بمكة على أهلها حين كذّبوه ﷺ وحين ناصبوه العدَاء فقال ﷺ وقد سلِم قلبه وامتلأ بالطهارة وانعدم منه الغلّ والشحناء: «**بل أرجو الله أن يخرجَ من أصلابهم من يعبدُ الله وحده**»(٢).

وقال ﷺ في موقف آخر: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(٣)، وقال لأهل مكة عند فتح مكة: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وقال في موقف آخر ينمّ عن مدى طهارة قلبه ﷺ وسلامته من الغل والشحناء وعدم إرادته تكدُّرَ نفسه بشيء من ذلك: «**لا يُبلِغني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصدر**»(٤).

نماذج من الصحابة والسلف:

- عن زيد بن أسلم، أنَّه دخل على ابن أبي دُجانة، وهو مريض، وكان وجهه يتهلَّل، فقال له: ما لك يتهلَّل وجهك؟ قال: ما من عملِ شيءٍ أوثق عندي من اثنين: أمَّا أحدهما: فكنت لا أتكلَّم بما لا يعنيني، وأما الأُخْرى: فكان قلبي للمسلمين سليماً.

- وأُثِر عن أبي الدَّرداء- رضي الله عنه- أنَّه كان يدعو لسبعين من أصحابه، يسمِّيهم بأسمائهم، وفي هذا العمل علامة على سَلَامة الصَّدر.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢١٦) وصححه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).
(٣) رواه البخاري (٣٤٧٧) ومسلم (١٧٩٢).
(٤) سبق تخريجه.

- وعن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول: «**أَيَعْجَز أحدكم أن يكون مثل أبي ضَمْضَم؟**» قالوا: وما أبو ضَمْضَم، يا رسول الله؟ قال: «**كان أبو ضَمْضَم رجلاً فيمن كان قبلنا، إذا أصبح قال: اللهمَّ إنِّي أتصدَّق اليوم بعرضي على من ظلمني**».

قال ابن القيِّم- رحمه الله- معلِّقاً: «وفي هذا الجود مِنْ سَلَامة الصَّدر، وراحة القلب، والتَّخلُّص من معاداة الخلق ما فيه».

- دخل رجل على عمر بن عبد العزيز- رحمه الله تعالى- فذكر له عن رجل شيئاً، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] وإن كنت صادقاً، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾[القلم]، وإن شئت عفونا عنك. فقال: العفو، يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً».

- وعن الفضل بن أبي عيَّاش، قال: كنت جالساً مع وهب بن منبِّه، فأتاه رجل، فقال: إنِّي مررت بفلان وهو يشتُمك. فغضب، فقال: ما وجد الشَّيطان رسولاً غيرك؟ فما بَرِحْت من عندِّه حتَّى جاءه ذلك الرَّجل الشَّاتم، فسلَّم على وهب، فردَّ عليه، ومدَّ يده، وصافحه، وأجلسه إلى جنبه.

واجبات عملية:

الطريق إلى سلامة الصدر وصفاء القلب وطهر الروح من كدورات التحاسد والتباغض، طريق سلكها من سبقونا بإيمان، وعينوا لنا صورا منيرة ومنارات مضيئة نذكر منها:

١- صحبة الأخيار:

إذ المعاني القلبية تسترق وتسري وتشع من قلب سليم إلى غيره، قال رسول الله ﷺ: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[1].

٢- محبة الخير للمسلمين:

إن سلامة الصدر تقتضي أن يتمنى المؤمن الخير للناس إن عجز عن سوقه إليهم

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨) وحسنه الألباني.

بيده، لقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١).

٣- إصلاح القلب ومداومة علاجه:

قال رسول الله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(٢).

٤- قراءة القرآن وتدبره:

فهو الدواء لكل داء، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[فصلت: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[يونس: ٥٧].

٥- إفشاء السلام:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»(٣).

ولله در الشاعر إذ أنشد:

قد يمكث الناس دهراً ليس بينهم ... ود فيزرعه التسليم واللطفُ

٦- الدعاء والاستغفار لأخيك:

إنه علاج ناجع، يصفي القلب، ويريح النفس، ويذهب كيد الشيطان، وهو أن يستغفر العبد الذي يجد في صدره شيئا على أخيه ويدعو له، فهذا دأب الصالحين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

٧- الصدقة:

لأنها تطهر القلب، وتُزكي النفس، ولذلك قال الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٣) رواه مسلم (٥٤) والترمذي (٢٦٨٨) وابن ماجه (٦٨).

وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام: «**داووا مرضاكم بالصدقة**»[١].

٨- ترك تتبع أحوال الناس:

امتثالاً لقول النبي ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[٢].

٩- الابتعاد عن الغيبة والنميمة:

حتى يبقى قلب الإنسان سليماً، قال ﷺ: «**لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[٣].

إن سلامة الصدر عبادة ثمينة، وسلوك قلبي عميق، ومشاعر إنسانية رقيقة، صفاء ونقاء، رحمة وحب، راحة وطمأنينة، خير في الدنيا وربح في الآخرة، عمل يسير وأجر عظيم.

قال سفيان بن دينار لأبي بشر أحد السلف الصالحين: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيراً ويؤجرون كثيراً. قال سفيان: ولم ذاك؟ قال أبو بشر: لسلامة صدورهم.

---

(١) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٥٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٩٧٦).

(٣) سبق تخريجه.

٢٧ـ التثبت والتبين

عن الحارث بن ضرار الخزاعي، قال: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه، وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، فُيرسِل إليّ رسول الله ﷺ رسولاً لأبَّان (لحين) كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة.

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله- عز وجل- ورسوله، فدعا بسَرَوَات قومه (بأشرافهم) فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقّت لي وقتاً يرسل إليَّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِق (خاف) فرجع فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه إذ استقبل البَعْثَ وفَصَلَ من المدينة، لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمدا بالحق! ما رأيته بتة ولا أتاني!.

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟» قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسولَ رسولِ الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله- عز وجل- ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا

﴿بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ .... فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحجرات][1].

فمن أهم الآداب الاجتماعية التي بيَّنها الإسلام: وجوب التبيُّن والتَّثبُّت مما يبلغ الإنسان من الأخبار والأقوال، فقد جرى كثير من الناس على المبادرة بتصديق كل خبر، والتسرع في التصرف وفقاً لكل نبأ، دون البحث عن مصدره، أو التحقّق من ثبوته، أو التفكير في مضمونه، وخاصة إذا كان المنقول عنه الخبر خصماً أو منافساً.

التثبت والتبين لغة:

التثبت لغة هو: طلب ما يكون به الثبات على الأمر، أي: لزومه وعدم التحول عنه أو تجاوزه إلى غيره، وبعبارة أخرى: طلب الدليل الموصل إلى الثبات على الأمر.

أو هو: التأنّي أو التريث وعدم الاستعجال. تقول: تثبّت في الأمر والرأي، واستثبت: تأنّى فيه ولم يعجل، واستثبت في أمره: إذا شاور وفحص عنه.

والتبين لغة هو: طلب ما يستبين به الأمر، وتنكشف حاله، تقول: تَبَيَّن الشيء، أي: تَأَمَّله حتى اتضح.

أو هو: التأني أو التريث في الأمر، وعدم الاستعجال فيه، تقول: تبيّن القوم الأمر: تدبروه على مهل، غير متعجلين ليظهر لهم جليا، وتبين في أمره: تثبت وتأنى.

وذكر الإمام الشوكاني في كتابه (فتح القدير): «وَالْمُرَادُ مِنَ التَّبَيُّنِ التَّعَرُّفُ وَالتَّفَحُّصُ، وَمِنَ التَّثَبُّتِ: الْأَنَاةُ وَعَدَمُ الْعَجَلَةِ، وَالتَّبَصُّرُ فِي الْأَمْرِ الْوَاقِعِ، وَالْخَبَرِ الْوَارِدِ حَتَّى يَتَّضِحَ وَيَظْهَرَ».

التثبت والتبين اصطلاحا:

هو: السرعة، أو عدم التأني والتريث، في كل ما يمسّ المسلمين بل الناس جميعا، من أحكام أو تصورات، ومن تناقل وتداول لهذه الأحكام، وتلك التصورات، دون فهم دقيق للواقع، وما يحيط به من ظروف وملابسات.

وإلى هذا أشار القرآن الكريم في تعليقه على حادثة الإفك، حين قال: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ۝١٥﴾ [النور].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٧٩) عن الحارث بن أبي ضرار بسند ضعيف.

قال سيد قطب – رحمه الله: «وهي صور فيها الخفّة والاستهتار، وقلّة الحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ لسان يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا تروٍّ، ولا فحص ولا إمعان نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبّره القلوب، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، بأفواهكم لا بوعيكم، ولا بعقلكم، ولا بقلبكم، إنّما هي كلمات تقذف بها الأفواه قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول.

التثبت والتبين في القرآن والسنة:

وردت كلمة التثبت في القرآن الكريم ثلاث مرات، ووردت كلمة التبين مرة واحدة.

أمرنا الله- عز وجل- بالتثبت والتبين من الخبر: قال تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾[الحجرات: ٦].

قال ابن العربي: ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار؛ لأن الخبر أمانة، والفسق قرينة تبطلها.

والحكمة من التثبت من الخبر: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ قال الطبري: أي: إياكم أن تتسرعوا في نقل أخبار الفاسق دون تمحيص أو تدقيق، فإن ذلك يؤدي إلى الخطأ والجهل، وإصابة البرءاء من الناس في دمائهم وأموالهم، فتصبحوا بالتسرع نادمين على ذلك، ويصيبكم هم وغَمٌّ لازمان، متمنين أن ذلك لم يقع منكم، لأنكم تركتم التأمل والتأني.

عن أنسِ بنِ مَالِكٍ- رضي الله عنه- عن النّبِيِّ ﷺ قالَ: «**التَّأَنِّي مِنَ الله، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»(١).

وقد مدح النبيّ ﷺ مدحا بليغا أهل التأنّي: عن ابن عبّاس- رضي الله عنهما: قالَ نَبِيُّ الله ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ القَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ وَالأَنَاةُ**»(٢).

وأمرنا القرآن بالرجوع إلى القيادة المؤمنة في إذاعة الأخبار: قال تعالى: ﴿ وَإِذَا

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٢٠٢٧٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠١١).
(٢) رواه مسلم (١٤٧٩/ ٣٠).

جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ [النساء].

سبب نزول هذه الآية: ما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: لما اعتزل النبي ﷺ نساءه، دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقمت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي : لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية(١).

وذكر السيوطي: أن الآية نزلت في أهل النفاق أو في ضعفاء الإيمان، كانوا إذا جاءهم أمر الأمن أو الخوف من الأعداء، أذاعوا بالحديث حتى يبلغ عدوهم أمرهم.

وأمر الله تعالى المسلم أن يحفظ جوارحه عن ما لا يعنيه، لأنه سيسأل عن جميع حواسه من سمع وبصر وقلب، قال الله- عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء]

وقال الشنقيطي في أضواء البيان: في هذه الآية الكريمة، ينهى الخالق- جلّ وعلا -الإنسان عن اتباع ما ليس له به علم، ويشمل ذلك قوله: رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع، وعلمت ولم يعلم، ويدخل فيه كل قول بلا علم، وأن يعمل الإنسان بها لا يعلم.

وذمّ الله تعالى المسارعين في نقل الأخبار، فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾[النساء].

فقد روى البخاري ومسلم عن ابنِ عبّاسٍ- رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ قال: كَانَ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ فَلَحِقَهُ

(١) رواه مسلم (١٧).

الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تِلْكَ الْغُنَيْمَةَ[1].

قال الطبري: إن هذه الآية نزلت في سبب قتيل قتلته سريّة لرسول الله ﷺ بعد ما قال: إنيّ مسلم، أو بعد ما شهد شهادة الحق، أو بعد ما سلَّم عليهم لغنيمة كانت معه، أو غير ذلك من ملكه، فأخذوه منه.

وقصّ الله - عز وجل- علينا قصّة داود- عليه السّلام- وكيف علّمه التثبّت في الأحكام، فقال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

وهذا نبي الله سليمان حينما جاءه الهدهد بخبر بلقيس وقومها، لم يصدقه للوهلة الأولى، بل أرسله بكتاب يتبين له من خلاله الأمر، قال تعالى في ذلك ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل]. ولما وصل الكتاب بلقيس و عرفت ما فيه جمعت قومها واستشارتهم في الأمر، ثم بدا لها أن تتبين و تتثبت من أمر سليمان: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾[النمل]، فإن كان نبيًّا لم يقبل الهدية وإن قبلها فليس بنبي ولابد من قتاله، كما ذهب إلى ذلك سيد المفسرين حبر الأمة عبد الله بن عباس، فقال: «قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه».

وعن أبي هريرة ؓ عن النّبيِّ ﷺ قال: «**كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**»[2].

وعن عمرَ بنِ الخطّابِ- رضي الله عنه- قال: «**بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الْكَذِبِ أَنْ**

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩١) ومسلم (٣٠٢٥).

(٢) رواه مسلم في المقدمة (١/ ١٠).

يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»(١).

وعن الإمام مَالِكٍ- رحمه الله- أنّه قال: اعلم أنّه ليس يسلم رجل حدّث بكلّ ما سمع، ولا يكون إمامًا أبدا وهوَ يحدِّثُ بكلّ ما سمع.

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: ضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: **«أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّا ضَحِكْتُ؟»** قَالُوا: مِمَّ ضَحِكْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: **«عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَيْسَ وَعَدْتَنِي أَنْ لا تَظْلِمَنِي؟ قَالَ: فَإِنَّ لَكَ ذَلِكَ، قَالَ: فَإِنِّي لا أَقْبَلُ عَلَيَّ شَاهِدًا إِلا مِنْ نَفْسِي، قَالَ: أَوَلَيْسَ كَفَى بِي شَهِيدًا وَبِالْمَلائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَجَرْتَنِي مِنَ الظُّلْمِ فَلَنْ أُجِيزَ الْيَوْمَ عَلَيَّ شَاهِدًا إِلا مِنْ نَفْسِي. قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَتَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهُنَّ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، عَنْكُنَّ كُنْتُ أُجَادِلُ»**(٢).

وقال ابن عباس: لا ترم أحدًا بما ليس لك به علم.

وقال قتادة: لا تقل سمعت ولم تسمع، ولا تقل رأيت ولم تر، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله.

وقال عمرو بن قيس رضي الله عنه: يقال للأذن يوم القيامة: هل سمعتِ؟ ويقال للعين يوم القيامة: هل رأيتِ؟ ويقال للفؤاد يوم القيامة مثل ذلك...!

مواقف في التثبت والتبين من عصر النبوة والسلف الصالح:

ومن الأمثلة العملية أيضا في التثبت والتبين:

١- **قصة ماعز بن مالك الأسلمي**: لما جاء إلى الرسول ﷺ ووقف أمامه وقال: يا رسول الله! زنيت فطهرني. فلم يقبل الرسول- عليه الصلاة والسلام- منه أول مرة، حتى اعترف على نفسه أربعة اعترافات بأنه قد زنى، ثم بعد ذلك **ما قبل منه**، حتى يتثبت: هل الرجل الآن في حالة سكر؟ تعالوا يا خبراء استنكهوا الرجل- شموه- هل هو سكران؟ قالوا: ما به سكر.

ثم دعا رسول الله ﷺ قومه وقبيلته، فقال: هل في عقله شيء؟ قالوا: لا يا رسول الله، ليس في عقله شيء.

---

(١) رواه مسلم (٥).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٩).

حتى تَثَبَّتَ وتبين أن الرجل فعلاً قد وقع في الزنى، فأقام عليه ﷺ الحد[1].

٢- **حادثة الإفك**: لما قال أصحاب الإفك في عائشة- رضي الله عنها- ما قالوا، وفاض ذلك في الناس، ربى الله تعالى المؤمنين من خلال هذه الحادثة على آداب وأخلاق عظيمة: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النور]؛ ولذلك فإن أبا أيوب ﷺ لما سألته زوجته أم أيوب، فقالت: يا أبا أيوب، أسمعت ما قيل؟ قال: نعم، يا أم أيوب! وذلك الكذب، ثم قال لها: يا أم أيوب، أرأيت لو كنتِ مكان عائشة، أكنت تفعلين؟! قالت: لا، قال: لو كان أبو أيوب مكان صفوان أكان يفعل؟! قالت: لا! قال: فصفوان خير مني، وعائشة خير منكِ..!

٣- وروي عن عمر بن عبد العزيز- رحمه الله: أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً. فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم]، وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا.

٤- وروي عن علي ﷺ أن رجلاً سعى إليه برجل فقال له: «يا هذا، نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين».

وكل هذه الأمثلة والقصص وغيرها تربي الصحابة- رضي الله عنهم- والسلف الصالح على ضرورة التثبت وعدم التسرع في الأقوال، أو في الأعمال أو في المواقف التي يتخذونها من بعضهم، من إخوانهم المؤمنين.

ثمار الثبت والتبين:

١- حفظ الأرواح وصيانة الدماء.

٢- دليل رجاحة العقل وسلامة التفكير.

٣- يثمر الثقة بالنفس.

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٥).

٤- التبين يحفظ حقوق الأفراد والجماعات ولا يجعلها عرضة للظن.

٥- يقي المجتمع من مخاطر القرارات السريعة غير المدروسة.

٦- توثيق عرى الأخوة ووحدة الصف.

٧- تحقيق العدل بين الناس.

واجبات عملية:

١- مراقبة الله:

عن عطية السعدي- وكان من أصحاب النبي ﷺ- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس»**(١).

٢- التذكير بالوقوف بين يدي الله- سبحانه وتعالى- للحساب والجزاء:

قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصفات].

وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفًا يوم القيامة لازمًا به لا يفارقه وإن دعا رجل رجًلا»** ثم قر أ قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾(٢).

قال ابن كثير: أي: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا، كما قال الضحاك عن ابن عباس: يعني: احبسوهم إنهم محاسبون.

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رجلا قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ قال: **«يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلًا لك، وإن كان عقابا إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل»** قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف. فقال رسول الله ﷺ: **«أما تقرأ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ الآية [الأنبياء: ٤٧]»** فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئا خيرًا من مفارقتهم،

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١) وابن ماجه (٤٢١٥) وضعفه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٢٨) وقال: حديث غريب.

أشهدكم أنهم أحرار كلهم[(١)].

٣- انشغال الإنسان بما يعنيه وانصرافه عما لا يعنيه:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[(٢)].

٤- طول الصمت إلا عن خير:

عَنْ أَنَسٍ- رَضِيَ الله عَنْهُ- قَالَ: لَقِيَ رَسُولُ الله ﷺ أَبَا ذَرٍّ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَصْلَتَيْنِ هُمَا أَخَفُّ عَلَى الظَّهْرِ وَأَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ؟**» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَطُولِ الصَّمْتِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَمِلَ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا**»[(٣)].

كما اعتبر الإسلام النجاة في طول الصمت، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صمت نجا**»[(٤)].

٥- سلامة الصدر من الأحقاد:

قال الشيخ محمد الغزالي: ومن أجل أن يكون الصدر سليمًا من الأحقاد، حرم الإسلام الافتراء على الآخرين، وحرم الغيبة، والنميمة، وسوء الظن، وتتبع العورات، والغمز واللمز، وتعيير الناس بعاهاتهم؛ لأن المؤمن يتمنى الخير للناس إن عجز عن سوقه إليهم بيده، ويتأسى لآلامهم، ويشتهي لهم العافية.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**تعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين، فيغفر الله- عز وجل- في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اتركوا هذين حتى يصطلحا، اتركوا هذين حتى يصطلحا**»[(٥)].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٦٥) وصحح إسناده الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٩٧٦) وصححه الألباني.

(٣) رواه أبو يعلى (٣٢٩٨) والطبراني في الأوسط (٧١٠٣) والبيهقي في الشعب (٤٥٩١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢): «رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط ورجال أبي يعلى ثقات».

(٤) رواه الترمذي (٢٥٠١) وأحمد (٢/ ١٥٩) وصححه الألباني.

(٥) رواه مسلم (٢٥٦٥/ ٣٦).

٦- أن يتصور المسلم نفسه في موطن من يُؤخذ بغير تثبت:

ومن سبل العلاج لهذه الآفة الخطيرة، أن يتصور المسلم نفسه مكان من يُؤخذ ويُعامل بغير تثبت، وأن يسأل نفسه:

هل تحب أن يتعامل معك الناس على أساس من الظن القائم على الشبهة بدون تحقق؟

هل تحب أن يتهمك الناس بغير دليل ولا حجة ولا برهان؟

هل تحب أن يُمارَس عليك الظلم من قبل الآخرين؟

وهي أسئلةٌ تدل على آثار عدم الأخذ بمنهج التثبت، ومن شأنها أن تحمله على تعديل خطواته في الطريق، إذ ما لا يرضاه لنفسه، لا يرضاه لغيره.

٢٨ـ اليسر

عن أبي أمامة ﷺ قال: كانت امرأة عثمان بن مظعون امرأة جميلة عطرة تحب اللباس والهيأة لزوجها، فزارتها عائشة وهي تفلة. قالت: ما حالك هذه؟ قالت: إن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ منهم علي بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وعثمان بن مظعون قد تخلوا للعبادة، وامتنعوا من النساء وأكل اللحم، وصاموا النهار، وقاموا الليل، فكرهت أن أريه من حالي ما يدعوه إلى ما عندي لما يخلي له. فلما دخل النبي ﷺ أخبرته عائشة، فأخذ رسول الله ﷺ نعله فحملها بالسبابة من إصبعه اليسرى، ثم انطلق سريعًا حتى دخل عليهم فسألهم عن حالهم. قالوا: أردنا الخير. فقال رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت بالحنيفية السمحة، ولم أبعث بالرهبانية البدعة، ألا وإن أقوامًا ابتدعوا الرهبانية فكتبت عليهم فما رعوها حق رعايتها، ألا فكلوا اللحم، وائتوا النساء، وصوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فإني بذلك أمرت**»(١).

اليُسْر مقصد من مقاصد الدِّين الكبرى، جعله الله تعالى أساساً لكل ما أمر به ونهى عنه في كتابه وسنة نبيه، وخلق عظيم من أخلاق المسلم.

اليسر لغة :

قال ابن فارس: الياء والسين والراء: أصلان يدل أحدهما عَلى انفتاح شيء، وخفته، والآخر على عضو من الأعضاء. فالأول: اليُسْر ضد العسر... والكلمة الأخرى : اليسار لليد.

اليسر اصطلاحا :

هو : عمل فيه لين وسهولة وانقياد، أو هو: رفع المشقة والحرج عن المكلف بأمر من الأمور، لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم.

اليسر في القرآن والسنة:

ورد لفظ (اليسر) في القرآن الكريم في واحد وأربعين موضعاً، خلا لفظ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٧٦١٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٦٠): «فيه علي بن يزيد وهو ضعيف».

(الميسر)، وقد ورد في خمسة عشر موضعاً بصيغة (الفعل)، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]، وورد بصيغة (الاسم) في ستة وعشرين موضعاً، منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ولفظ (اليسر) جاء في القرآن الكريم على عدة معانٍ، هي:

- **بمعنى (هين)**: ومثاله قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج]، قال الطبري: ﴿يَسِيرٌ﴾ يعني: هين.

- **بمعنى (الخفيِّ)**: ومثاله قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان].

- **بمعنى (قليل)**: ومثاله قوله سبحانه في قصة يوسف- عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف].

- **بمعنى (التخفيف والتسهيل)**: ومثاله قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

- **بمعنى (الرخاء والفرج)**: ومثاله قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح].

- **بمعنى (السهل)**: ومثاله قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

- **بمعنى (العِدَة الحسنة)**: ومثاله قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء].

وبما تقدم يُعلم: أن لفظ (اليسر) ورد في القرآن الكريم بحسب معناه الأول في اللغة، وهو معنى التيسير، والتسهيل، والتخفيف، ولم يأت في القرآن الكريم بمعناه الثاني، وهو اليد الجارحة المقابلة لليمين.

والآيات الدالة على هذا الخلق كثيرة في القرآن الكريم، نذكر منها على سبيل المثال:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة: ١٨٥].

قال القرطبي: اليسر الفطر في السفر، والعسر الصوم في السفر، والوجه عموم اللفظ في جميع أمور الدين كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال: واليسر من السهولة، ومنه اليسار للغني. وسميت اليد اليسرى تفاؤلاً، أو لأنه يسهل له الأمر بمعاونتها لليمنى، قولان. وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ هو بمعنى قوله: يريد الله بكم اليسر، فكرر تأكيداً.

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

قال ابن كثير: يريد الله أن يخفف عنكم أي: في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإماء بشروط كما قال مجاهد وغيره، وخلق الإنسان ضعيفاً، فناسبه التخفيف؛ لضعفه في نفسه، وضعف عزمه وهمته.

قال الطبري: يعني- جل ثناؤه- بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾: يريد الله أن ييسر عليكم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

قال القرطبي: قوله - تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضيق في الدين، دليله قوله - تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ومن صلة، أي: ليجعل عليكم حرجاً، ولكن يريد ليطهركم، أي: من الذنوب.. وقيل: من الحدث والجنابة، وقيل: لتستحقوا الوصف بالطهارة التي يوصف بها أهل الطاعة.. وليتم نعمته عليكم أي: بالترخيص في التيمم ثم المرض والسفر، وقيل بتبيان الشرائع، وقيل بغفران الذنوب.

وقال الطبري: يعني- جل ثناؤه- بقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾: ما يريد الله بما فرض عليكم من الوضوء إذا قمتم إلى صلاتكم والغسل من جنابتكم والتيمم صعيدًا طيبًا ثم عدمكم الماء، ليجعل عليكم من حرج ليلزمكم في دينكم من ضيق ولا ليُعْنِتَكُم.

وقال ابن كثير: وقوله ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: في الدين الذي شرعه لكم، ولكن يريد ليطهركم. فلهذا أباح التيمم إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون، ولهذا كانت هذه الأمة مخصوصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم.

وقال أيضاً: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة كما ورد به الحديث، وتصلى رجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط لعذر المرض، فيصليها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه. إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات.

أما الأحاديث الدالة على هذا الخلق العظيم ولا تكاد تحصى، فنذكر منها:

عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «**يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلا تُنَفِّرُوا**»(١).

وعن أبي محجن، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله رضي لهذه الأمة اليسر، وكره لها العسر**»(٢).

وعن أبي موسى ﷺ قال: قال ﷺ: «**ادعوا الناس، وبشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**»(٣).

وكان ﷺ يقول: «**إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ**»(٤).

وخَرجَ يومًا يقطر رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا حرج في كذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ دِينَ اللهِ فِي يُسْرٍ**»(٥) ثلاثًا.

وقال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(٦).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحب الدين إلى الله الحنيفية**

---

(١) رواه البخاري (٦١٢٥) ومسلم (١٧٣٤/ ٨).
(٢) رواه الطبراني في الكبير (٧٧)، وصححه الألباني.
(٣) رواه مسلم (١٧٣٢/ ٦).
(٤) رواه أحمد (٣/ ٤٧٩) والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٢)، وحسنه الألباني.
(٥) رواه أحمد (٥/ ٦٩).
(٦) رواه أحمد (٥/ ٢٦٦).

السمحة»[١].

وقال رسول الله: «**يسروا ولا تعسروا**»[٢].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذا الدين يسر**»[٣].

وعن السيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت: «**مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الآخَرِ، إِلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْماً**»[٤].

وفي الحديث: «**إن الله يحب أن تُؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه**»[٥].

وقال ﷺ: «**إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً**»[٦].

مواقف نبوية في اليسر:

والمتمعن في السيرة النبوية يجد أن سلوك النبي ﷺ وتعامله مع صحابته مبني على منهج التيسير والسماحة، والشواهد أكثر من أن تعد أو تحصى، ولكن نكتفي بسرد بعض الحوادث.

فعن أبي هريرة ﷺ أن أعرابيًا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ :«**دعوه، وأهرقوا على بوله ذنوبًا من ماء، أو سجلاً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسِّرين**»[٧].

وقال أبو هريرة ﷺ: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت، قال: «**ما لك؟**» قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: «**هل تجد رقبة تعتقها؟**» قال: لا، قال: «**فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟**» قال: لا، فقال: «**فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟**» قال: لا، قال: فمكث النبي ﷺ، فبينا نحن على ذلك أتي النبي ﷺ بعرق فيها تمر - والعرق: المكتل- قال:

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٧٣٥١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٠): «فيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري، منكر الحديث».

(٢) رواه البخاري (٦٩) ومسلم (١٧٣٤/ ٨).

(٣) رواه النسائي (٥٠٣٤) وصححه الألباني.

(٤) رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧/ ٧٧).

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٠٦).

(٦) رواه مسلم (١٤٧٨/ ٢٦).

(٧) رواه البخاري (٦١٢٨).

«**أين السائل؟**» فقال: أنا، قال: «**خذها فتصدَّق بها**»، فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها - يريد الحرتين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال: «**أطعمه أهلك**»[1].

أقوال السلف الصالح في اليسر:

يقول عبد الله بن مسعود في وصف منهج إخوانه من الصحابة والاقتداء بهم: من كان منكم مستنًّا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

ويقول أيضا: إياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق.

قال الإمام الشعبي: إذا اختلف عليك أمران فإن أيسرهما أقربهما إلى الحق لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[البقرة: ١٨٥].

وقال سفيان الثوري: إنما العلم أن تسمع بالرخصة من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد.

وقال إبراهيم النخعي: إذا تخالجك أمران، فَظُنَّ أن أحبهما إلى الله أيسرهما.

فالمتأمل لهذه الآثار من الكتاب والسنة وأقوال السلف، يلحظ أن هذا المعنى غائب عن واقع وفهم كثير من المسلمين، وقليل منهم من يدرك هذه الحقيقة ويتعامل معها؛ حيث إنه يوجد من لو سئل عن هذا الأمر لأجاب الإجابة الصحيحة، ولكن عند التأمل في واقعه وتعامله والتزامه لا نجد إلا الإفراط أو التفريط.

أهداف اليسر في الإسلام:

لليسر في الإسلام أهداف عظيمة ومقاصد سامية، ويمكن تقسيم هذه الأهداف إلى عدة أقسام، تكون على النحو التالي:

١- اليسر في العقائد :

إن الإسلام دين السماحة واليسر، شُرعت أحكامه ليعتنقها أكبر قدر ممكن من

(١) رواه البخاري (١٩٣٦).

البشر، وقد سلك الإسلام في سبيل تحقيق هذا الهدف أسلوب الترهيب تارة، وأسلوب الترغيب تارة أخرى. والشريعة الإسلامية بسلوكها هذا الطريق إنما تتمشى مع الطبيعة البشرية التي تنفر من الصعب، وتمقت التعقيد، وذلك بسبب ما فُطرت عليه من الضعف كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، فكانت العقيدة خالية وبعيدة عن التعقيد فأقبل الناس عليها.

٢ - اليسر في العبادات:

إن المتتبع لأبواب الشريعة يرى أنها تهدف من وراء يسر التكاليف وسهولتها إلى تمكين المسلم من أداء العبادة بحسب ظروفه، سواء أكانت هذه الظروف خاصة بالجهل، أم بالإكراه، أم بالعجز وعدم القدرة. ويدل على ذلك الأمثلة الحية التي نطبقها في حياتنا اليومية أكثر من مرة.

كذلك تهدف الشريعة من وراء يسر التكاليف المحافظة على النفس، فالمريض الذي يخشى أن يزيد الصوم من مرضه، أو يؤخر من شفائه، جائز له الفطر، وعليه الإعادة إن عادت له القدرة، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، كما أن المجاهد في الميدان تباح له الصلاة على أي وضع كان، قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾.

٣- اليسر في الحياة الاجتماعية :

فإن رعاية العرف نوع من التيسير، إذ من التيسير على الناس أن يقروا على ما ألفوه وتعارفوه، واستقر عليه أمرهم على مر السنين والأجيال ما لم يصطدم مع الشرع.

كما يهدف الإسلام في تشريع المعاملات المالية إلى سد حاجات الناس، وقضاء حوائجهم، كما يهدف الإسلام من تيسيره التعاملي إلى ضمان السرعة، والمرونة؛ لأنهما عنصران لازمان لنجاح الكثير من التعاملات المالية، فإذا كانت الإجراءات بطيئة معقدة لا تساير ظروف الناس ومتطلباتهم في أحوالهم المختلفة، فإن كثيرًا من الفرص السانحة ستضيع، ويشيع الكساد والتعطل.

٤ - اليسر في الجانب الجنائي والقانوني :

سلك الإسلام مسلك اليسر في التشريعات الجنائية، ليحقق الرحمة بالمجتمع، وحقن الدماء، وتحقيق أكبر قدر ممكن من العدالة، وإصلاح الجاني.

٥ - اليسر في الجانب السلوكي والتربوي:

إن منهج اليسر في الإسلام منهج متكامل، يُعنى بالحياة من جميع جوانبها، ومن ذلك مراعاة الجوانب السلوكية، مما يضمن له الشمول والبقاء، وإبعاد السآمة والملل في العبادات، وضمان الاستمرار وعدم الانقطاع عن الطاعات، وقطع الأعذار على الناس، وعدم الخلل.

واجبات عملية:

١- **الإخلاص لله ﷻ**: فإذا أخلص في تحقيق هذه الغاية، فإن اليسر في الحياة يأتي تبعاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [الطلاق].

٢- **الصبر على الضيق، واحتساب الأجر عند الله، والإيمان بأن هذا الضيق قد يكون مقدمة وباباً لفرج كبير**: قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وفي آية أخرى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ۝١٩﴾ [النساء]، ويقول عمر بن الخطاب: «ما أبالي أصبحت على ما أحب أو على ما أكره، لأني لا أدري الخير في ما أحب أو في ما أكره».

٣- **اليقين بالفرج**: اليقين بأن فرج الله آت لا ريب فيه، وأن بعد الضيق سعة، وأن بعد العسر يسرا، وأن ما وعد الله به المؤمنين من النصر، وما وعد به المبتلين من العوض والإخلاف لا بد أن يتحقق، كل ذلك جدير بأن يطرد شبح اليأس من القلب، ويبدد ظلمة القلق من النفس، ويضيء الصدر بالأمل في الظفر والثقة بالغد. وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ فلم يجعل سبحانه اليسر بعد العسر أو عقبه بل معه، وذلك لينبه على أمرين:

الأول: قرب تحقق اليسر بعد العسر مباشرة، حتى كأنه معه أو متصل به.

الثاني: أن مع العسر – بالفعل- يسرا لا ريب فيه، قد يكون ظاهرا ملموسا، وقد يكون خفيا مكنونا، وذلك ما يسمى باللطف.

٤- **طلب العلم والحرص على التعلم**: فإن العسر والتشدد والتنطع كثيرًا ما يدعو إليه قلة الفقه في الدين، والجهل بمقاصد الشرع وأصول الملة وضعف العلم، وقد يدعو إليه دوافع من هوى النفوس، وفي الحديث الصحيح: «**إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه**

برفق»(١).

يقول ابن نمير: وفي هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام النبوة؛ فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطعٍ في الدين ينقطع، وليس المراد من قام بالأكمل في الدين والعبادة، فإن هذا من الأمور المحمودة، بل المراد منع الإفراط المؤدي إلى الملل، والمبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل.

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقا يبتغي به علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»(٢).

٥- **التيسر على الناس**: فما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما، فنيسر على الناس في كل أمر، ونحمل الناس على تنفيذ أمر الله ﷻ بالحب، والابتعاد عن التساهل والتفريط في الحرمات.

٦- **التخلق بخلق اليسر**: فعنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عَبْدِ الله عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ الله أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ الله عَنْهُ**»(٣)، وفي رواية لمسلم: «**قال الله ﷻ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ**»(٤).

٧- **اللين في القول**: قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٩٨)، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن بشواهده، وهذا إسناد ضعيف.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١) وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٢٠٧٨، ٣٤٨٠) ومسلم (١٥٦٢/ ٣١).

(٤) رواه مسلم (١٥٦١/ ٣٠).

٢٩ـ الألفة

في تفسير ابن جرير وابن كثير: أن عمر عندما سافر إلى الشام قال: أين أخي؟

قالوا: كلنا إخوانك. قال: أخي أبو عبيدة. قالوا: يأتيك الآن [فهو له أخ من نوع آخر، أخ قريب وحميم]

يقول عمر للناس: تمنوا. فكلهم يتمنى أمنيته؛ فيقول عمر: أتمنى أن لي ملء هذا البيت رجالاً من أمثال أبي عبيدة ﷺ.

فقال: أين أخي؟ قالوا: أخوك يأتيك الآن

فأتى أبو عبيدة على ناقة ليس عليها قتب، وخطامها من ليف، فتعانقا وجلسا على الطريق يبكيان. يقول أحدهما: تخلفنا عن الرسول ﷺ وفعلنا وفعلنا .

قال عمر: يا أبا عبيدة أريد أن أبيت عندك الليلة.

قال: تريد أن تعصر عيونك عندي بالبكاء؟

قال: أريد أن أبيت الليلة عندك؛ فأتى، وأبو عبيدة آنذاك أمير الأمراء، ودخل معه وقدم له خبز الشعير على الملح.

يأكلون خبز شعير ولكن قلوبهم ترتحل إلى الله، إخاءً وحباً وصفاءً؛ إن الدنيا ليس لها طعم مع الفرقة، إن الإمكانيات التي تطرح وتقدم من خدمات ليس لها مذاق مع الشتات.

فجلس معه فلما أراد أن ينام قدم له شملة، افترش نصفها والتحف نصفها، فأخذ عمر الشملة يبكي داخلها، ويقول: أمير الأمراء على شعير، أمير الأمراء على ملح، أمير الأمراء على شملة..!!؟ قال أبوعبيدة وهو يسمع بكاء الخليفة: أما قلت: إنك سوف تعصر عيونك عندي في البيت؟

هذه المحبة التي تذوقتها قلوب الرعيل الأول، كانت الألفة طريقها، فعاشوا في نعيم دائم.

الأُلْفَةُ لغةً:

الإِلْفُ بالكسر: الأَلِيفُ، وجمع الأَلِيف: أَلَائِفُ، كتَبِيعٍ وتَبَائِع، والأُلَّافُ: جمع

آلِفٍ، وفلانٌ قد أَلِفَ هذا الموضع بالكسر يَأْلَفُهُ إِلْفًا- بالكسر أيضًا- وآلَفَهُ إيَّاه غيره، ويُقَالُ- أيضًا: آلَفْتُ الموضع أُولِفُهُ إيلَافًا، وآلَفْتُ الموضع أُؤَالِفُهُ مُؤَالَفَة.

وقال أبو عُبَيْدٍ: أَلِفْتُ الشَّيء وآلَفْتُه- بمعنًى واحدٍ: لَزِمْتُهُ، فهو مُؤْلَفٌ ومأْلُوفٌ... وقال أَبو زيدٍ: أَلِفْتُ الشَّيء وأَلِفْتُ فُلَانًا إِذَا أَنِسْت بِهِ، وأَلَّفْتُ بينهم تأْلِيفًا إذا جَمَعْتَ بَيْنَهُمْ بعد تَفَرُّقٍ.

الأُلْفَة اصطلاحًا:

الأُلْفَة: اتِّفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش.

وقال الرَّاغب: الإلْفُ: اجتماع مع التئام، يقال: أَلَّفْتُ بينهم، ومنه: الأُلْفَة.

الأُلْفَة في القرآن الكريم والسنة:

قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال الرَّاغب الأصفهاني: «قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ حثٌّ على الأُلْفَة والاجتماع، الذي هو نظام الإيمان واستقامة أمور العالم، وقد فضَّل المحبَّة والأُلْفَة على الإنصاف والعدالة، لأنَّه يُحتاج إلى الإنصاف حيث تفقد المحبَّة. ولصدق محبَّة الأب للابن صار مؤتمنًا على ماله، والأُلْفَة أحد ما شرَّف الله به الشَّريعة سيَّما شريعة الإسلام».

وقال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال الزَّمخشريُّ: «كانوا في الجاهليَّة بينهم الإحَن والعداوات والحروب المتواصلة، فألَّف الله بين قلوبهم بالإسلام، وقذف فيها المحبَّة، فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخوانًا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمرٍ واحد، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوَّة في الله».

وقال السُّيوطي: «إذ كنتم تذابحون فيها يأكل شديدكم ضعيفكم، حتى جاء الله بالإسلام فآخى به بينكم وألف به بينكم، أما والله الذي لا إله إلَّا هو إنَّ الأُلْفَة لرحمة وإنَّ الفُرْقَة لعذاب».

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٣ ﴾ [الأنفال].

قوله: ﴿أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ «فاجتمعوا وائتلفوا، وازدادت قوَّتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوَّة غير قوَّة الله، فلو أنفقت ما في الأرض جميعًا مِن ذهب وفضَّة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النُّفرة والفُرقة الشَّديدة، ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنَّه لا يقدر على تقليب القلوب إلَّا الله تعالى، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومِن عزَّته أن ألَّف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة».

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: «أي: جمع بين قلوب الأوس والخزرج. وكان تألُّف القلوب مع العصبيَّة الشَّديدة في العرب مِن آيات النَّبيِّ ﷺ ومعجزاته، لأنَّ أحدهم كان يُلْطَم اللَّطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها. وكانوا أشدَّ خَلْق الله حميَّة، فألَّف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرَّجل أباه وأخاه بسبب الدِّين. وقيل: أراد التَّأليف بين المهاجرين والأنصار. والمعنى متقارب».

إنَّ الدِّين الإسلامي دين الأُلْفَة والتَّوادد والتَّعارف، يحثُّ أتباعه على الأُلْفَة والمحبَّة، قال ﷺ: «**إنَّ أحبكم إليَّ أحاسنكم أخلاقًا، الموطَّأون أكنافًا، الذين يألفون ويُؤلفون، وإنَّ أبغضكم إليَّ المشَّاؤون بالنَّميمَة، المفرِّقون بين الأحبَّة، الملتمسون للبرآء العنت، العيب**»(١).

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في النَّاس في المؤلَّفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا، فكأنَّهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب النَّاس، فخطبهم فقال: «**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرِّقين فألَّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟**» كلَّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنّ. قال: «**ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟**» قال: كلَّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنّ. قال: «**لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب النَّاس بالشَّاة والبعير، وتذهبون بالنَّبيِّ ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأً مِن الأنصار، ولو سلك النَّاس واديًا وشِعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والنَّاس دثار، إنَّكم ستلْقَون بعدي أَثَرَة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»(٢).

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٨٣٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١): «وفيه صالح ابن بشير المري وهو ضعيف».

(٢) رواه البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١).

وهذا مِن أكبر نعم الله في بعثة رسول الله ﷺ: أن ألَّف به بين قوم قويت بينهم العصبيَّات، وينبغي أن يكون شأن المسلم هكذا: يؤلِّف بين المتفرِّقين ويأتلف حوله المحبون .

- وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن يألَف ويُؤْلَف، ولا خير فيمن لا يألَف ولا يُؤْلَف، وخير النَّاس أنفعهم للنَّاس**»(١).

قال المناوي في شرح قوله: «المؤمن يألَف» قال: «لحسن أخلاقه وسهولة طباعه ولين جانبه. وفي رواية: «إلْفٌ مَألُوفٌ»، والإلْف: اللَّازم للشَّيء، فالمؤمن يألَف الخير، وأهله ويألفونه بمناسبة الإيمان، قال الطَّيبي: وقوله: «المؤمن إلْفٌ» يحتمل كونه مصدرًا على سبيل المبالغة، كرجل عدل، أو اسم كان، أي: يكون مكان الألْفَة ومنتهاها، ومنه إنشاؤها وإليه مرجعها، «ولا خير فيمن لا يألَف ولا يُؤْلَف» لضعف إيمانه، وعُسْر أخلاقه، وسوء طباعه. والألْفَة سببٌ للاعتصام بالله وبحبله، وبه يحصل الإجماع بين المسلمين وبضِدِّه تحصل النُّفْرة بينهم، وإنَّما تحصل الألْفَة بتوفيقٍ إلهي... ومِن التَّآلف: ترك المداعاة والاعتذار عند توهُّم شيء في النَّفس، وتَرْك الجدال والمراء وكثرة المزاح».

وقال الماورديُّ: «بيَّن به أن الإنسان لا يُصْلِح حاله إلَّا الألْفَة الجامعة؛ فإنَّه مقصود بالأذيَّة، محسود بالنِّعمة، فإذا لم يكن إلفًا مألوفًا تختطفه أيدي حاسديه، وتحكَّم فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة ولم تَصْفُ له مدَّة، وإذا كان إلفًا مألوفًا انتصر بالألْف على أعاديه، وامتنع بهم مِن حسَّاده فسلمت نعمته منهم، وصفت مودَّته بينهم، وإن كان صفو الزَّمان كدرًا ويُسْرُه عسرًا وسلمه خطرا».

قال الرَّاغب الأصفهاني: «ولذلك حثَّنا على الاجتماعات في الجماعات والجمعات، لكون ذلك سببًا للألْفَة، بل لذلك عظَّم الله تعالى المنَّة على المؤمنين بإيقاع الألْفَة بينهم... وليس ذلك في الإنسان فقط، بل لولا أنَّ الله تعالى ألَّف بين الأركان المتضادة، لما استقام العالم، ولذلك قال- عليه السَّلام: «**بالعدل قامت السَّموات والأرض**»(٢)، ومتى تصوَّر هذه الجملة، عَلِم أنَّ الآية في نهاية الذَّم».

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٥٧٨٧) والقضاعي في مسند الشهاب (١٢٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٦٢).

(٢) رواه الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ١٢٤، ١٢٥) عن ابن عباس بدون إسناد.

وعن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «**خيار أئمتكم: الذين تحبُّونهم ويحبُّونكم، ويصلُّون عليكم وتصلُّون عليهم، وشرار أئمتكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**»(١).

إنَّ خيار النَّاس في نظر الشَّرع هم الذين يألَفون ويُؤْلَفون، وخاصَّة حين يكونون في منصب أو مسؤوليَّة، إذ قد ينزلقون إلى صورٍ مِن الغلظة والجفوة حين يكونون مطلوبين لا طالبين.

وقال ﷺ: «**النَّاس معادن كمعادن الفضَّة والذَّهب، خيارهم في الجاهليَّة خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنودٌ مجنَّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»(٢).

قال القاري: «التَّعارف جريان المعرفة بين اثنين، والتَّناكر ضِدُّه، أي: فما تعرَّف بعضها مِن بعض قبل حلولها في الأبدان. «ائتلف»... أي: حصل بينهما الأُلْفَة والرَّأفة حال اجتماعها بالأجساد في الدُّنْيا، «وما تناكر منها» أي: في عالم الأرواح. «اختلف» أي: في عالم الأشباح، والإفراد والتَّذكير في الفعلين باعتبار لفظ ما، والمراد منه بطريق الإجمال- والله أعلم بحقيقة الحال- أنَّ الأرواح البشريَّة التي هي النُّفوس النَّاطقة مجبولة على مراتب مختلفة وشواكل متباينة، وكلُّ ما شاكل منها في عالم الأمر في شاكلته تعارفت في عالم الخَلْق وائتلفت واجتمعت، وكلُّ ما كان على غير ذلك في عالم الأمر تناكرت في عالم الخَلْق فاختلفت وافترقت، فالمراد بالتَّعارف ما بينهما مِن التَّناسب والتَّشابه، وبالتَّناكر ما بينهما مِن التَّنافر والتَّباين، فتارة على وجه الكمال وتارة على وجه النُّقصان، إذ قد يوجد كلٌّ مِن التَّعارف والتَّناكر بأدنى مشاكلة بينهما، إمَّا ظاهرًا وإمَّا باطنًا، وبحقيقة يطول وتخاف مِن إعراض الملول واعتراض الفضول».

أقوال السَّلف والعلماء في الأُلْفَة:

* عن مجاهد قال: «رأى ابن عبَّاس رجلًا فقال: إنَّ هذا ليحبُّني. قالوا: وما علمك؟ قال: إنِّي لأحبُّه، والأرواح جنودٌ مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر

(١) رواه مسلم (١٨٥٥).
(٢) رواه مسلم (٢٦٣٨).

منها اختلف».

* وعن الأوزاعيِّ قال: كتب إليَّ قتادة: إن يكن الدَّهر فرَّق بيننا، فإنَّ أُلْفَةَ الله الَّذي ألَّف بين المسلمين قريب.

وعنه- أيضًا- قال: «سمعت بلال بن سعد بن تميم، يقول: أخٌ لك كلَّما لقيك ذكَّرك بحظِّك مِن الله، خيرٌ لك مِن أخٍ كلَّما لقيك وضع في كفِّك دينارًا».

* وقال يونس الصَّدفي: «ما رأيت أعقل مِن الشَّافعي، ناظرته يومًا في مسألة، ثمَّ افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثمَّ قال: يا أبا موسى، ألَا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتَّفق في مسألة».

* وقال السُّلمي: «وأصل التَّآلف هو بغض الدُّنْيا والإعراض عنها، فهي التي توقع المخالفة بين الإخوان».

* وقال الْغَزالِي: «الأُلْفَة ثَمَرَة حُسْن الخُلُق، والتَّفرق ثَمَرَة سوء الخُلُق، فَحُسْن الخُلُق يُوجب التَّحبُّب والتَّآلف والتَّوافق، وسُوء الخُلُق يُثمر التَّباغض والتَّحاسد والتَّناكر».

وقال أيضًا: «إنَّ مِن النَّاس مَن إذا رآه المرء يُعْجَب به، فإذا ازداد به علمًا ازداد به عجبًا. ومنهم مَن يبغضه حين يراه، ثمَّ لا يزداد به علمًا إلَّا ازداد له مقتًا، فاتِّفاقهما يكون باتِّفاق الرُّوحين قديمًا».

* وقال ابن تيمية: «إنَّ السَّلف كانوا يختلفون في المسائل الفرعيَّة، مع بقاء الأُلْفَة والعصمة وصلاح ذات البين».

* وقال الأبشيهي: «التَّآلف سبب القوَّة، والقوَّة سبب التَّقوى، والتَّقوى حصنٌ منيع وركن شديد، بها يُمْنَع الضَّيم، وتُنَال الرَّغائب، وتنجع المقاصد».

واجبات عملية:

١- التَّعارف ومعاشرة النَّاس:

قال ﷺ: **«الأرواح جنودٌ مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»**[١].

---

(١) سبق تخريجه.

وقال أبو حاتم: «سبب ائتلاف النَّاس وافتراقهم بعد القضاء السَّابق هو: تعارف الرُّوحين، وتناكر الرُّوحين، فإذا تعارف الرُّوحان وُجِدَت الأُلْفَة بين نفسيهما، وإذا تناكر الرُّوحان وُجِدَت الفُرْقَة بين جسميهما».

وقال أحمد بن محمد بن بكر الأبناوي: إن القلوب لأجناد مجندة لله في الأرض بالأهواء تعترف، فما تعارف منها فهو مؤتلف، وما تناكر منها فهو مختلف.

وقال عبد الله بن مسعود: «الأرواح جنود مجندة تلاقى، فتشام كما تشام الخيل، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. ولو أن مؤمنًا دخل مسجدا فيه مائة ليس فيهم إلا مؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه، ولو أن منافقا دخل مسجدا فيه مائة ليس فيهم إلا منافق واحد، لجاء حتى يجلس إليه».

وقال الفضيل بن عياض: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، ولا يمكن أن يكون صاحب سنة يمالئ صاحب بدعة إلا من النفاق».

وعن ميمون بن مهران، قال: «لقي سلمان رجلا، فقال: «أتعرفني؟ قال: لا، ولكن عرف روحي روحك».

وقال الأوزاعي: «يُعرف الرجل في ثلاثة مواطن: بألفته، ويعرف في مجلسه، ويعرف في منطقه».

٢- التَّواضع:

إنَّ «خفض الجنَاح، ولين الكَلِمَة، وتَرْك الإغلاظ مِن أَسبَاب الأُلْفَة واجتماع الكَلِمَة وانتظام الأَمر. ولهذا قيل: مَن لانت كلمته وجبت محبَّته وحَسُنَت أُحدُوثته، وظمئت الْقُلُوب إلى لقائه وتنافست في مودته».

٣- إفشاء السَّلام:

قال ﷺ: **«يا أَيُّها النَّاس أفشوا السَّلام، وأطعموا الطَّعام، وصلوا الأرحام، وصلُّوا باللَّيل والنَّاس نيام، تدخلوا الجنَّة بسلام»**(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لا تدخلوا**

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥١) وأحمد (٥/ ٤٥١) وصححه الألباني.

الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[١].

قال الإمام الرَّازي: «الحكمة في طلب السَّلام عند التَّلاقي والمكاتبة دون غيرهما: أنَّ تحيَّة السَّلام طُلِبت عندما ذكر لأنَّها أوَّل أسباب الأُلْفَة والسَّلامة التي تضمنها السَّلام وهي أقصى الأماني، فتنبسط النَّفس- عند الاطلاع عليه- أيَّ بسطٍ وتتفاءلٍ به أحسن فأل».

٤- الكلام اللَّين:

قال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

قال الإمام القرطبي: «وَهَذَا كُلّه حَضّ عَلَى مَكَارِم الْأَخْلَاق، فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُون قَوْله لِلنَّاسِ لَيِّنًا، وَوَجْهه مُنْبَسِطًا طَلْقًا مَعَ الْبَرّ وَالْفَاجِر، وَالسُّنِّيّ وَالْمُبْتَدِع، مِنْ غَيْر مُدَاهَنَة، وَمِنْ غَيْر أَنْ يَتَكَلَّم مَعَهُ بِكَلَامٍ يَظُنّ أَنَّهُ يُرْضِي مَذْهَبه؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى وَهَارُون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

وَقَالَ طَلْحَة بْن عُمَر: قُلْت لِعَطَاءٍ: إِنَّك رَجُل يَجْتَمِع عِنْدك نَاس ذَوُو أَهْوَاء مُخْتَلِفَة، وَأَنَا رَجُل فِيَّ حِدَّة فَأَقُول لَهُمْ بَعْض الْقَوْل الْغَلِيظ، فَقَالَ: لَا تَفْعَل! يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

فالكلام اللَّين والطَّيب مِن الأسباب التي تؤلِّف بين القلوب، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء].

٥- التبسم:

قال رسول الله ﷺ: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق**»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٥٤).

(٢) رواه أبو يعلي (٦٥٥٠) والحاكم في المستدرك (٤٢٧، ٤٢٨) وصححه. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٦١).

وقال ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**»(٢).

وعن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم كثيراً، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون، ويبتسم(٣).

٦- التغافل عن أخطاء إخوانك:

قال الإمام أحمد بن حنبل عن هذا الخلق العظيم: «تسعة أعشار حسن الخلق في التغافل».

وقال عنه سيد التابعين الحسن البصري: «ما زال التغافل من فعل الكرام».

وقال ابن المبارك: «المؤمن يطلبُ المعاذير، والمنافق يطلب الزلات».

وقال بعض الحكماء: «وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز إلا بالتغافل».

وقال أكثم بن صيفي: «من شدَّد نفَّر، ومن تراخَ تألف، والشرف في التغافل».

وقال شبيب بن شيبة: «الأريب العاقل هو الفطن المتغافل».

٧- التَّعفّف عن سؤال النَّاس:

قال ﷺ: «**وازهد فيما في أيدي النَّاس يحبُّك النَّاس**»(٤).

٨- السَّعي في مصالح النَّاس وقضاء حاجاتهم:

قال ﷺ: «**مَن حفر ماءً لم تشرب منه كبد حرَّى مِن جنٍّ ولا إنسٍ ولا طائرٍ إلَّا آجره الله يوم القيامة**»(٥).

٩- السَّعي للإصلاح بين النَّاس:

قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٩١) والترمذي (١٩٥٦) وصححه الألباني.

(٣) رواه مسلم (٦٧٠، ٢٣٢٢).

(٤) رواه ابن ماجه (٤١٠٢) وصححه الألباني.

(٥) رواه ابن خزيمة في صحيحه (١٢٩٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٦٣).

١٠- الاهتمام بأمور المسلمين والإحساس بقضاياهم:

قال ﷺ: «**المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر**»(١).

١١- زيارة المسلم وعيادته إذا مرض:

فزيارة المسلم لأخيه المسلم تبعث على الحبِّ والإخاء، ولا سيَّما عند المرض، قال ﷺ: «**مَن عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله، ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوَّأت مِن الجنَّة منزلًا**»(٢).

وقال النبي ﷺ: «**إن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**»(٣).

١٢- التَّهادي:

لا شك أن تقديم الهديَّة يزيد مِن الأُلْفَة والمحبَّة والتَّقارب بين المهدي والمُهْدَى إليه، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**تهادوا تحابُّوا**».

وفي وصية رسول الله ﷺ لأبي ذر ﷺ: «**يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك**»(٤).

كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية وندب أمته إليها وفيه الأسوة الحسنة، ومن فضل الهدية- مع اتباع السنة- أنها تورث المودة وتذهب العداوة.

١٣- المحافظة على الصلاة في المسجد:

قال ابن حجر- رحمه الله- في المحافظة على الجماعة في الفجر والعشاء خاصّة: «انتظام الألفة بين المتجاورين في طرفي النّهار، وليختموا النّهار بالاجتماع على الطّاعة ويفتتحوه كذلك».

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦).
(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٨) وابن ماجه (١٤٤٣) وحسنه الألباني.
(٣) رواه مسلم (٢٥٦٧).
(٤) رواه مسلم (٢٦٢٥).

٣٠ـ علو الهمة

عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء- يعني المشركين- ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل وقد مَثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته بِبنَانِه[1].

علو الهمة خلق رفيع وغاية نبيلة، تعشقه النفوس الكريمة، وتهفو إليه الفِطر القويمة، وعلو الهمة من الأسس الأخلاقية الفاضلة، وإليه يرجع مجموعة من الظواهر الخلقية، كالجد في الأمور، والترفع عن الصغائر والدنايا، وكالطموح إلى المعالي.

علو الهمة لغة واصطلاحا :

العلو لغةً: العلوُّ مصدر من علا الشيءُ عُلُوًّا فهو عَليٌّ وعَلِيَ وتَعَلَّى،... ويقال: عَلا فلانٌ الجبل إذا رَقِيَه، وعَلا فلان فلانًا إذا قَهره، والعَليُّ الرَّفيعُ، وتَعالَى تَرَفَّع، وأصل هذه المادة يدلُّ على السموِّ والارتفاع.

الهمَّة لغةً: الهِمَّةُ: ما هَمَّ به من أمر ليفعله، تقول: إنه لعظيمُ الهَمِّ، وإِنه لَصغيرُ الهِمَّة، وإِنه لَبَعيدُ الهِمَّةِ.

وقال ابن القيم في تعريف الهمة: «والهمة فعلة من الهمِّ، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة، فالهمُّ مبدؤها، والهمَّة نهايتها».

علو الهمَّة اصطلاحًا:

هي: توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق؛ لحصول

---

(١) رواه البخاري (٢٨٠٥) ومسلم (١٩٠٣).

الكمال له أو لغيره.

وعلو الهمة: «استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور، وطلب المراتب السامية».

وقال المناوي: «عِظم الهمة: عدم المبالاة بسعادة الدنيا وشقاوتها».

وقال الراغب الأصفهاني: «والكبير الهمة على الإطلاق: هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه، فلا يصير عبد رعاية بطنه، وفرجه، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة».

قال ابن القيم- رحمه الله- واصفاً الهمة العالية: علو الهمة ألا تقف (أي النفس) دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلاً منه، ولا تبيع حظها من الله وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية.

الهمة في القرآن والسنة:

ندب الله عباده إلى المبادرة إلى فعْل الخيرات والمسارعة إلى نَيْل القُرُبات فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران].

وأثنى الله على أصحاب الهمم العالية، وفي طليعتهم الأنبياء والمرسلون، وفي مقدمتهم أولو العزم من الرسل، وعلى رأسهم خاتمهم محمد ﷺ.. وقد تجلت همتهم العالية في مثابرتهم وجهادهم ودعوتهم إلى الله عز وجل كما أوضحه الله عز وجل في قصص الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ووصف الله- سبحانه وتعالى- المؤمنين بوصف الرجال الذين هم أصحاب الهمم العالية، فصدقوا ما عاهدوا الله، ووفوا به، وأتموه، وأكملوه، فبذلوا مُهَجهم في مرضاته، وسبلوا أنفسهم في طاعته. قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأحزاب].

وقال سبحانه: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور:٣٧] فهؤلاء الرجال هم أصحاب الهمم العالية (ليسوا ممن يؤثر على ربه

دنيا، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره. فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك لا محذور فيه. لكنها لا تلهيهم، بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

وقال الله- سبحانه وتعالى- بعد أن ذكر عدداً من الأنبياء ومواقفهم، ودعوتهم لقومهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

وعن الحسين بن علي- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها**»(١).

قال المناوي: وهي الأخلاق الشرعية والخصال الدينية لا الأمور الدنيوية، فإن العلو فيها نزول (ويكره)- في رواية البيهقي و«يبغض»(٢) - (سفسافها) بفتح أوله، أي: حقيرها ورديئها.

فمن اتصف من عبيده بالأخلاق الزكية أحبه، ومن تحلى بالأوصاف الرديئة كرهه وشرف النفس صونها عن الرذائل والدنايا والمطامع القاطعة لأعناق الرجال، فيربأ بنفسه أن يلقيها في ذلك وليس المراد به التيه، فإنه يتولد من أمرين خبيثين: إعجاب بنفسه وازدراء بغيره والأول يتولد بين خلقين كريمين: إعزاز النفس وإكرامها وتعظيم مالكها، فيتولد من ذلك شرف النفس وصيانتها. وقد خلق- سبحانه وتعالى- لكل من القسمين أهلا لما مرَّ أن بني آدم تابعون للتربة التي خلقهم منها؛ فالتربة الطيبة نفوسها علية كريمة مطبوعة على الجود والسعة واللين والرفق لا كزازة ولا يبوسة فيها، والتربة الخبيثة نفوسها التي خلقت منها مطبوعة على الشقوة والصعوبة والشح والحقد وما أشبهه.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٨٩٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨٨): «فيه خالد بن إياس، ضعفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي، وبقية رجاله ثقات». وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٩٠).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٦٤٦) وقال الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار ص١١٥٠ : إسناده صحيح.

وعن حكيم بن حزام ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله**»(١).

قال ابن بطال: فيه ندب إلى التعفف عن المسألة، وحضٌّ على معالي الأمور، وترك دنيئها، والله يحب معالي الأمور.

وقال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»(٢).

وعامة نصوص الترغيب والترهيب في الوحيين الشريفين إنما ترمي إلى توليد قوة دافعة تحرك قلب المؤمن، وتوجهه إلى إقامة الطاعات، وتجنب المعاصي والمخالفات، وإلى بعث الهمة وتحريكها واستحثاثها للتنافس في الخيرات، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر.

ومن الأحاديث التي تبعث الهمة بالترغيب قوله ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التَّهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا**»(٣).

وقوله ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارق، ورتل، كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها**»(٤).

أقوال السلف الصالح في الهمة:

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لا تصغرنّ همتك، فإني لم أر أقعد بالرجل من سقوط همته».

وقال ابن القيم: «لا بد للسالك من همة تسيره وترقيه، وعلم يبصره ويهديه».

وقال: فكيف يحسن بذي همة قد أزاح الله عنه علله، وعرفه السعادة والشقاوة أن يرضى بأن يكون حيواناً، وقد أمكنه أن يصير إنساناً، وبأن يكون إنساناً وقد أمكنه أن يكون ملكاً، وبأن يكون ملكاً وقد أمكنه أن يكون ملكاً في مقعد صدق

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٧) ومسلم (١٠٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٣) رواه البخاري (٦١٥) ومسلم (٤٣٧).

(٤) رواه أبو داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤) وأحمد (٢/ ١٩٢) وقال الألباني: حسن صحيح.

عند مليك مقتدر، فتقوم الملائكة في خدمته، وتدخل عليهم من كل باب، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

ونقل ابن قتيبة عن بعض كتب الحكمة: ذو الهمة إن حُطَّ، فنفسه تأبى إلا عُلُوًّا، كالشعلة من النار يُصَوِّبُها صاحبها، وتأبى إلا ارتفاعا.

قال الحسن: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياه فألقها في نحره.

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل.

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان التركستاني: ما بلغني عن أحد من الناس أنه تعبد عبادة إلا تعبدت نظيرها وزدت عليه.

وقال أحد العباد: لو أن رجلاً سمع برجل هو أطوع لله منه فمات ذلك الرجل غمًا ما كان ذلك بكثير.

علو الهمة في سير الأولين:

* سيد بني سلمة عمرو بن الجموح ﷺ كان رجلا أعرج شديد العرج.. فلما كان يوم أحد قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين» فقام وهو أعرج فقال: والله إني لأرجو أن أطأ الجنة بعرجتي هذه .. فقاتل حتى قتل ﷺ(١).

* عن أسلم أبي عمران قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه، لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد. قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية(٢).

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٤٢) وفي إسناده مجاهيل.
(٢) رواه أبو داود (٢٥١٢) وصححه الألباني.

* وقيل لنافع: ما كان ابن عمر يفعل في منزله؟ قال: الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما. وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة الجماعة صام يومًا، وأحيا ليلة، وأعتق رقبة.

* واجتهد أبو موسى الأشعري- رضي الله عنه- قبل موته اجتهادًا شديدًا، فقيل له: لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأسَ مجراها أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلها أقلُّ من ذلك، قال: فلم يزل على ذلك حتى مات.

* وعن أسامة قال: كان من يرى سفيان الثوري يراه كأنه في سفينة يخاف الغرق، أكثر ما تسمعه يقول: «يا رب سلّم سلّم».

* وعن جعفر: دخلنا على أبي التياح نعوده، فقال: والله إنه لينبغي للرجل المسلم أن يزيده ما يرى في الناس من التهاون بأمر الله أن يزيده ذلك جدًا واجتهادًا، ثم بكى.

* وعن فاطمة بنت عبد الملك، زوج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- قالت: ما رأيت أحدًا أكثر صلاة ولا صيامًا منه، ولا أحدًا أشد فرقًا من ربه منه، كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه، فلا يزال يبكي تغلبه عيناه، ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينفض العصفور من الماء ويجلس يبكي فأطرح عليه اللحاف.

* وعن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك فقال: ألا تخبريني عن عمر؟ قالت: ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استُخلِف.

* وقيل لعامر بن عبد الله: كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر؟ فقال: هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار؟ وليس في ذلك خطير أمر، وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حرُّ النار النوم، فما ينام حتى يصبح.

* وعن الحسن قال: قال عامر بن قيس لقوم ذكروا الدنيا: وإنكم لتهتمون؟ أما والله لئن استطعت لأجعلنهما همًا واحدًا، قال: ففعل والله ذلك حتى لحق بالله.

* وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطًا في مسجد بيته يخوّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي، فوالله لأزحفن بك زحفًا، حتى يكون الكلل منك لا مني، فإذا دخلت الفترة (الفتور) تناول سوطه وضرب به ساقه، وقال: أنت أولى بالضرب من دابتي. وكان يقول: أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا به دوننا؟ كلا والله! لنزاحمَنَّهم عليه زحامًا، حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً.

* وعن وكيع قال: كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، واختلفت إليه أكثر من ستين سنة، فما رأيته يقضي ركعة.

* وعن حماد بن سلمة قال: ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله- عز وجل- فيها إلا وجدناه مطيعًا، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصليًا، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئًا أو عائدًا أو مشيعًا لجنازة أو قاعدًا في المسجد، قال: فكنا نرى أنه لا يحسن أي لا يستطيع أن يعصي الله- عز وجل.

* وكان الإمام البخاري يقوم في الليلة الواحدة ما يقارب عشرين مرة، لتدوين حديث أو فكرة.

* وقال الإمام أحمد بن حنبل: رحلت في طلب السُّنَّة إلى الثغور والشامات والسواحل، والمغرب والجزائر، ومكة والمدينة، واليمن، وخراسان وفارس، وقال: حججت خمس حجات، منها ثلاث حجج راجلاً من بغداد إلى مكة.

* وقال ابن الجوزي: طاف الإمام أحمد بن حنبل الدنيا مرتين، حتى جمع المسند وفيه ثلاثون ألف حديث، وقال أيضاً: ولو أني قلت: طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم، وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب ولله الحمد.

ثــمرات الهمة العالية:

١ - تحقيق كثير من الأمور التي يعدها عامة الناس خيالاً يتحقق:

ومن أمثلة ذلك بناء أمة مؤمنة في الجزيرة العربية التي يشيع فيها الجهل والشرك وذلك في فترة وجيزة، وابن ياسين استطاع أن يقود بعصابة قليلة من أصحابه دولة انتصرت على جيوش الأسبان بعد استشهاده، والإمام حسن البنا نادى في أمته الميتة

بأمور اعتبرت من الخيالات وهو القائل: «أحلام الأمس حقائق اليوم، وأحلام اليوم حقائق الغد».

٢- الوصول إلى مراتب عليا في العبادة والزهد:

قال معاذ- رضي الله عنه- على فراش الموت: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا ولا طول المكث فيها لجري (لعله لكري) الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل وظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر».

٣- البعد عن سفاسف الأمور ودناياها:

لما فرَّ عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس من العباسيين أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال: «إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عن ما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن» وردها على صاحبها.

٤- صاحب الهمة العالية يُعتمد عليه وتناط به الأمور الصعبة وتوكل إليه:

وهذا أمر مُشاهَد معروف؛ فإن المديرين والرؤساء عادة يطمحون للعمل مع صاحب الهمة العالية، ويستعدون للتضحية معه، حتى ولو كلفهم ذلك الكثير. وقد قيل: «ذو الهمة وإن حط نفسه تأبى إلا العلو، كالشعلة من النار يخفيها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً».

٥- صاحب الهمة العالية يستفيد من حياته أعظم استفادة وتكون أوقاته مثمرة بناءة:

قال الإمام ابن عقيل الحنبلي: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح. وكان الإمام النووي يقرأ كل يوم اثني عشر درساً شرحاً وتصحيحاً، ويقول لتلميذه: بارك الله في وقتي.

ويقول د. مَارْدِن: «كل رجل ناجح لديه نوع من الشباك يلتقط بها نحاتات وقراضات الزمان، ونعني بها فضلات الأيام والأجزاء الصغيرة من الساعات مما

يكنسه معظم الناس بين مهملات الحياة. وإن الرجل الذي يَدَّخِرُ كل الدقائق المفردة وأنصاف الساعات والأعياد غير المنتظرة والفسحات التي بين وقت وآخر، والفترات التي تنقضي في انتظار أشخاص يتأخرون عن مواعيد مضروبة لهم، ويستعمل كل هذه الأوقات ويستفيد منها ليأتي بنتائج باهرة يدهش لها الذين لم يفطنوا لهذا السر العظيم الشأن».

٦- صاحب الهمة العالية قدوة للناس.

واجبات عملية:

١- المجاهدة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت].

قال الإمام عيسى بن موسى: مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك في أكل هريسة السوق فلا أقدر على ذلك، لأجل البكور إلى سماع الحديث.

٢- العلم والبصيرة:

العلم يصعد بالهمة، ويرفع طالبه عن حضيض التقليد، ويُصفِّي النية.

٣- قراءة سيرة السلف الصالح:

يقول ابن القيم: «...ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فإذا هو يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحميدي و... فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب، ولله الحمد».

٤- إرادة الآخرة، وجعل الهموم همًّا واحداً:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]، وقال ﷺ: «**من كانت همّه الآخرة، جمع الله له شملَه، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومن كانت همّه الدنيا، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له**»[1].

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٥) وأحمد (٥/ ١٨٣) وصححه الألباني.

٥- كثرة ذكر الموت:

عن عطاء قال: كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ويبكون .

٦- الدعاء الصادق والالتجاء إلى الله:

فهو سبحانه القادر على أن يقوي إرادتنا، ويُعلي هممنا، ويرفع درجاتنا «اللهم ارزقني عملاً صالحاً ترضى به عني»، «اللهم إني أسألك علما نافعاً وعملاً صالحاً»، «اللهم علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني»، وقد قال ﷺ: **«أعجز الناس من عجز عن الدعاء»**(١).

٧- الاجتهاد في حصر الذهن، وتركيز الفكر في معالي الأمور:

قال الحسن: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

٨- صحبة أولي الهمم العالية، ومطالعة أخبارهم:

قال ﷺ: «**إن من الناس ناساً مفاتيح للخير مغاليق للشر**»(٢).

٩- نصيحة المخلصين:

قال ﷺ: «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»(٣).

١٠- الابتعاد عن كل ما من شأنه الهبوط بالهمة وتضييعها مثل:

أ - كثرة الزيارات للأقارب بدون هدف شرعي صحيح ولا غرض دنيوي فيه فائدة معتبرة .

ب - كثرة الزيارات للأصحاب فيكثر المزاح وتقل الفائدة .

جـ - الانهماك في تحصيل المال بدعوى التجارة وحيازة المال النافع للإسلام وأهله، ثم ينقلب الأمر إلى تحصيل محض للدنيا وانغماس فيها .

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٦٦٤٩) وابن حبان في صحيحه (٤٤٩٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥١٩).

(٢) رواه ابن ماجه (١٣٧) وحسنه الألباني.

(٣) رواه مسلم (٥٥).

د – تكليف الموظف نفسه بعملين صباحي ومسائي دون ضرورة لذلك.

هـ - كثرة التمتع بالمباحات. يقول محمد بن حسن موسى: «قد دخلت علينا في حياتنا الأسرية كثير من التقاليد الغريبة في أمر الاحتفاء الزائد بالأهل والأولاد ودعوى ضرورة بناء مستقبلهم.. وغير ذلك مما حاصله نسيان الكفالة الإلهية والضمان الرباني».

و – التسويف: قال الشاعر:

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسلٍ   إلى غدٍ إن يوم العاجزين غَدُ

ز – الكسل والفتور: قال الصاحب: «إن الراحة حيث تعب الكرام أوْدَع، لكنها أوضع، والقعود حيث قام الكرام أسعل لكنه أسفل» وقال الشاعر:

كأن التواني أنكح العجز بنته   وساق إليها حين أنكحها مهرا

فراشاً وطيئاً ثم قال له اتكئ   فَقُصْراكما لا شك أن تلدا فقرا

ح – مُلاحظة الخلق وتقليدهم والائتساء بهم، فأكثر الخلق مفرِّطون.

كتب للمؤلف

- ❖ الحبيب ﷺ - دار الكلمة
- ❖ الحبيب ﷺ - مترجم (إنجليزى) - دار الكلمة
- ❖ اليهود والجريمة - دار الكلمة
- ❖ اليهود بين فساد العقيدة وانحطاط الأخلاق
- ❖ رمضان وبناء المجتمع المسلم - دار نون
- ❖ شبهات انتخابية
- ❖ المستقبل للإسلام - دار التوزيع
- ❖ إلى شباب الإسلام - دار التوزيع
- ❖ دروس على الطريق - دار التوزيع
- ❖ العيد وفقه الدعوة - دار الكلمة
- ❖ بشائر النصر في ظلال القرآن - مؤسسة شروق
- ❖ الهجرة في ظلال القرآن - مؤسسة شروق
- ❖ الحج في ظلال القرآن - مؤسسة شروق
- ❖ كيف ندعم القضية الفلسطينية - دار الكلمة
- ❖ دورة المرأة في المقاطعة
- ❖ التجارة الرابحة
- ❖ قالوا عن الإخوان - مؤسسة شروق
- ❖ المعين في حفظ القرآن الكريم
- ❖ بناء المجتمع الرباني من خلال سورة الحجرات - مؤسسة شروق
- ❖ الإخوان ودورهم في إصلاح التعليم

فهرس الكتاب